الكتاب رقم

(٥)

موسوعة تعظيم علّام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

محبة الله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن التميمي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

الكتاب رقم (٥)

محبةُ الله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

مُقَدِّمَة

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] فله الحمد كلّه، أوّله وآخره، علانيته وسرّه، وله الحمد على كل حال. جعل محبته سرَّ سعادةِ خلقه، ولُباب دينِ أوليائه، فشعارهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] ودثارهم: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وغايتهم: إحسانُ الدين لله، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

أما بعد؛ فإنّ المحبّة هي محرّك القلب، فحيثما اتّجهتْ تبعها، وحيث ظَعَنَتْ لحقها، وأنّى كانت فهو معها. وكل شيء يُحب لغيره إلا الله تعالى فيُحَبُّ لذاته تبارك وتعالى وتقدّس، ومن أحب غير الله عُذّب به، وليس الأمر فقط أن تُحِبَّ الله، فكلٌّ مجبولٌ على حبّ من إليه أحسن، إنّما عظمة الأمر أن يحبك الله جل جلاله وتقدّست أسماؤه وصفاته وأن ينظمك في سلك أحبابه وأوليائه الذين يحبهم ويحبونه، وكلُّ المحابّ منقطعة إلا محبة الله وما تفرّع منها من محابّه سبحانه وبحمده.

وهذه حروف رقمتها بتيسير الله تعالى بُغية تبيان شيء من معاني محبة الله تعالى ولوازمها وفضائلها وأحكامها وغاياتها وما إلى ذلك.. سائلًا ربي البر الرحيم الجواد الكريم لطفه وتوفيقه وإعانته وحفظه، هو وليي في الدنيا والآخرة،

هو حسبي ونعم الوكيل، ولا إله إلا هو، وصلى الله وسلم وبارك على نبيّه ومصطفاه محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي
٥/ ٢/ ١٤٣٧
aldumaiji@gmail.com

التعريف

هذا الباب هو لُبَابُ التوحيد على الحقيقة، فلا إيمان إلا بمحبة ولا عبادة إلا بمحبة، بل ولا حياة إلا بمحبة، وحيث وجدت المحبة الصحيحة الراسخة في قلب العبد لربه تعالى فلا تَسَلْ عن نعيمه وأنسه وراحته وحسن تعبده لربه تعالى.

المراد بها: قال ابن فارس في مادة حبّ: «الحاء والباء أصول ثلاثة، أحدها اللزوم والثبات ـ وهو المراد هنا ـ والآخر الحَبّة من الشيء ذي الحَبّ، والثالث وصف القِصر.

أما اللزوم فالحُبّ والمحبة، اشتقاقه من أحَبَّهُ إذا لزمه، والمُحبُّ: البعير الذي يَحْسِر فيلزم مكانه، قال:

جَبَّتْ نساء العالمين بالسبب فهُنَّ بَعْدُ كلُّهُن كالمُحِبّ

ويقال: المُحَبُّ بالفتح أيضًا. ويقال: أحَبَّ البعير، إذا قام، قالوا: الإحباب من الإبل مثل الحِران في الدواب، قال الفقعسي:

ضَرْبَ بعير السوء إذْ أحَبَّا

أي: وقف»(١). وقال الأزهري: «حَبَّةُ القلب: هي العلقة السوداء التي تكون داخل القلب، يُقال: أصابت فلانةُ حَبَّة(٢) قلب فلان: إذا شَغَفَ قَلْبَهُ

---

(١) معجم المقاييس (٢٣١).

(٢) أما الحِبَّة بكسر الحاء فكل نبت له حب فاسم الحب منه الحِبَّة. قاله الأصمعي =

حبًّها. والحُبّ: نقيض البغض، تقول: أحببت الشيء فأنا مُحِبٌ وهو مُحَبٌّ ومحبوب. قال الفراء: حببته لغة»(١). وقال الراغب: «الحِبُّ: مَنْ فَرَطَ حُبُّه، والمحبة: إرادة ما تراه أو تظنه خيرًا. وهي على ثلاثة أوجه: محبة للذة، كمحبة الرجل للمرأة، ومنه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، ومحبة للنفع، كمحبة شيء يُنتفع به، ومنه: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]، ومحبة للفضل، كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض لأجل العلم، وربما فسرت بالإرادة في نحو قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ [التوبة: ١٠٨] وليس كذلك، فإن المحبة أبلغ من الإرادة، فكل محبة إرادة وليس كل إرادة محبة، وحَبَابُكَ أن تفعل كذا: أي غاية محبتك لذلك»(٢).

وقال الفيروزآبادي: الحُبُّ«: الوِدادُ كالحِبابِ، والحِبّ، بكسرهما، والمحبَّةُ والحُبَابِ بالضم(٣). والمُحَبَّة والمحبوبة والمُحبَّبَة والحبيبة: مدينة النبي ﷺ»(٤).

= (معجم التهذيب ١/ ٧١٦). قلت: ومنه قوله ﷺ: **«كما تنبت الحِبَّة في حميل السيل»** رواه البخاري.

(١) معجم التهذيب (١/ ٧١٦، ٧١٧).

(٢) المفردات (١١٢، ١١٣).

(٣) قال الأصمعي: الحُباب، بالضم: الحية، وإنما قيل الحُباب: اسم شيطان؛ لأن الحية يقال لها شيطان. ويقال للحبيب حُبَاب. قاله ابن السكيت (معجم التهذيب ١/ ٧١٧).

(٤) القاموس (٣٣٠، ٣٣١).

ويلاحظ من التعاريف السابقة أن كل واحد نظر إلى جهة معينة من المعنى أو إلى شق من الاشتقاق، وهي أجمع مما ذكروه[١].

---

(١) وقد ذكر أبو عثمان الجاحظ كلامًا جميلاً في المعاني العامة للمحبة بين المسلمين، فقال: «ينبغي لمُحِبِّ الكمال أن يعوّد نفسه محبة الناس، والتودد إليهم، والتحنّن عليهم، والرأفة والرحمة لهم، فإن الناس قَبيلٌ واحد متناسبون، تجمعهم الإنسانية، وحِلْيةُ القوة العقلية في جميعهم. وبهذه النفس صار الإنسان إنسانًا. والمودة إنما تكون بالنفس، فواجبٌ أن يكونوا كلهم متحابين متوادين، وذلك في الناس طبيعة لو لم تقدهم الأهواء التي تُحبّب لصاحبها الترؤس فتقوده إلى الكبر والإعجاب والتسلط على المستضعف، واستصغار الفقير، وحسد الغني، وبُغض ذي الفضل، فتتسبّب من أجل هذه الأسباب العداوات، وتتأكد البغضاء بينهم.

فإذا ضبط الإنسان نفسه الغضبية، وانقاد لنفسه العاقلة، صار الناس كلهم له إخوانًا وأحبابًا...» باختصار وتصرف عن (تهذيب الأخلاق) للجاحظ.

وقال الراغب في (الذريعة إلى مكارم الشريعة، ٣٦٤): «المحبة والعدل من أسباب نظام أمور الناس، ولو تحابّ الناس وتعاملوا بالمحبة لاستغنوا بها عن العدل، فقد قيل: العدل خليفة المحبة، يُستعمل حيث لا توجد المحبة. ولذلك عظّم الله تعالى المنة بإيقاع المحبة بين أهل الملّة، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]، أي محبة في القلوب، تنبيهًا على أن ذلك أجلب للعقائد».

قلت: وهذه لفتة نفيسة للدعاة إلى الله تعالى، وهي أفضل من المهابة ـ التي منشؤها الخوف لا التعظيم ـ؛ لأن طاعة المحبة من الداخل، وطاعة الرهبة من الخارج. وهي تزول بزوال سببها، وكل قوم إذا تحابُّوا تواصلوا، وإذا تواصلوا تعاونوا، وإذا =

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تحد المحبة بحد أوضح منها؛ فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدّها[(١)] وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة. وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها، وشواهدها، وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات، وكثرت الإشارات بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله، وملكه للعبارة، وهذه المادة ـ المحبة ـ تدور في اللغة على خمسة أشياء:

أحدها: الصفاء والبياض، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَبُ الأسنان.

الثاني: العلو والظهور، ومنه حَبَب الماء وحُبَابه، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد.

الثالث: اللزوم والثبات، ومنه حَبَّ البعير وأحبَّ، إذا برك ولم يقم.

الرابع: اللب، ومنه حبَّةُ القلب للُبِّهِ وداخله، ومنه الحَبَّة لواحدة الحبوب، إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه.

الخامس: الحفظ والإمساك، ومنه حِبُّ الماء، للوعاء الذي يُحفظ فيه ويمسكه.

ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة، فإنها صفاء المودة، وهيجان

=

تعاونوا عملوا، وإذا عملوا عمَّرُوا، وإذا عمَّروا عُمِّروا ووُفّقوا وبورك لهم.

(١) حدّها أي تعريفها.

إرادات القلب للمحبوب، وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحبوب، وثبوت إرادة القلب للمحبوب، ولزومها لزومًا لا تفارقه، ولإعطاء المحب محبوبَهُ لُبَّهُ، وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه على محبوبه. فاجتمعت فيها المعاني الخمسة، ووضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمّى غاية المناسبة؛ الحاء التي هي من أقصى الحلق، والباء الشفوية التي هي نهايته، فللحاء الابتداء، وللباء الانتهاء، وهذا شأن المحبة وتعلق صاحبها بالمحبوب.

ثم ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ثلاثين حدًّا للمحبة، وقال في آخرها:

الثلاثون ـ وهو من أجمع ما قيل فيها ـ قال أبو بكر الكتّاني: جرت مسألة في المحبة[1] بمكة أعزّها الله تعالى أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنًّا، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هيبته، وصفا شِرْبُه من كأس وُدِّه، وانكشف له الجبّارُ من أستار غيبه، فإن تكلّم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله. فبكى الشيوخ، وقالوا: ما على هذا مزيد»[2].

---

(١) أي الشرعية.

(٢) المدارج (٣/ ٤٣٦ـ٤٤٨) باختصار. وفي طريق الهجرتين (٢/ ٦٧٤): «وقال أبو عمرو الزجاجي: سألت الجنيد عن المحبة. فقال: تريد الإشارة؟ قلت: لا. قال: تريد الدعوى؟ قلت: لا. قال: فأيش تريد؟ قلت: عين المحبة. فقال: أن تحب ما يحب الله في عباده وتكره ما يكره الله في عباده».

وقال بعد ذكره لكثير من الحدود: «وكلُّ هد تعنٍّ. ولا توصف المحبة ولا تحد بحد أوضح من المحبة، ولا أقرب إلى الفهم من لفظها، وأما ذكر الحدود والتعريفات؛ فإنما يكون عند حصول الإشكال والاستعجام على الفهم، فإذا زال الإشكال وعُدم الاستعجام، فلا حاجة إلى ذكر الحدود والتعريفات، كما قال بعضهم: إن كل لفظ يعبّر به عن الشيء فلابد أن يكون ألطف وأرقّ منه. والمحبة ألطف وأرقّ من كل ما يعبّر به عنها»(١).

قال الغزالي: «وقيل في المحبة: هي قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح، وقال هرم بن حيان: المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه. وإذا أحبه أقبل عليه. وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه، لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة»(٢).

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٦٧٤)، وانظر: روضة المحبين (٢٤-٢٦).

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ١٦٦٤، ١٦٦٥).

أنواع المحبة

أنواع المحبة (بحسب المحبوبين):

للمحبة بحسب من نحبهم ثلاثة أنواع:

الأول: محبة الله تعالى، وهي أن تَهَبَ كُلَّك لمن أحببت، فلا يبقى لك منه شيء. والمراد: أن تهب إرادتك وعزمك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه، وتجعلها حبسًا على مرضاته ومحابّه. فلا تأخذ لنفسك منها إلا ما أعطاك فتأخذهُ منه له[(١)].

الثاني: محبة الرسول ﷺ؛ وهي دليل الإيمان الصادق، مصداقًا لقوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين**»[(٢)]، وليس هذا الحب مجرد عاطفة جوفاء، وإنما هو حب حقيقي نابع من القلب ومن العقل معًا، ودليل صدق ذلك هو اتباع المصطفى ﷺ في كل ما أمر به أو نهى عنه، فالمحب مطيع لمن أحبه[(٣)].

ولعمر الله لو أنفق المرء عمره من حين تمييزه إلى وفاته لهجًا بالصلاة والسلام على الحبيب ﷺ ما وفى معشار حقه عليه، ولو عقلنا لعرفنا فضله وحقه

(١) انظر: تهذيب المدارج (٥١٢)، وسيأتي تفصيل ذلك في فضيلة المحبة ومكانتها ومنزلتها.

(٢) رواه مسلم.

(٣) انظر: المدارج (٣/ ٢٢).

ولأحببناه حبًّا ليس حب الزاعمين صلوات الله وسلامه عليه[١].

الثالث: محبة الخلق، ولهذه المحبة أنواع عديدة، أفضلها محبة المؤمن لأخيه في الله تعالى، أي حبًا خالصًا لا منفعة من ورائه.

قال ابن حزم في شأن هذه المحبة: «إن المحبة ضروب؛ فأفضلها محبة المتحابين في الله عز وجل، إما لاجتهاد في العمل، وإما لاتفاق في أصل النحلة والمذهب، وإما لفضل علم يُمنحه الإنسان، ومحبة القرابة، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب، ومحبة التصاحب والمعرفة، ومحبة البر، ومحبة الطمع في جاه المحبوب، ومحبة المتحابين بسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر، ومحبة العشق التي لا علة لها إلا اتصال النفوس»[٢].

أنواعها بحسب ما يحب لنفسه أو لغيره:

«والمحبوب قسمان: محبوب لنفسه، ومحبوب لغيره. والمحبوب لغيره لابد أن ينتهي إلى المحبوب لنفسه، دفعًا للتسلسل المحال، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره، وليس شيء يُحب لنفسه إلا الله وحده، وكل ما سواه مما يُحب[٣] فإنما محبته تبع لمحبة الرب تعالى، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه، فإنها تبع لمحبته سبحانه، وهي من لوازم محبته، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه.

---

(١) وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله في محبته صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

(٢) طوق الحمامة، ابن حزم الأندلسي (٦٣) عن نضرة النعيم (٨/ ٣٣٢٩).

(٣) أي محبة شرعية.

وهذا موضع يجب الاعتناء به، فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره، والتي لا تنفع، بل قد تضر.

فاعلم أنه لا يُحب لذاته إلا مَن كماله من لوازم ذاته، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته، وما سواه فإنما يُبغض ويُكره لمنافاته محابّه ومضادته لها، وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافاة وضعفها، فما كان أشد منافاة لمحابّه كان أشد كراهةً من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها.

فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته، وموالاته ومعاداته، فتمسك بهذا الأصل غاية التمسك في نفسك وفي غيرك، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابّه ومساخطه، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا تمزّق ولا رياضة.

والمحبوب لغيره قسمان أيضًا:

أحدهما: ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله. والثاني: ما يتألم به ولكن يحتمله لإفضائه إلى محبوبه، كشرب الدواء الكريه. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالأمور أربعة: مكروه يوصل إلى مكروه، ومكروه يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى محبوب، ومحبوب يوصل إلى مكروه.

فالأول والثالث قد اجتمع فيهما داعي الفعل أو الترك من وجهين، وبقي

القسمان الآخران يتجاذبها الداعيان، وهما معترك الابتلاء والامتحان. فالنفس تؤثر أقربهما جوارًا منهما وهو العاجل. والعقل والإيمان يؤثران أنفعهما وأبقاهما، والقلب بين الداعيين. وهو إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، وههنا محل الابتلاء شرعًا وقدرًا. فداعي العقل والإيمان ينادي كل وقت: حي على الفلاح، عند الصباح يحمد القوم السُّرَى(١)، وفي الممات يحمد العبدُ التُّقى، فإذا اشتد ظلام ليل المحبة، وتحكّم سلطان الشهوة والإرادة يقول: يا نفس اصبري.

فما هي إلا ساعة ثم تنقضي   ويذهب هذا كلُّه ويزول»(٢)

أنواعها بحسب النفع والضر:

«وهما نوعان: محبة نافعة، ومحبة ضارة. ويتفرع من كل نوع ثلاثة أنواع: فأضحت ستة أنواع، فيتفرع من المحبة النافعة: محبة الله تعالى، والمحبة في الله، ومحبة كل ما يعين على طاعة الله تعالى، واجتناب معصيته.

ويتفرع من المحبة الضارة؛ المحبة مع الله تعالى، ومحبة ما يبغضه الله، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله أو تنقصها.

فهذه ستة أنواع عليها مدار محابّ الخلق، فمحبة الله عز وجل أصل المحاب المحمودة، وأصل الإيمان والتوحيد. والنوعان الآخران تبع لها. والمحبة مع الله أصل الشرك والمحابّ المذمومة، والنوعان الآخران تبع لها، ومحبة الصور

(١) السرى: هو السفر بليل. وأول من قاله خالد بن الوليد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) الداء والدواء، ابن القيم (٤٥٤) باختصار يسير.

المحرمة وعشقها من موجبات الشرك، وكلما كان العبد أقرب إلى الشرك وأبعد من الإخلاص، كانت محبته بعشق الصور أشد، وكلما كان أكثر إخلاصًا وأشد توحيدًا؛ كان أبعد من عشق الصور، ولهذا أصاب امرأة العزيز ما أصابها من العشق لشركها، وبخاصة يوسف الصديق بإخلاصه، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالسوء: العشق، والفحشاء: الزنى»[1]. وقد قرئت (المخلِصين) بكسر اللام وهي المراد هنا[2].

أنواعها بحسب الخصوصية والاشتراك:

«وهي نوعان[3]: الأول: محبة خاصة لا تصلح إلا لله وحده، ومتى أحب العبدُ بها غيره كان شركًا لا يغفره الله تعالى، فهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره.

فهذه المحبة لا يجوز تعلّقها بغير الله أصلاً، وهي التي سوّى المشركون بين آلهتهم وبين الله فيها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] أي يحبونهم كما يحبون الله، أما الذين آمنوا فأخلصوا حبهم لله.

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٨٥٣، ٨٥٤).

(٢) وانظر السابق (١/ ١٣٣).

(٣) أي المحبة المشروعة.

الثاني: المحبة المشتركة، وهي ثلاثة أنواع:

أحدها: محبة طبيعة مشتركة، كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء، وهذه لا تستلزم التعظيم.

الثاني: محبة رحمة وإشفاق، كمحبة الوالد لولده الطفل ونحوها، وهذه لا تستلزم التعظيم.

الثالث: محبة أنس وإلف، وهي محبة المشتركين في صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر لبعضهم بعضًا، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضًا.

فهذه الأنواع الثلاثة هي المحبة التي تصلح للخلق بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لا يكون شركًا في محبة الله، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء، والعسل، والذراع، والشراب الحلو البارد، ويحب نساءه وأصحابه»[١].

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم (٢/ ٦٤١-٦٤٣) بتصرف.

مراتب المحبة

أولها: العلاقة، لتعلق القلب بالمحبوب.

الثانية: الإرادة؛ وهي ميل القلب إلى المحبوب وطلبه له.

الثالثة: الصبابة؛ وهي انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه كانصباب الماء في الحدور.

الرابعة: الغرام؛ وهو الحب اللازم للقلب الذي لا يفارقه، بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه، ومنه سُمي عذاب النار غرامًا؛ للزومه لأهله وعدم مفارقته لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

الخامسة: الوداد، وهو صفو المحبة وخالصها ولبُّها، والودود من أسماء الرب تعالى. وفيه قولان؛ أحدهما: أنه المودود. والثاني: أنه الوادُّ لعباده(١).

السادسة: الشغف؛ أي وصول الحب إلى شِغَاف القلب أي: غشاءه، فإذا وصل إليه باشر القلب، كما قال النسوة عن امرأة العزيز: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠].

السابعة: العشق؛ وهو الحب المفرط الذي يُخاف على صاحبه منه(٢).

---

(١) وكلاهما حق.

(٢) والعشق نصفان؛ نصف وهم وخيال، ونصف شهوة. لذلك فعند النكاح يزول الأمران =

الثامنة: التتيُّم: وهو التعبد والتذلل. يقال: تيّمه الحب أي ذلّله وعبّده، وتَيْمُ الله: عبد الله.

التاسعة: التعبُّدُ؛ وهو فوق التتيُّم ، فإن العبد هو الذي قد ملك المحبوب رقَّه فلم يبق له شيء من نفسه البتة، بل كله عبد لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا، وهذه هي حقيقة العبودية، ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها[١]. ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة وصفه الله بها في أشرف مقاماته؛ الإسراء، والدعوة، والتحدي[٢]، وبذلك استحق التقديم على الخلائق في الدنيا والآخرة، وكذلك يقول المسيح عليه الصلاة والسلام لهم إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: «**اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»[٣]، قال ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ـ قدس[٤] الله روحه ـ يقول: فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى، وكمال مغفرته له.

العاشرة: مرتبة الخُلَّة؛ وقد انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما

=

وتبقى المودة وتنمو مع حسن العشرة، وفي الحديث «**لم يُر للمتحابين مثل التزويج**» رواه ابن ماجه (١٨٤٧). وصححه الألباني في الصحيحة (٦٢٤). وكما قيل: الحب إذا نكح فسد؛ لأنه بالنكاح يضمحل الوهم والخيال؛ وتذهب الشهوة باستفراغها.

(١) انظر: العبودية، شيخ الإسلام (٣٤).

(٢) وقد مر في باب العبودية تفصيل ذلك.

(٣) متفق عليه.

(٤) أي طهره من الذنوب، والمراد: غفر الله له.

وسلم[١]، كما صح عنه أنه قال: «**إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً**»[٢] وقال: «**لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الرحمن**»[٣]. والحديثان يبطلان قول من قال: الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد. والخُلَّة: هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب[٤]، كما قيل:

قد تخللتِ مسلك الروح مني ... ولذا سُمّي الخليلُ خليلا

وهذا هو السرّ الذي لأجله ـ والله أعلم ـ أمر الخليل بذبح ولده، وثمرة فؤاده، وفِلْذة كبده؛ لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلقت به شعبة من قلبه؛ فأمر بذبحه ليخرج المزاحم من قلبه، فلمّا وطّن نفسه[٥] على ذلك، وعزم عليه عزمًا جازمًا حصل مقصود الأمر، فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة، فحال بينه وبينه، وفداه بالذبح العظيم، فهو بلاء ومحنة ومنحة عليه معًا.

وهذه الدعوة إنما دعا إليها خواص خلقه، وأهل الألباب والبصائر منهم

(١) أي من جهة الله تعالى. وقد أعطي صلوات الله وسلامه عليه الخلة والكلام ولم يجتمعا لغيره.

(٢) رواه مسلم (٥٣٢).

(٣) متفق عليه.

(٤) وتقييدات الخلة إنما هي في المخلوقين، أما خلة الرحمن جل جلاله فنثبتها بلا كيف.

(٥) لذا كان شيخ الإسلام يقول: إن الإرادة الجازمة لها حكم العمل والترك في الثواب والعقاب. ويأتي في باب الإرادة إن شاء الله تعالى.

﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ[(١)] إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]، فما كل أحد يجيب داعيها، ولا كل عين قريرة بها. وأهلها هم الذين حصلوا في وسط قبضة اليمين يوم القبضتين[(٢)]، وسائر أهل اليمين في أطرافها.

فما كل عين بالحبيب قريرة ... ولا كل من نودي يجيب المناديا

ومن لا يجبْ داعي هُداك فخلِّه ... يُجِبْ كلَّ من أضحى إلى الغي داعيا[(٣)]

وقال شيخ الإسلام بعد ذكره لحديث جندب بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس قال: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»[(٤)]. «وفيه؛ أنه قال ذلك قبل موته بأيام، وذلك من تمام رسالته، فإن ذلك تمام تحقيق مخالّته لله، التي أصلها محبة الله تعالى للعبد، ومحبة العبد لله؛ خلافًا للجهمية[(٥)] وفي

---

(١) أي عملت عمل المصدّق.

(٢) حديث القبضتين أخرجه البزار والطبراني وابن مردويه عن أبي سعيد، وصححه ابن القيم كما في مختصر الصواعق المرسلة (٣٩٢) وله ألفاظ وطرق مختلفة.

(٣) المدارج (٣/ ٤٦٥- ٤٧١) باختصار. وانظر تفصيلها وغيرها في: روضة المحبين (٢٥ـ٥٤).

(٤) مسلم (٥٣٢).

(٥) وقال في درء تعارض العقل والنقل: «والعبادة تجمع كمال الحب مع كمال الذل، فلا يكون أحد مؤمنًا حتى يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، وأن يعبد الله مخلصًا له الدين. فهذا الذي ذكره في (مقامات العارفين) هو أول قدم يضعه المؤمن في الإيمان، ولا يكون مؤمنًا من لم يتصف بهذا. وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وعلماؤها على =

ذلك تحقيق توحيد الله، وألا يعبدوا إلا إياه، وردٌّ على أشباه المشركين.

والخُلَّةُ: هي كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله، ومن الرب سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه. ولهذا لم يكن له ﷺ خليلٌ، إذ الخُلَّةُ لا تحتمل الشركة، بخلاف أصل الحب؛ فإنه ﷺ قد قال في الحديث الصحيح في الحسن وأسامة: «**اللّهم إني أُحبُّهما فأحِبَّهما، وأحِبَّ من يُحبُّهما**»[(١)]، وسأله عمرو بن العاص: أي الناس أحبُّ إليك؟ قال: «**عائشة**». قال: فمن الرجال؟ قال: «**أبوها**»[(٢)] وأمثال ذلك كثير.

أما الخُلَّة فخاصّة، وقول بعض الناس: إن محمدًا حبيب الله وإبراهيم خليل الله، وظنه أن المحبة فوق الخلة؛ قول ضعيف؛ فإن محمدًا أيضًا خليل الله، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة المستفيضة. وما يُروى أن العباس يُحشر بين حبيب وخليل وأمثال ذلك؛ فأحاديث موضوعة لا تصلح أن يعتمد عليها»[(٣)].

=

أن الله يُحب لذاته، لم ينازع في ذلك إلا طائفة من أهل الكلام والرأي، الذين سلكوا مسلك الجهمية في بعض أمورهم، فقالوا: إنه لا يُحِبّ ولا يُحَبُّ». (٦/ ٦٢).

(١) البخاري (٣٧٣٥) بدون «**وأحب من يحبهما**» فهي في الحسن والحسين عند الترمذي وحسنه (٧٦٩) وضعفه الذهبي. وله شاهد في المسند (٢/ ٤٤٦) من طريقين بسند حسن. (ملخصًا من هامش العبودية، تحقيق: علي حسن عبد الحميد).

(٢) متفق عليه.

(٣) رسالة العبودية، ابن تيمية (١٥١ـ ١٥٥)، وانظرها في: الفتاوى (١٠/ ٢٠٢ـ ٢٠٤)، وانظر: الداء والدواء لابن القيم (٤٤٦، ٤٤٧).

القلب يتحرك بالمحبة

قال شيخ الإسلام: «المحبة هي أصل كل عمل ديني، والخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]»(١).

وقال ابن القيم: «العبد لا يترك ما يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه، لكنه يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة، وخاصية العقل إيثار أعلى المحبوبين على أدناهما، وأيسر المكروهين على أقواهما، ولا يتم له هذا إلا بأمرين: قوة الإدراك، وشجاعة القلب. فإن التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما لضعف الإدراك بحيث إنه لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما هي عليه، وإما لضعف في النفس وعجز في القلب لا يطاوعه لإيثار الأصلح له مع علمه بأنه الأصلح. فأصل الشر ضعف الإدراك، وضعف النفس ودناءتها، وأصل الخير من كمال الإدراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها.

فالحب والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه، والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدؤه، وهاتان القوتان في القلب أصل سعادة العبد وشقاوته.

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٦١، ٦٢).

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق أو باطل، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله، وكل إرادة تمنع كمال الحب لله ورسوله، وتزاحم هذه المحبة؛ فهي معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له، فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفرًا وشركًا أكبر، وإن لم تعارضه قدحت في كماله، وأثّرت فيه ضعفًا وفتورًا في العزيمة والطلب. وهي تحجب الواصل، وتقطع الطالب، وتنكس الراغب. فلا تصحّ الموالاة إلا بالمعاداة، كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]. فلم تصحّ لخليل الله الموالاة والخلّة إلا بتحقيق هذه المعاداة، فإنه لا ولاء إلا ببراء، ولا ولاء لله إلا بالبراءة من كل معبود سواه.

وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فأصلها المحبة، فهي علتها الفاعلية والغائية. وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع: حركة اختيارية إرادية، وحركة طبيعية، وحركة قسرية، والحركة الطبيعية أصلها السكون، وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعي فهو يتحرك للعود إليه، وخروجه عن مركزه ومستقره إنما هو بتحريك القاسر المحرّك له، والحركة الاختيارية الإرادية هي أصل الحركتين الأخريين، وهي تابعة للإرادة والمحبة، فصارت الحركات الثلاث تابعة للإرادة والمحبة»[١].

(١) الداء والدواء (٤٤٧-٤٦٦) باختصار. وانظر: روضة المحبين (١٤٦)، وإغاثة اللهفان (٨٢٤- ٨٣٧).

منزلة المحبة وفضلها ومكانتها

محبة الله تعالى هي أصل الأصول، والدين كله قائم عليها، ومَن لا محبة له لا دين له ولا توحيد ولا توفيق ولا هدى له.

قال شيخ الإسلام: محبة الله تعالى من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله، وأجلّ قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كذلك محبة رسوله ﷺ، كما أن التصديق بهذا الواجب أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين؛ فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة؛ إما عن محبة محمودة، أو عن محبة مذمومة ، فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة ، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملًا صالحًا، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله، فإن الله لا يقبل إلا ما أُريد به وجهه، وأول من تسعر بهم النار هم القارئ المرائي، والمجاهد المرائي، والمتصدق المرائي.

وإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله، وهو إرادة الله وحده، فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته، وهذا كمال المحبة لكن أكثر ما جاء به المطلوب مسمى العبادة كقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته، وكمال الذل ونهايته.

واسم المحبة فيه إطلاق وعموم، فإن المؤمن يحب الله ويحب رسله وأنبياءه وعباده المؤمنين، وإن كان ذلك من محبة الله، وإن كانت المحبة التي لله لا يستحقها غيره، لهذا جاءت محبة الله سبحانه وتعالى مذكورة فيما يختص به سبحانه

من العبادة والإنابة إليه والتبتل له ونحو ذلك، فكل هذه الأسماء تتضمن محبة الله سبحانه وتعالى.

ثم إنه بين أن محبته أصل الدين، فكمال الدين بكمالها، ونقصه بنقصها، فإن النبي ﷺ قال: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**»(١)، وقد ثبت أن أفضل ما تطوّع به العبد هو الجهاد في سبيل الله، والجهاد دليل المحبة الكاملة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٢٤]. فالمحبة مستلزمة للجهاد؛ لأن المحب يحب ما يحبه محبوبه، وهو موافق له في كل أموره»(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منزلة المحبة: «ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]: منزلة المحبة، وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى عَلَمِهَا شمّر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبِرَوْحِ نسيمها تروّح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرّة العيون، وهي الحياة التي من حُرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلّت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام. وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه. تحمل

---

(١) الترمذي، وقال: حسن صحيح (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة (١١٢٢).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٤٨-٥٨) باختصار.

أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها. وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من معيّة محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدّر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، فيالها من نعمة على المحبين سابغة.

تالله لقد سبق القومُ السعاة وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدّموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون.

من لي بمثل سيرك المدلَّلِ تمشي رويدًا وتجي في الأولِ

أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم: حي على الفلاح، وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بذلهم بالرضى والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح. تالله لقد حمدوا عند الوصول سُراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد القوم السُّرى عند الصباح.

فحيهلاً، إن كنت ذا همّةٍ فقد حدا بك حادي الشوق فاطْوِ المراحلا
وقل لمنادي حبهم ورضاهم إذا ما دعا لبيك ألفًا كواملاً
ولا تنظر الأطلال من دونهم، فإن نظرت إلى الأطلال عُدْنَ حوائلاً
ولا تنتظر بالسير رفقة قاعدٍ ودعه، فإن الشوق يكفيك حاملاً
وخُذ منهمُ زادًا إليهم وسِرْ على طريق الهدى والفقر تصبح واصلاً

وأحيِ بذكراهم سُراك إذا وَنَتْ ركابُك، فالذكرى تعيدك عاملاً
وإما تخافنَّ الكلال فقل لها: أمامكِ وِرْدُ الوصل، فابغِ المناهلا
وخذ قبسًا من نورهم ثم سِرْ بِهِ فنورهمُ يهديك ليس المشاعلا
وحيَّ على جنات عدنٍ بقربهم منازلك الأولى بها كنت نازلاً
ولكن سباك الكاشحون، لأجل ذا وقفت على الأطلال تبكي المنازلا
فدعها رسومًا دارسات فما بها مقيل، فجاوزها، فليست منازلا
وخُذْ يمنةً عنها على المنهج الذي عليه سرى وفد المحبة آهلاً
وقل: ساعدي يا نفس بالصبر ساعة فعند اللقا ذا الكدُّ يصبح زائلاً
فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلاً

أول نقدةٍ من أثمان المحبة بذل الروح، فما للمفلس الجبان البخيل وسومها؟ تالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون. لقد أُقيمت للعرض في سوق من يزيد، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس[١]، فتأخر البطالون، وقام المحبون ينظرون أيهم يصلح أن يكون ثمنًا؟ فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لـمّا كثر المدّعون للمحبة، طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يُعطى الناس بدعواهم لادعى الخليُّ حُرقة الشَّجِيِّ، فتنوّع المدعون في الشهود، فقيل: لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾

(١) وهذا من التوسع في العبارة، إلا إن كان قصد الكمال أو مقاربته عند موجب بذل النفس فحق.

[آل عمران: ٣١] فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة بتزكية ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فهلموا إلى بيعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] فلما عرفوا عظمة المشتري، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع؛ عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأنًا، فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها بثمن بخس، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقيل ولا نستقيل.

فلما تم العقد وسلموا المبيع؛ قيل لهم: مُذْ صارت نفوسكم وأموالكم لنا، رددناها عليكم أوفر ما كانت، وأضعافها معًا ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

إذا غُرست شجرة المحبة في القلب، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب؛ أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها. أصلُها ثابت في قرار القلب، وفرعها متصل بسدرة المنتهى»[(١)].

«ومن أنكر المحبة[(٢)]، فقد أنكر حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة

(١) المدارج (٣/ ٤٢٩-٤٣٥) باختصار يسير.

(٢) وهم الجهمية ومَن وافقهم.

النفوس، وقرة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة، ولذلك ضُربت قلوبهم بالقسوة، وضُربت دونهم عن الله حُجُبٌ على معرفته ومحبته، فلا يعرفونه، ولا يحبونه، ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته، فذكرهم أعظم آثارهم وأوزارهم.

ولو بطلت مسألة الحب لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله تعالى، فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نَفْس الإسلام، فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة له، لا إسلام له البتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يألهه العباد حبًّا وذلاً وخوفًا ورجاءً وتعظيمًا وطاعة له، بمعنى «مألوه» وهو الذي تألهه القلوب، أي تحبه وتذل له. وأصل التأله التعبد، والتعبد آخر مراتب الحب، فالمحبة هي حقيقة العبودية، وكل أعمال القلب تعود إليها»(١).

«ومحبة الله سبحانه، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والرضا به وعنه؛ أصل الدين، وأصل أعماله وإراداته، كما أن معرفته والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أصل علوم الدين كلها.

ومحبته تعالى، بل كونه أحبَّ إلى العبد من كل ما سواه على الإطلاق؛ من أعظم واجبات الدين، وأكبر أصوله، وأجلّ قواعده. ومن أحب معه مخلوقًا مثلما

---

(١) السابق (٣/ ٤٥٧-٤٦٣) باختصار وانتخاب.

يحبُّه، فهو من الشرك الذي لا يُغفر لصاحبه، ولا يقبل معه عمل، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وإذا كان العبد لا يكون من أهل الإيمان حتى يكون رسولُه أحب إليه من نفسه وأهله وولده ووالده والناس أجمعين، ومحبتُّه تبع لمحبة الله؛ فما الظن بمحبته سبحانه؟! وهو سبحانه لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته، التي تتضمن كمال محبته، وكمال تعظيمه والذل له، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه. وعلى ذلك وضع الثواب والعقاب، وأُسِّست الجنة والنار، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد.

وكما أنه سبحانه ليس كمثله شيء؛ فليس كمحبته وإجلاله وخوفه محبةٌ وإجلال ومخافة. فالمخلوق كلما خفته استوحشت منه، وهربت منه، والله سبحانه كلما خفته أنست به وفررت إليه. والمخلوق يُخاف ظلمُهُ وعدوانه، والرب سبحانه إنما يُخاف عدلُهُ وقسطه. وكذلك المحبة؛ فإن محبة المخلوق إذا لم تكن لله، فهي عذاب للمحب ووبال عليه، وما يحصل بها من التألم أعظم مما يحصل له من اللذة، وكلما كانت أبعد عن الله؛ كان ألمها وعذابها أعظم. هذا إلى ما في محبته من الإعراض عنك، والتجني عليك، وعدم الوفاء لك؛ إما لمزاحمة غيرك من المحبين له، وإما لكراهته ومعاداته لك، وإما لاشتغاله عنك بمصالحه، وما هو أحبُّ إليه منك، وإما لغير ذلك من الآفات.

وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن؛ فإنه لا شيء أحبُّ إلى

القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليُّها ومولاها، وربُّها ومدبرها ورازقها ومميتها ومحييها، فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن. فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية؛ أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسرُّ ولا أنعم من محبته والأنس به، والشوق إلى لقائه.

والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتمّ من كل نعيم ، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة. كما أخبر بعضهم عن حاله بقوله: إنه ليمرّ بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا؛ إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: إنه ليمرّ بالقلب أوقات يهتزّ فيها طربًا بأنسه بالله، وحبه له.

وقال آخر: مساكين أهل الغفلة، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها.

وقال آخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وَوجْدُ هذه الأمور وذوقُها؛ هو بحسب قوة المحبة وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه. وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتمّ، والقربُ منه أوفر؛ كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى. فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب، وَجَدَ من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يُعرف إلا بالذوق والوجد، ومتى ذاق القلب ذلك؛ لم يمكنه أن يقدّم عليه حبًّا لغيره، ولا أُنسًا به، وكلّما ازداد حُبًّا؛ ازداد عبودية وذلاً، وخضوعًا ورقًّا له، وحريّةً من رقّ غيره.

فالقلب لا يفلح، ولا يصلح، ولا يتنعم، ولا يبتهج، ولا يلتذ، ولا يطمئن، ولا يسكن؛ إلا بعبادة ربه، وحبه، والإنابة إليه. ولو حصل له جميع ما يلتذ به من المخلوقات؛ لم يطمئن إليها ولم يسكن إليها، بل لا تزيده إلا فاقة وقلقًا، حتى يظفر بما خلق له، وهُيئ له، من كون الله وحده نهاية مراده، وغاية مطلوبه، فإن فيه فقرًا ذاتيًّا إلى ربه وإلهه من حيث هو معبودُه ومحبوبه وإلهُهُ ومطلوبه. كما أن فيه فقرًا ذاتيًّا إليه من حيث هو ربُّه وخالقه ورازقه ومدبِّره، وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه؛ خرج منه تألهه لما سواه، وعبوديته له.

فأصبح حُرًّا عزةً وصيانةً   على وجهِهِ أنوارُهُ وضياؤهُ

وما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة الله تعالى، وطمأنينة بذكره، وتنعُّمٌ بمعرفته، ولذّة وسرور بذكره، وشوقٌ إلى لقائه، وأُنسٌ بقربه، وإن لم يُحسّ به؛ لاشتغال قلبه بغيره، وانصرافه إلى ما هو مشغول به، فوجود الشيء غير الإحساس والشعور به. وقوة ذلك وضعفه، وزيادته ونقصانه؛ هو بحسب قوة الإيمان وضعفه، وزيادته ونقصانه.

ومتى لم يكن الله وحده غاية مراد العبد، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب المراد له بالذات والقصد الأول، وكل ما سواه فإنما يحبه ويريده ويطلبه تبعًا لأجله؛ لم يكن قد حقق شهادة أن لا إله إلا الله، وكان فيه من النقص والعيب والشرك، وله من موجبات ذلك من الألم والحسرة والعذاب؛ بحسب ما فاته من ذلك.

وإذا عُرف هذا فالعبد في حال معصيته واشتغاله عنه بشهوته ولذته، تكون

تلك اللذة والحلاوة الإيمانية قد استترت عنه، وتوارت، أو نقصت، أو ذهبت، فإنها لو كانت موجودة كاملة؛ لما قدّم عليها لذةً وشهوة، لا نسبة بينها وبينها بوجه ما، بل هي أدنى من حبة خردل بالنسبة إلى الدنيا وما فيها، ولهذا قال النبي ﷺ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»**(١)، فإن ذوق حقيقة الإيمان ومباشرته لقلبه؛ يمنعه من أن يؤثر عليه ذلك القدر الخسيس، وينهاه عما يشعّثه وينقصه، ولهذا تجد العبد إذا كان مخلصًا لله منيبًا إليه، مطمئنًا بذكره، مشتاقًا إلى لقائه؛ قلبه منصرف عن هذه المحرمات، لا يلتفت إليها، ولا يعوّل عليها، ويرى استبداله بها عمّا هو فيه كاستبداله البعر الخسيس بالجوهر النفيس، وبيعه الذهب بأعقاب الجَزر، وبيعه المسك بالرجيع، فالذنب يُعدم لعدم المقتضى له تارة، لاشتغال القلب بما هو أحب إليه منه، ولوجود المانع تارة، ومن خوف فوات محبوب هو أحب إليه منه.

فالأول: حال من حصل له من ذوق حلاوة الإيمان وحقائقه والتنعم به؛ ما عوّض قلبه عن ميله إلى الذنوب.

والثاني: حال من عنده داعٍ وإرادةٌ لها، وعنده إيمان وتصديق بوعد الله تعالى ووعيده، فهو يخاف إن واقعها أنْ يقع فيما هو أكره إليه، وأشق عليه.

فالأول للنفوس المطمئنة، والثاني لأجل الجهاد والصبر. وهاتان النفسان هما

(١) متفق عليه.

المخصوصتان بالسعادة والفلاح. قال تعالى في النفس الأولى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ٣٠]، وقال في الثانية: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

فالنفوس ثلاثة: نفسٌ مطمئنة إلى ربها، وهي أشرف النفوس وأزكاها، ونفس مجاهدة صابرة، ونفس مفتونة بالشهوات والهوى، وهي النفس الشقية، التي حظُّها الألم والعذاب، والبعد عن الله والحجاب»(١).

إن للمحبة منزلة سامية في القرآن العظيم، ومكانًا منيفًا في السنة المطهرة. قال تعالى في شأنها وشأن أهلها: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩]، وتأمل إلقاء المحبة، وكيف يكون وقعه؟ وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٤]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**مِنْ أشد أمتي لي حبًّا، ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله**

---

(١) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، ابن القيم (٢/ ٩٣٠ـ ٩٣٥) باختصار. وانظر (٢/ ٨٤٠ـ ٨٤٤).

وماله»[١]، وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ **«أن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته**[٢] **ملكًا. فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تُربُّها**[٣]**؟ قال: لا ، غير أني أحببته في الله عز وجل. قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»**[٤].

وسأل رجلٌ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: **«ما أعددت لها»؟** قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال: **«أنت مع من أحببت»**[٥]، ونهى عن لعن المجلود في الشراب بقوله: **«لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ**[٦] **أنه يحب الله ورسوله»**[٧]، وكان عنده رجلٌ، فمر به رجلٌ، فقال: يا رسول الله، إني لأُحب هذا، فقال له النبي ﷺ: **«أَعْلَمْتَهُ»** قال: لا. قال: **«أَعْلِمْهُ»** فلحقه، فقال: إني أحبك في الله. قال: أحبك الله الذي أحببتني له[٨].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٠٠)، والحاكم (١/ ٣٤٠) واللفظ له وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) المدرجة: الطريق.

(٣) تربُّها: أي تقوم بإصلاحها وإنمائها.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه مسلم (٢٥٦٧).

(٦) الأظهر أن (ما) موصولة، بمعنى: الذي علمته يحب الله ورسوله.

(٧) البخاري، الفتح (٦٧٨٠).

(٨) أبو داود (٥١٢٥) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩٦٥).

وقال: «**إنكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أحبَّ إليه من شيء خرج منه**» يعني القرآن[١]. وقال: «**إن الله عز وجل حييٌّ ستير، يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر**»[٢]، وسأله أبو ذرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بأبي أنت يا رسول الله، أي الكلام أحب إلى الله؟ فقال: «**ما اصطفاه الله لملائكته، سبحان ربي وبحمده، سبحان ربي وبحمده**»[٣]، وقال لأشجِّ عبد القيس: «**إن فيك لَخَصْلَتَيْن يحبهما الله: الحلم والأناة**»[٤]، وقال: «**إن الله تعالى ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه**»[٥].

وقال: «**إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحِبَّهُ. قال: فيحبُّهُ جبريل، ثم يُنادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه. فيحبه أهلُ السماء. قال: ثم يوضع له القبول في الأرض.**

وإذا أبغض عبدًا دعا جبريلَ فيقول: إني أُبغضُ فلانًا فأبغضهُ. قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء أن الله يبغضُ فلانًا فأبغضوه. قال: فيبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»[٦]، وقال ﷺ: «**إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد**

---

(١) الحاكم (٢/ ٤٤١) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أحمد (٤/ ٢٢٤)، وأبو داود (٤٠١٢)، وصححه الألباني (٢/ ٧٥٨).

(٣) الترمذي (٣٥٩٣) واللفظ له. والحاكم (١/ ٥٠١) وصححه. ووافقه الذهبي.

(٤) مسلم (١٧).

(٥) الحاكم (٤/ ٢٠٨) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٦) متفق عليه.

آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحِبَّهُ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله تردّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»(١).

(١) البخاري، الفتح (١١/ ٦٥٠٢). والمعنى أن العبد إذا كان وليًّا لله تعالى فإن الله يحفظه ويسدده ويوفقه، حتى لا يسمع إلا ما يرضي مولاه، ولا يبصر إلا ما يرضيه ولا يبطش إلا في مراضيه، ولا يمشي إلا لمراضيه، وليس هذا من الحلول في شيء ، تعالى ربنا وتقدس، فالأحاديث يفسر بعضها بعضًا، وقد جاء في الرواية الأخرى في البخاري: «**فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي**» وهذا يدل على تأييد الله تعالى لوليه بالحفظ والتسديد، ويوفقه للأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وخص هذه الجوارح الأربع ـ والله أعلم ـ لأن غالب مساعي الإنسان إنما تكون بها.

أما التردد فقد سئل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تعالى عن معناه في هذا الحديث. فأجاب: «هذا حديث شريف، قد رواه البخاري من حديث أبي هريرة، وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء، وقد ردّ هذا الكلام طائفة وقالوا: إن الله لا يوصف بالتردد، وإنما يتردد من لا يعلم عواقب الأمور، والله أعلم بالعواقب، وربما قال بعضهم: إن الله يعامله معاملة المتردد.

والتحقيق: أن كلام رسول الله حق، وليس أحد أعلم بالله من رسوله ولا أنصح للأمة منه، ولا أفصح ولا أحسن بيانًا منه، فإذا كان كذلك؛ كان المتحذلق والمنكر عليه من أضل الناس، وأجهلهم، وأسوئهم أدبًا، بل يجب تأديبه وتعزيره، ويجب أن يُصان كلام رسول الله ﷺ عن الظنون الباطلة، والاعتقادات الفاسدة، ولكن =

=

المتردد منا وإن كان تردده في الأمر لأجل كونه ما يعلم عاقبة الأمور، لا يكون ما وصف الله به نفسه بمنزلة ما يوصف به الواحد منا، فإن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. ثم هذا باطل؛ فإن الواحد منا يتردد تارة لعدم العلم بالعواقب، وتارة لما في الفعلين من المصالح والمفاسد، فيريد الفعل لما فيه من المصلحة، ويكرهه لما فيه من المفسدة، لا لجهله منه بالشيء الواحد الذي يُحب من وجه، ويكره من وجه. كما قيل:

الشيب كُره وكره أن أفارقه ... فاعجب لشيء على البغضاء محبوب

وهذا مثل إرادة المريض لدوائه الكريه، بل جميع ما يريده العبد من الأعمال الصالحة التي تكرهها النفس هو من هذا الباب. وفي الصحيح: «**حفت النار بالشهوات، وحفت الجنة بالمكاره**»، وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ومن هذا الباب يظهر معنى التردد المذكور في الحديث، فإنه قال: «**لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**» فإن العبد الذي هذا حاله صار محبوبًا للحق محبًّا له، يتقرب إليه أولاً بالفرائض وهو يحبها، ثم اجتهد في النوافل التي يحبها، ويحب فاعلها، فأتى بكل ما يقدر عليه من محبوب الحق؛ فأحبه الحق لفعل محبوب من الجانبين، بقصد اتفاق الإرادة، بحيث يحب ما يحبه محبوبه، ويكره ما يكرهه محبوبه، والرب يكره أن يسوء عبده ومحبوبه، فلزم من هذا أن يكره الموت ليزداد من محاب محبوبه. والله سبحانه وتعالى قد قضى بالموت، فكل ما قضى به فهو يريده ولابد منه، فالرب مريد لموته لما سبق به قضاؤه، وهو مع ذلك كاره لمساءة عبده، وهي المساءة التي تحصل له بالموت، فصار الموت مرادًا للحق من وجه، مكروهًا له من وجه، وهذا حقيقة التردد، وإن كان لابد من ترجح أحد الجانبين؛ كما ترجح إرادة الموت، لكن مع وجود كراهة مساءة عبده، وليس إرادته لموت المؤمن

=

وقال ﷺ: «**إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي**[١]**؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**»[٢]. وقال ﷺ: «**لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى أن يقذف في النار أحبُّ إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله، وحتى يكون اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما**»[٣].

وقال ﷺ: «**قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ**»[٤].

وقال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين**»[٥].

وعن سفيان بن عيينة قال: سمعت مُسَاوِرَ الورّاق يحلف بالله عز وجل ما

=

الذي يحبه ويكره مساءته، كإرادته لموت الكافر الذي يبغضه ويريد مساءته».
الفتاوى (١٨/ ١٢٩ـ ١٣١). وانظر كلام الحافظ ابن حجر في الفتح في شرحه لهذا الحديث، وللحافظ ابن رجب رسالة مستقلة في شرحه. كذلك للعلامة العثيمين كلام نافع فيه وفي أمثاله في الفتاوى والقواعد المثلى.

(١) أي بعظمتي وطاعتي لا لأجل الدنيا وحظوظها.

(٢) مسلم (٢٥٦٦).

(٣) متفق عليه. واللفظ للبخاري.

(٤) رواه مالك في الموطأ بسند صحيح (٢/ ٩٥٣)، والحاكم (٤/ ١٦٩) ووافقه الذهبي.

(٥) متفق عليه. وانظر: موسوعة نضرة النعيم (٨/ ٣٣٣٨ـ ٣٣٥٣).

كنت أقول لرجل: إني أحبك في الله فأمنعه شيئًا من الدنيا[١].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنك إذا أحببت الشخص لله، كان الله هو المحبوب لذاته، فكلما تصوّرته في قلبك، تصوّرت محبوب الحق فأحببته، فازداد حبك لله، كما إذا ذكرت النبي ﷺ والأنبياء قبله والمرسلين وأصحابهم الصالحين، وتصوّرتهم في قلبك، فإن ذلك يجذب قلبك إلى محبة الله المنعِم عليهم، وبهم، إذا كنت تحبّهم لله. فالمحبوب لله يجذب إلى محبة الله، والمحب لله إذا أحب شخصًا لله فإن الله هو محبوبه، فهو يحب أن يجذبه إلى الله تعالى، وكلٌّ من المحب لله والمحبوب لله يُجذب إلى الله»[٢].

وقال: «فالرب يُحب أن يُحَبَّ، ومن لوازم ذلك؛ أن يحب من لا تحصل العبادة إلا به، والعبد يحب ما يحتاج إليه وينتفع به، ومن لوازم ذلك؛ محبته لعبادة الله، فمن عَبَدَ الله وأحسن إلى الناس، فهذا قائم بحقوق الله وحق عباد الله»[٣].

وقال: «وأما قوله ﷺ: **«المرء مع من أحب»**[٤]، فهو من أصح الأحاديث، وقال أنس: فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث، فأنا أحب رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن يحشرني الله معهم، وإن لم أعمل مثل

(١) كتاب الإخوان (٢٠٤).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٦٠٨).

(٣) الفتاوى (١/ ٥٤).

(٤) متفق عليه.

أعمالهم. وكذلك: «**أوثق عرى الإسلام: الحب في الله، والبغض في الله**»(١)، لكن هذا بحيث أن يحب المرء ما يحبه الله، ومن يحبه الله. فيحب أنبياء الله كلهم لأن الله يحبهم، ويحب كل من يعلم أنه مات على الإيمان والتقوى، فإن هؤلاء أولياء الله، والله يحبهم»(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]: «فالمؤمنون أشد حبًّا لربهم ومعبودهم من كل محب لكل محبوب، وهذا مقتضى عقد الإيمان الذي لا يتم إلا به. وليست هذه المسألة من المسائل التي للعبد عنها غنى أو منها بُدٌّ كدقائق العلم والمسائل التي يختص بها بعض الناس دون بعض، بل هذه أفرض مسألة على العبد ، وهي أصل عقد الإيمان الذي لا يدخل فيه الداخل إلا بها، ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب الله إلا بها. فليشتغل بها العبد أو ليعرض عنها، ومن لم يتحقق بها علمًا وحالاً وعملاً لم يتحقق بشهادة أن لا إله إلا الله، فإنها سرُّها وحقيقتها ومعناها، وإن أبى ذلك الجاحدون، وقصر عن علمه الجاهلون»(٣).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهاهنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به، وهو أن كمال اللذة والفرح والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين:

---

(١) رواه أحمد (١٨٧٢٣) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٠٩).
(٢) الفتاوى (١٨/ ٣١٣).
(٣) عن إحسان السلوك (١٤٤، ١٤٥).

أحدهما: كمال المحبوب في نفسه، وجماله، وأنه أولى بإيثار الحب من كل ما سواه.

الثاني: كمال محبته، واستفراغ الوسع في حبه، وإيثار قربه والوصول إليه على كل شيء.

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته ، فكلما كانت المحبة أقوى؛ كانت لذة المحب أكمل، فلذة من اشتد ظمؤه بإدراك الماء الزلال، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهي، ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته.

وإذا عُرف هذا؛ فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه، بل هو مقصود كل حي، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي تُذم إذا أعقبت ألمًا أعظم منها، أو منعت لذةً خيرًا وأجلّ منها. فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات، وفوّتت أعظم اللذات والمسرّات؟ وتُحمد اللذة إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة، لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما، وهي لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها. قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال السحرة لفرعون لما آمنوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

وإذا عُرف هذا؛ فأعظم الأسباب التي تُحصِّل هذه اللذة هو أعظم لذات

الدنيا على الإطلاق، وهو لذة معرفته سبحانه ولذة محبته، فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك، فأطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته، وألذُّ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها، بل لذات الدنيا القاطعة عن ذلك تنقلب آلامًا وعذابًا، ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك، فليست الحياة الطيبة إلا بالله، ومحبة الله هي حياة القلوب وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذة ولا نعيم ولا فلاح ولا حياة إلا بها، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، والأنف إذا فقد شمّه، واللسان إذا فقد نطقه، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح. وهذا أمر لا يصدّق به إلا مَن فيه حياة، وما لجرحٍ بميِّت إيلامُ»(١).

وقال شيخ الإسلام: «محبة المؤمنين لربهم أمر موجود في القلوب والفطر، شهد به الكتاب والسنة واستفاض عن سلف الأمة وأهل الصفوة، واتفق عليه أهل المعرفة بالله.

وقد ثبت أن التذاذ المؤمنين يوم القيامة بالنظر إلى الله أعظم لذة في الجنة. ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويُجِرْنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب**

---

(١) الداء والدواء (٥٤٠-٥٤٦) باختصار.

فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه. وهو الزيادة»(١). وهذا يبيّن أن اللذة الحاصلة بالنظر إليه أعظم من كل لذة في الجنة، والإنسان في الدنيا يجد في قلبه بذكر الله وذكر محامده وآلائه وعبادته من اللذة ما لا يجده بشيء آخر.

وقال النبي ﷺ: **«جُعلت قرة عيني في الصلاة»**(٢)، وفي الحديث: **«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»** قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: **«مجالس الذكر»**(٣)، وكل سلف الأمة وأئمتها متفقون على أن الله تعالى هو المستحق أن يُحَبَّ، وليس شيء أحق بأن يحب من الله سبحانه، بل لا يصلح أن يحب غيره إلا لأجله، وكل ما يحبّه المؤمن من طعام وشراب ولباس وغير ذلك لا ينبغي أن يفعله إلا ليستعين به على عبادته سبحانه المتضمنة للمحبة، فإن الله إنما خلق الخلق لعبادته، وخلق فيهم الشهوات ليتناولوا بها ما يستعينون به على عبادته، ومن لم يعبد الله فإنه فاسد هالك، والله لا يغفر أن يشرك به فيُعبد معه غيره، فكيف بمن عطّل عبادته فلم يعبده البتة كفرعون وأمثاله؟

وهؤلاء الذين أنكروا محبته من أهل الكلام لو رجعوا إلى فطرتهم التي فُطروا عليها، واعتبروا أحوال قلوبهم عند عبادته؛ لوجدوا في قلوبهم من محبته ما لا يُعبَّر عن قدره. ونظرهم في العلم به وبصفاته وذكره من محبته، وإلا فما لا يُحب لا

---

(١) مسلم (١٨١).

(٢) سنن أبي داود (٤/ ٤٠٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦/ ٢٨٤).

(٣) سنن الترمذي (٥/ ١٩٤) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وحسَّنه الألباني.

تحرص النفوس على ذكره إلا لتعلّق حاجتها به. ولهذا يقال: من أحب شيئًا أكثر من ذكره.

والمؤمن يجد نفسه محتاجة إلى الله في تحصيل مطالبه، ويجد في قلبه محبة لله غير هذا، فهو محتاج لله من جهة أنه ربه، ومن جهة أنه إلهه، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فلابد أن يكون العبد عابدًا لله، ولابد أن يكون مستعينًا به، ولهذا كان هذا فرضًا على كل مسلم أن يقوله في صلاته»(١).

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «المحبة هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها»(٢).

وقال ابن القيم: «المقصود من الخلق والأمر إنما هو المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا لله وحده، وهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة وإيثاره على غيره، وهي أول دعوة الرسل، وآخر كلام العبد المؤمن الذي إذا مات عليه دخل الجنة اعترافه وإقراره بهذه المحبة، وإفراد الرب تعالى بها.

فهي أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا إلى الله، وجميع

(١) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية (٥/ ٣٨٨-٣٩٤) باختصار، وفيها مناقشات لأرباب الفلسفة والكلام الذين انحرفوا في فهم صفة المحبة بجهتيها.

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ١٥٩٤).

الأعـمال كـالأدوات والآلات لهـا، وجميـع المقامـات وسـائل إليهـا، وأسـبابٌ لتحصيلها وتكميلها وتحصينها من الشوائب والعلل.

فهي قطب رحى السعادة، وروح الإيـمان، وساق شجرة الإسلام، ولأجلها أنـزل الله الكتـاب والحديـد؛ فالكتـاب هـادٍ إليهـا، ودالّ عليهـا، ومفـصّل لهـا ، والحديد لمن خرج عنها، وأشرك فيها مع الله غيره.

ولأجلها خُلقت الجنة والنار؛ فالجنة دارُ أهلها الذين أخلصوها لله وحده، فأخلصهم لها، والنار دار من أشرك فيها مع الله غيره، وسوى بينه وبين الله فيها، كما أخبر تعالى عن أهلها أنهم يقولون في النار لآلهتهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]. وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله في أفعاله وصفاته، وإنما كانت التسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية فقط، مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه المسألة هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله.

فحقيق بمن نصح نفسه وأحب سعادتها ونجاتها؛ أن يتيقظ لهذه المسألة علماً وعملاً وحالاً، وتكون أهم الأشياء عنده، وأجلّ علومه وأعماله، فإن الشأن كله فيها، والمدار عليها، والسؤال يوم القيامة عنها. قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] قال غير واحد من السلف: هي عن قول: لا إله إلا الله. وهذا حق، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها، فلا يُسأل أحدٌ قط إلا عنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها.

قال أبو العالية: كلمتان يُسأل عنها الأولون والآخرون؛ ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟[١] فالسؤال عمّاذا كانوا يعبدون هو السؤال عنها نفسها، والسؤال عمّاذا أجابوا المرسلين سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها؛ هل سلكوها، وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها؟ فعاد الأمر كله إليها.

وأمر هذا شأنه؛ حقيق أن تثنى عليه الخناصر، ويُعضَّ عليه بالنواجذ، ويُقبض فيه على الجمر، ولا يؤخذ بأطراف الأنامل، ولا يطلب على فضله، بل يُجعل هو المطلب الأعظم، وما سواه إنما يطلب على الفضلة، والله الموفق لا إله غيره، ولا ربّ سواه»[٢].

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٤١).

(٢) طريق الهجرتين، ابن القيم (٢/ ٦٤٢-٦٤٥) بتصرف يسير.

الأسباب المقوية لمحبة الله تعالى في قلب العبد

قال ابن القيم: «لا ريب أن المحبة درجات متفاوتة، بعضها أكمل من بعض، وكل درجة خاصَّة بالنسبة إلى ما تحتها، عامَّة بالنسبة إلى ما فوقها، فليس انقسامها إلى خاص وعام انقسامًا حقيقيًّا متميزًا بفصل يميّز أحد النوعين عن الآخر، وإنما تنقسم باعتبار الباعث عليها وسببها ، وتنقسم بذلك إلى قسمين:

أحدهما: محبة تنشأ من الإحسان ومطالعة الآلاء والنعم:

فإن القلوب جُبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، ولا أحد أعظم إحسانًا من الله سبحانه، فإن إحسانه على عبده في كل نَفَس ولحظة، وهو يتقلّب في إحسانه في جميع أحواله، ولا سبيل له إلى ضبط أجناس هذا الإحسان فضلاً عن أنواعه أو أفراده.

ويكفي أن بعض أنواعه نعمةَ النَّفَس، التي لا تكاد تخطر ببال العبد، وله عليه في كل يوم وليلة فيه أربعة وعشرون ألف نعمة(١)؛ فإنه يتنفس في اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نَفَس، وكل نفس نعمة منه سبحانه، فإذا كان أدنى نعمة عليك في كل يوم بهذا المقدار، فما الظنُّ بما فوق ذلك وأعظم منه؟ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ

(١) بحساب الشهيق والزفير كلّ منهما بنفس، ومع اعتبار أن كل ثانية لنفس، فمجموع الأنفاس في اليوم والليلة (٨٦٤٠٠) نفس، وفي الشهر (٢,٥٩٢,٠٠٠) نَفَسٍ، وهذا تقريبي والحمد لله على نِعَمِه وإحسانه.

﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، هذا إلى ما يصرف عنه من المضرات وأنواع الأذى التي تقصده، ولعلها تُوازن النعم في الكثرة. والعبد لا شعور له بأكثرها أصلاً[١] والله سبحانه يكلؤه منها بالليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢] فهو سبحانه منعم على عباده بكلاءتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظ لهم غيره. هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام إليه، فإنه سبحانه غنيّ عن خلقه من كل وجه، وهم فقراء محتاجون إليه من كل وجه. وفي بعض الآثار يقول الله تعالى: «**أنا الجواد، ومن أعظم مني جودًا وكرمًا؟ أبيت أكلأ عبادي في مضاجعهم وهم يبارزوني بالعظائم**»، وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم ليجعلون له الولد، وهو يرزقهم ويعافيهم**»[٢]، وفي بعض الآثار: يقول الله تعالى: «**ابن آدم، خيري إليك نازل، وشرّك إلي صاعد. كم أتحبّب إليك بالنعم، وأنا غني عنك! وكم تتبغّض إلي بالمعاصي، وأنت فقير إلي! ولا يزال الملك الكريم يعرج إليَّ منك بعمل قبيح**»[٣].

ولو لم يكن من تحببه إلى عباده وإحسانه إليهم وبره بهم إلا أنه سبحانه خلق

---

(١) وسيأتي المزيد في باب التفكر بإذن الله تعالى.

(٢) متفق عليه. عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٣) أبو نعيم في الحلية (٤/ ٣١) عن وهب بن منبه قال: قرأت في بعض الكتب فوجدت الله تعالى يقول... وقد أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٤٣) عن مالك بن دينار بمثله. وحكم عليه الألباني بالوضع، كما في السلسلة الضعيفة (٣٢٨٧).

لهم ما في السموات والأرض وما في الدنيا والآخرة، ثم أهّلهم وكرّمهم، وأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وشرع لهم شرائعه، وأذن لهم في مناجاته كل وقت أرادوا، وكتب لهم بكل حسنة يعملونها إلى عشرة أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وكتب لهم بالسيئة واحدة، فإن تابوا منها محاها وأثبت مكانها حسنة، وإن بلغت ذنوب أحدهم عنان السماء ثم استغفره غفر له، ولو لقيه بقُراب[1] الأرض خطايا، ثم لقيه بالتوحيد لا يشرك به شيئًا، لأتاه بقُرابها مغفرة[2].

وشرع لهم التوبة الهادمة للذنوب، فوفقهم لفعلها، ثمّ قبلها منهم، وشرع لهم الحج الذي يهدم ما قبله، فوفقهم لفعله، وكفر عنهم سيئاتهم به. وكذلك ما شرعه لهم من الطاعات والقربات، هو أمدّهم بها، وخلقها لهم، وأعطاهم إياها، ورتب عليهم جزاءها. فمنه السبب، ومنه الجزاء، ومنه التوفيق، ومنه العطاء أولاً وآخرًا. وهم محلّ إحسانه فقط، ليس منهم شيء، إنما الفضل كله والنعمة كلها والإحسان كله منه أولاً وآخرًا. أعطى عبده ماله، وقال: تقرب بهذا إليّ أقبله منك. فالعبد له، والمال له، والثواب منه، فهو المعطي أولاً وآخرًا.

فكيف لا يُحَبّ من هذا شأنه؟ وكيف لا يستحي العبد أن يصرف شيئًا من

---

(١) أي ما يقارب امتلاءها.

(٢) قول المصنف: «وإذا بلغت ذنوب أحدهم...» حديث أخرجه الترمذي عن أنس بلفظ المخاطب. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وصححه ابن القيم في هداية الحيارى (٢٣٦) وبنحوه عند أحمد (٢١٣٢١) وصححه الأرناؤوط.

محبته إلى غيره؟ ومن أولى بالحمد والثناء والمحبة منه سبحانه؟ ومن أولى بالكرم والجود والإحسان منه؟ فسبحانه وبحمده، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

ويفرح سبحانه بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله، ويكفّر عنه ذنوبه، ويوجب له محبته بالتوبة. وهو الذي ألهمه إياها، ووفقه لها، وأعانه عليها. وملأ سبحانه سماواته من ملائكته، واستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض، واستعمل حَملة العرش منهم في الدعاء لعباده المؤمنين، والاستغفار لذنوبهم ووقايتهم عذاب الجحيم، والشفاعة إليه بإذنه أن يدخلهم جناته. فانظر إلى هذه العناية، وهذا الإحسان وهذا التحنّن والتعطّف والتحبب إلى العباد، واللطف التام بهم.

ومع هذا كله بعد أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وتعرّف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه؛ ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يسأل عنهم[١] ويستعرض حوائجهم بنفسه، ويدعوهم إلى سؤاله، فيدعو مسيئهم إلى التوبة، ومريضهم أن يسأل الله أن يشفيه، وفقيرهم إلى أن يسأل الله غناه، وذا حاجتهم يسأله قضاءها كل ليلة. ويدعوهم سبحانه إلى التوبة، وقد حاربوه، وعذبوا أولياءه، وأحرقوهم بالنار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، قال بعض السلف[٢]: انظروا إلى كرمه، كيف

(١) حديث النزول الإلهي للسماء الدنيا ثابت في الصحيحين. ولشيخ الإسلام مصنف في ذلك. وانظر ما كتبه ابن القيم في طريق الهجرتين (١/ ٤٦٤-٤٧٠).

(٢) هو الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

عذبوا أولياءه، وحرقوهم بالنار، ثم هو يدعوهم إلى التوبة.

فهذا الباب يدخل منه كل أحد إلى محبته سبحانه، فإن نعمه على عباده مشهورة لهم، يتقلبون فيها عدد الأنفاس واللحظات. ومطالعة المنن والإحسان ورؤية النعم والآلاء تبعث المحبة، وكلما سافر القلب بفكره فيها ازدادت محبته وتأكدت، ولا نهاية لها، فيقف سفر القلب عندها، بل كلما ازداد فيها نظرًا؛ ازداد فيها اعتبارًا وعجزًا عن ضبط القليل منها، فيستدل بما عرفه على ما لم يعرفه.

الثاني: باب الأسماء والصفات:

والله سبحانه دعا عباده إليه من الباب الأول، حتى إذا دخلوا منه دُعُوا من الباب الآخر وهو باب الأسماء والصفات الذي إنما يدخل منه إليه خواص عباده وأوليائه، وهو باب المحبين حقًّا الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبع من معرفته أحد منهم، بل كلما بدا له منه عَلَمٌ ازداد شوقًا ومحبةً وظمأً.

فإذا انضم داعي الإنعام والإحسان إلى داعي الكمال والجمال لم يتخلف عن محبّة من هذا شأنه إلا أردأ القلوب وأخبثها وأشدّها نقصًا، وأبعدها من كل خير. فإن الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده؛ فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحسانًا منه سبحانه، ولا شيء أكمل منه ولا أجمل، فكل كمال وجمال في المخلوق من آثار صنعه سبحانه، وهو الذي لا يُحد كماله، ولا يوصف جلاله وجماله، ولا يُحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله، بل هو كما أثنى على نفسه. وإذا كان الكمال محبوبًا لذاته ونفسه وجب أن يكون الله هو

المحبوب لذاته وصفاته، إذ لا شيء أكمل منه.

وكل اسم من أسمائه وصفة من صفاته تستدعي محبة خاصة، فإن أسماءه كلها حسنى، وهي مشتقة من صفاته، وأفعاله دالة عليها، فهو المحبوب المحمود لذاته وأفعاله وأسمائه، فهو المحبوب المحمود على كل ما فعل، وعلى كل ما أمر؛ إذ ليس في أفعاله عبث، ولا في أوامره سَفه ـ سبحانه وتعالى ـ بل أفعاله كلها لا تخرج عن الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة، وكل واحد من ذلك يستوجب الحمد والثناء والمحبة عليه. وأوامره كلها مصلحة تستوجب الحمد والثناء والمحبة عليها، وكلامه كله صدق وعدل، وجزاؤه كلّه فضل وعدل؛ فإنه إن أعطى فبفضله ورحمته ونعمته، وإن منع أو عاقب فبعدله وحكمته.

ما للعباد عليه حقٌّ واجب ... كلا ولا سعيٌ لديه ضائعُ
إن عُذِّبوا فبعدله، أو نُعِّمُوا ... فبفضله، وهو الكريم الواسعُ

ولا يتصوّر بشرٌ هذا المقام حق تصوره، فضلاً عن أن يوفيه حقه، فأعْرَف خلقه به وأحبهم له يقول: «**لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[(١)]، ولو شهد العبد بقلبه صفة واحدة من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبة التامة عليها، وهل مع المحبين محبة إلا من آثار صفات كماله؟ فإنهم لم يروه في هذه الدار، وإنما وصل إليهم العلم بآثار صفاته وآثار صنعته، فاستدلوا بما علموه على ما غاب عنهم، وإلا فلو شاهدوه، ورأوا جلاله وكماله وجماله سبحانه لكان لهم في

(١) مسلم (٤٥٦) من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

حبه شأن آخر.

وإنما تفاوتت مراتبهم في محبته على حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلم به، فأعرفهم له أشدهم حبًّا له، ولهذا كانت رسله صلوات الله وسلامه عليهم أعظم الناس حبًّا له، والخليلان من بينهم أعظمهم حبًّا، وأعرف الأمة به أشد له حبًّا من غيره.

وهل خلق الله الخلق إلا لعبادته التي هي غاية محبته والذل له؟ وهل هيِّئ الإنسانُ إلا لها؟ كما قيل:

قد هيؤوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وهل في الوجود محبةٌ حقٌّ غير باطلة إلا محبته سبحانه؟ فكل ما سوى الله باطل، ومحبة الباطل كلها باطل، ومحبته سبحانه هي الحق التي لا تزول ولا تبطل، كما لا يزول متعلَّقها ولا يفنى. ولا نسبة أصلاً بين كمالات العالم وكمال الله جل جلاله، فيجب ألا يكون بين محبته تعالى ومحبة غيره من الموجودات نسبة، لهذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]»(١).

ومن الأسباب القوية لمحبة الله تعالى؛ مجاهدة النفس على العبادة حتى تصل إلى التلذذ بها والفرح بأدائها.

قال ابن القيم: «وكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة الطاعة أكمل، لهذا قال

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٦٨٤-٦٩٤) باختصار.

ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»(١)، وقال: «**يا بلال أرحنا بالصلاة**»(٢)، وقال بعض السلف: إني أدخل في الصلاة، فأحمل همّ خروجي منها، ويضيق صدري إذا عرفت أني خارج منها.

وقال آخر: إني لأفرح بالليل حين يُقبل، لما يلذّ به عيشي، وتقر به عيني من مناجاة من أحب.

وقال آخر: كابدت الصلاة عشرين سنة، ثم تنعمت بها عشرين سنة.

وهذه اللذة والتنعّم إنما تحصل بالمصابرة على التكرّه والتعب أولاً، فإذا صبر وصدق في صبره أفضى به إلى هذه اللذة.

قال أبو زيد: سُقت نفسي إلى الله وهي تبكي، فما زلت أسوقها حتى انساقت إليه وهي تضحك.

ولا يزال السالك عُرضة الآفات والفتور والانتكاس حتى يصل إلى هذه الحال. فحينئذ يصير نعيمه في سيره، ولذته في اجتهاده، وعذابُهُ في فتوره ووقوفه.

---

(١) أحمد (١٢٢٩٣)، والنسائي (٣٩٤٠). واختلف في وصله وإرساله، فصححه موصولاً الحاكم، وقوّاه الذهبي، وجوّده العراقي، وحسنه ابن حجر، ورجح الدارقطني إرساله. عن تحقيق طريق الهجرتين (١/ ٨١).

(٢) أحمد (٢٣٠٨٨)، وأبو داود (٤٩٨٥)، واختلف في وصله وإرساله، وأشار الدارقطني والخطيب إلى أن إرساله أصح. علل الدارقطني (٤/ ١٢٠ـ ١٢٢)، وتاريخ بغداد (١٠/ ٤٤٣) عن تحقيق طريق الهجرتين (١/ ٨١).

فيرى أشد الأشياء عليه ضياعَ شيء من وقته ووقوفه عن سيره، ولا سبيل إلى هذا إلا بالحب المزعج»[١].

وقال: «كلما قويت المحبة قويت اللذة بإدراك المحبوب. وهذا باب جليل. قال شيخنا[٢]: والصواب: أن يقال: إدراك الملائم سبب اللذة، وإدراك المنافي سبب الألم. وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي إنما تذم إذا أعقبت ألـمًا أعظم منها، أو منعت لذة خيرًا منها، وتحمد إذا أعانت على اللذة الدائمة المستقرة. وهي لذة الدار الآخرة ونعيمها، كما قال جل ذكره: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧]، وقال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، والله سبحانه خلق الخلق لدار القرار، وجعل اللذة كلها بأسرها فيها، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧][٣]، وقال النبي ﷺ: **«يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بَلْهُ ما اطلعتم»**

(١) طريق الهجرتين (٢/٦٩٧ - ٦٩٩) باختصار.

(٢) أي شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٣) وانظر: كتاب حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم رحمه الله، فلم يسبق ولم يلحق بمثله في باب وصف الجنة والتشويق لها.

أي غير ما اطلعتم عليه[١].

وأقسام اللذات ثلاثة: اللذة الأولى: لذة جثمانية، وهي لذة الأكل والشرب والجماع، وهذه اللذة يشترك فيها مع الإنسان الحيوان البهيم، وليست في نفسها كمالاً، إنما تكون كمالاً إذا تضمّنت إعانة على اللذة العظمى.

أما اللذة الثانية فهي: اللذة الوهمية: وهي لذة الرئاسة والتعاظم والفخر والاستطالة، وليست هذه في الحقيقة بلذة لأنها توجب المفاسد والمضار والآلام الأعظم منها.

أما الثالثة: فهي اللذة العقلية الروحانية: كلذة العلم والمعرفة والاتصاف بصفات الكمال، وهي لذة النفوس الفاضلة الشريفة العلوية، فإذا انضمت اللذة بذلك إلى لذة معرفة الله وعبادته ومحبته وتوحيده والرضا به؛ فصاحب هذه اللذة في جنة عاجلة، نسبتُها إلى لذات الدنيا كنسبة لذة الجنة إلى لذة الدنيا»[٢].

قال ابن تيمية: «وكل مراد محبوب لذاته، ولا معنى لكونه مرادًا محبوبًا لذاته إلا أن ذاته غاية مطلب الطالبين، ويفرّق بين من يكون قد عرف الله معرفة أحبّه لأجلها، وبين من سمع مدح أهل المعرفة، فاشتاق إلى كونه منهم، لما في ذلك من الشرف، فإن هذا في الحقيقة إنما مراده تعظيم نفسه، وجعل المعرفة طريقًا إليها،

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) روضة المحبين، ابن القيم (١٤١-١٥٢) باختصار.

وكذلك كل من أراد الله لأمر من الأمور، كما حُكي أن أبا حامد[(١)] بلغه أن من أخلص لله أربعين يومًا تفجّرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه. قال: فأخلصت أربعين يومًا فلم يتفجر شيء، فذكرت ذلك لبعض العارفين، فقال لي: إنك إنما أخلصت للحكمة، ولم تخلص لله. وذلك لأن الإنسان قد يكون مقصوده نيل العلم والحكمة، أو نيل المكاشفات والتأثيرات، أو نيل تعظيم الناس له ومدحهم إياه، أو غير ذلك من المطالب، فمن قصد أن يخلص لله لينال شيئًا من ذلك فهو لم يرد الله، بل جعل الله وسيلة إلى ذلك المطلوب الأدنى، وإنما يريد الله ابتداء من ذاق حلاوة محبته وذكره.

وفِطَرُ العباد مجبولة على محبته، لكن منهم من فسدت فطرته، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُنتجُ البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء**»[(٢)].

ومن الأسباب كذلك: تأمل فوائد محبة الله تعالى في العاقبة الآجلة وفي الحاضرة العاجلة، ومن ذلك التسلي عن المصائب، قال ابن القيم: «إن المحب يتسلى بمحبوبه عن كل مصيبة يُصاب بها دونه، فإذا سلم له محبوبه لم يبال بما فاته،

(١) وهو الغزالي رحمه الله.

(٢) درء التعارض (٦/ ٦٥-٦٧) باختصار.

ولا يحزن على ما ناله، فإنه يرى في محبوبه عوضًا عن كل شيء، ولا يرى في شيء غيره عوضًا منه أصلاً، فكل مصيبة هينة إذا أبقت عليه محبوبه، ولهذا لما خرجت تلك المرأة الأنصارية يوم أحد تنظر ما فعل رسول الله ﷺ مرّت بأبيها وأخيها مقتولين، تقف عندهما، وجاوزتهما تقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: ها هو ذا حيّ، فلما نظرت إليه قالت: ما أبالي، إذا سلمتَ هلك من هلك[1].

ولو لم يكن في المحبة من الفوائد إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها شرفًا، فإن المصائب لازمة للعبد لا محيد له عنها، ولا يمكن دفعها وحملها بمثل المحبة. وهكذا مصائب الموت وما بعده إنما تسهل وتهون بالمحبة. وكذلك مصائب يوم القيامة، وأعظم المصائب مصيبة النار، ولا يدفعها إلا محبة الله وحده، ومتابعة رسول الله ﷺ. فالمحبة أصل كل خير في الدنيا والآخرة كما قيل: ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة. فإن النبي ﷺ قال: «**المرء مع من أحب**»[2]، فهم مع الله تعالى»[3]، وقال آخر: من قرّت عينه بالله؛ قرّت به كل عين. ومن لم تقرّ عينه بالله؛ تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

وقال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى: «اعلم أن أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حبًّا لله تعالى، فإن الآخرة معناها:

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٦)، وروي أنها قالت: كل مصاب بعدك جلل. وجلل من الأضداد، والمراد هنا يسير وهيّن.

(٢) متفق عليه. من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) طريق الهجرتين (٢/ ٦٩٠-٦٩٤) باختصار. وانظر: المدارج (٣/ ٤٨٣-٤٩٤).

القدوم على الله تعالى و إدراك سعادة لقائه. وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على المحبوب بعد طول شوق! وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد، من غير منغص ولا مكدر، ومن غير رقيب ولا مزاحم، ومن غير خوف من انقطاع. إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب، فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة، وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا، وقوة الحب تحصل بسببين:

أحدهما: قطع علائق الدنيا، وإخراج حب غير الله من القلب، فإن القلب مثل الإناء، لا يتسع للخَلّ مثلاً ما لم يخرج منه الماء ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤]. وكمال الحب: أن يحب الله عز وجل بكل قلبه. وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلب مشغولة بغيره. فبقدر ما يشتغل بغير الله(١) ينقص منه حب الله، وبقدر ما يبقى من الماء في الإناء ينقص من الخَلّ المصبوب فيه، وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ [فصلت: ٣٠] وهو معنى قولك: لا إله إلا الله. أي لا معبود ولا محبوب سواه، لذلك قال ﷺ: **«من قال: لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة»**(٢). ومعنى الإخلاص: أن يخلص قلبه لله، فلا يبقى فيه شرك لغير الله، فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط، ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها

(١) وأوامر الله من متعلقات حب الله تعالى، والمثال الكامل هو النبي ﷺ.

(٢) رواه البزار عن أبي سعيد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٣٣)، وانظر: الصحيحة (٥/ ٣٧٠).

مانعة له من مشاهدة محبوبه، وموته خلاص من السجن، وتدوم على المحبوب. فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة حب الدنيا، وسبيل قلع حبها من القلب سلوك طريق الزهد، وملازمة الصبر، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء، حتى يكتسب بذلك أحد ركني المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله، حتى يتسع بعد ذلك لمعرفة الله وحبه.

الثاني: قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب، وهذا يكون بعد تخلية القلب من حب الدنيا»(١).

«هذا والمحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم وعذل العاذل، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة، كما قال أكثر الشعراء في ذلك، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود، وهم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب الله ويرضاه من جهاد أعدائه، فإن الملام على ذلك كثير، وأما الملام على فعل ما يكرهه الله أو ترك ما أحبه فهو لوم بحق، وليس من المحمود الصبر على هذا الملام، بل الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، وبهذا يحصل الفرق بين الملامية الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله، ولا يخافون لومة لائم في ذلك، وبين الملامية(٢) الذين يفعلون ما يبغض الله ورسوله، ويصبرون على الملام في ذلك»(٣).

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٦١٧-١٦١٩) باختصار وتصرف.

(٢) هم من يتعمدون إظهار أمور غير مرغوبة في الملبس أو المأكل أو الهيئة يلومهم الناس عليها سترًا للحال عنهم.

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١).

ومن نفيس كلام أبي حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله؛ فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى . وحب الرسول ﷺ والعلماء والأتقياء محمود؛ لأنه من حب الله تعالى، فمحبوب المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب، ومحب المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل.

هذا ولمحبة الله أسباب: الأول: أن حب الإنسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده، وبغضه لهلاكه ونقصانه وقواطع كماله هي جبلَّة كلّ حي، ولا يتصوّر أن ينفك عنها، وهذا يقتضي غاية المحبة لله، فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعًا أنه لا وجود له من ذاته، وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكماله من الله وإلى الله وبالله، فهو المخترع الموجد له، وهو المبقي له، وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه، وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته، بل هو محوٌ محض وعدمٌ صِرْف لولا فضل الله عليه بالإيجاد، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء، وهو ناقص الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته.

وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا الحي القيوم الذي هو قائم بذاته، وكل ما سواه قائم به، فإذا عرف العبد ذلك أحبه، فإن المحبة ثمرة المعرفة، فتعدم بانعدامها، وتضعف بضعفها، وتقوى بقوّتها، لذلك قال الحسن: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، وكيف يتصوّر أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟!

ومن خلا عن هذا الحب فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه، فلم يعرفه حق معرفته، وقصر نظره على شهواته ومحسوساته، وهو عالم الشهادة الذي يشاركه فيها البهائم في التنعّم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذي لا يطأ أرضه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة، فينظر فيه بقدر قربه في الصفات من الملائكة(١)، ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم.

الثاني: هو حبه من أحسن إليه، فواساه بماله، ولاطفه بكلامه، وأمدّه بمعونته، وانتدب لنصرته وقمع أعدائه، وقام بدفع شر الأشرار عنه، وجلب الخير له، فإنه محبوبه لا محالة عنده، وهذا بعينه يقتضي ألا يحب إلا الله تعالى، فهو المحسن فقط، ونعمه لا تحصى، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والإحسان كله من الله، فمن أنعم عليك بجميع خزائنه، ومكّنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه، وهو غلط، فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته؟

الثالث: هو حُبّك المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه، وهذا موجود في الطبائع، فإذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قُطْرٍ بعيد من الأرض، وبلغك خبر ملك آخر فاسق شرير في قُطْرٍ آخر؛ فإنك تجد في قلبك تفرقة بينهما، إذ تجد في القلب ميلاً إلى الأول وهو الحب، ونفرة عن الثاني وهو البغض، مع أنك آيس من خير الأول وآمن من شر

---

(١) وهذا سر تفضيل صالحي البشر على الملائكة، فجمعوا خير الملائكة الروحاني مع الانعتاق من أسر الشهوات الجثماني.

الثاني، فهذا يقتضي حب الله تعالى، بل يقتضي ألا يحب غيره أصلاً إلا من تعلق منه بسبب، فإنه سبحانه هو المحسن إلى الكافّة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق، فهو سبحانه من خلقهم ثم كمّلهم بالأعضاء والأسباب التي من ضروراتهم كالقلب والكبد والرأس، ثم رفّههم ونعّمهم بخلق الأسباب التي هي في مظانّ حاجاتهم وإن لم تكن في مظّان الضرورة كالعين واليد والرجل، ثم جمّلهم بالمزايا والزوائد التي هي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم كاستقواس الحاجبين، وحمرة الشفتين، وتلون العينين ونحو ذلك.

ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان: الماء والغذاء. ومثال الحاجة: الدواء واللحم والفاكهة. ومثال الزوائد والمزايا: خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار، ولذائذ الفواكه والأطعمة.

وهذه الأقسام الثلاثة (إيجاد دافع الضرورة والحاجة والتكميل) موجودة لكل حيوان، بل لكل نبات، بل كل صنف من المخلوقات من ذروة العرش إلى منتهى الفرش. فإذًا هو المحسن، فكيف يكون غيره محسنًا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته وفضله؛ فالحب بهذه العلة لغيره أيضًا جهل محض، ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى(١).

الرابع: هو حب الجميل لذات الجمال لا لحظ ينال منه وراء إدراك الجمال.

---

(١) والنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، ومحبة المحسن المخلوق تابعة لمحبة المحسن الحقيقي الذي تفضل بذلك، ثم شرع شكر ذلك المخلوق ومجازاة إحسانه كما في الحديث: «**من صنع إليكم معروفًا فكافئوه**» ـ رواه أبو داود (٥١٠٩) وغيره بسند صحيح ـ حتى يتمحض الحب والشكر والحمد له سبحانه وبحمده.

والجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس، وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة، فالأول يدركه الصبيان والبهائم، والثاني يختص بدركه أرباب القلوب، ولا يشاركهم فيه إلا من لا يعلم إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا، وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال، فإن كان مدركًا بالقلب فهو محبوب القلب. ومثال هذا في المشاهد: حب الأنبياء والعلماء وذوي المكارم السنية والأخلاق المرضية، فإن ذلك متصوّر مع تشوّش صورة الوجه وسائر الأعضاء، وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه. نعم يُدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه(١)، حتى إذا دلّ القلب عليه مال القلب إليه فأحبه، فمن يحب الرسول ﷺ أو الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبهم إلا لحسن ما ظهر له منهم، وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم(٢)، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الأفعال؛ إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها، فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البَنَّاء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة، ثم كلّما كان المعلوم أشرف وأتم جمالاً وعظمة كان العلم أشرف وأجمل، وكذا المقدور كلما كان

---

(١) وفي الآخرة يتم النعيم وتكمل السعادة للمؤمن برؤية ربه تعالى وسماع كلامه والخلود في محض فضله وإنعامه. نسأله سبحانه ذلك ولوالدينا والمؤمنين.

(٢) أي في الابتداء، وإلا فحسن الصورة والفعل لهما أثرهما التابع لحسن الصفات، وكل ذلك تابع لمحبة الله تعالى.

أعظم رتبة وأجلّ منزلة كانت المقدرة عليه[١] أجلّ رتبة وأشرف قدرًا. وأجلّ المعلومات هو الله تعالى[٢]، فلا جَرَمَ أن أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى[٣]، وكذلك ما يقرب إليه ويختص به، فشرفه على قدر تعلّقه به»[٤].

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا[٥].

---

(١) كتوفيق الله لعبده بتحبيب العلم والعبادة إليه، وإعانته عليهما.

(٢) وهو أعرف المعارف، ويُذكر أن سيبويه رؤي في المنام فذكر أن الله غفر له بسبب كلمة كتبها في كتابه وهي أن الله هو أعرف المعارف، أي فلا يحتاج لتعريف عند من صَفَتْ فطرته وسلم عقله وزكى ذوقه.

(٣) فشرف العلم على قدر شرف المعلوم، لذا فعلم أسماء الله الحسنى وصفاته العلى هو أشرف وأعلى وأسمى وأزكى العلوم على الإطلاق. قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسماء الله وصفاته، وتعبّده بها لله؛ لا يحصِّل العبد في الدنيا أجلّ ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي رُوحُ التوحيد ورَوْحُه، ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخالص والإيمان الكامل الذي لا يحصل إلا للكمّل من الموحدين».
قلت: وقد أولى الشيخان ابن تيمية وتلميذه ابن القيم هذا العلم أوفر العناية، وسمت همتاهما إلى تحقيقه وتعليمه والتصنيف فيه وبنائه في القلوب ودفع الغبش وكشف الشبه عنه.

(٤) الإحياء (٢/ ١٦٠١-١٦٠٤) بتصرف واختصار.

(٥) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (٩٦٩).

علامات محبة الله تعالى لعبده

وهي أمور تدل على استصفاء ذلك العبد وحب الله له، وإن كانت ليست مطردة لكنها غالبة، خاصة مع حسن العمل والمعتقد.

والله سبحانه وبحمده يُحِبُّ ويُحَبّ كما ثبت في الكتاب والسنة وإجماع صدر الأمة قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤، ١٤٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقال ﷺ: «**يقول الله تعالى: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»(١)، وقال ﷺ: «**إذا أحب الله عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبّه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه**

(١) البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ومرَّ الكلام قريبًا عن شيء من فوائده.

أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»(١).

وفي حديث أمير السريّة الذي كان يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ لأصحابه في كل صلاة، وقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «**أخبروه أن الله يحبه**»(٢)، وكذلك في السنّة مثل قول: «أحب الأعمال إلى الله كذا وكذا»، «إن الله يحب كذا وكذا» كقوله: «**أحب الأعمال إلى الله الصلاة على أول وقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله**»(٣)، و«**أحب الأعمال إلى الله الإيمان بالله، ثم الجهاد في سبيل الله، ثم حج مبرور**»(٤)، و«**أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه**»(٥)، وكما قال السلف: ليس الشأن أن تُحِب ولكن الشأن أن تُحَبَّ. نسأل الله الكريم من فضله وإنعامه(٦).

ومن علامات محبة الله تعالى لعبده المؤمن:

١ـ حسن التدبير له، فيربيه من أول نشأته على الخير ومحبته، ويوفقه للعلم النافع والعمل الصالح، ويسدّد ظاهره وباطنه، ويجعل هومه همًّا واحدًا، بحيث تشغله محبته وما يقرب إليه عن كل شيء.

---

(١) متفق عليه. عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه. عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

(٦) وانظر: المدارج (٣/ ٤٥٧ـ ٤٦٢).

٢.الرفق بالعبد، وتدريجه في اللطف والحُسْن والإحسان.

٣.وضع القبول له في الأرض ، فتحبه قلوب الصالحين وتثني عليه ألسنتهم، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحب الله عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانًا فأحبّه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل عليه السلام: إني أبغض فلانًا فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فيبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض**»(١).

٤ـ الابتلاء، لِحَطِّ الخطيئة ورفع الدرجة وتمحيص النفس وتزكيتها، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] أي يتحقق علمنا في عالم الشهادة. وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»(٢).

والابتلاء على قدر الإيمان واليقين والمحبة ، قال سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه**

(١) متفق عليه. البخاري (٧٤٨٥)، مسلم (٢٦٣٧).

(٢) الترمذي (٢٣٩٦)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١١٠).

رقّة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[١].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يُوعَك، فوضعت يدي عليه فوجدت حرّه بين يديّ. فقلت: يا رسول الله! ما أشدّها عليك! قال: «**إنا كذلك، يضعّفُ لنا البلاء، ويضعّف لنا الأجر**»، قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاءً؟ قال: «**الأنبياء**» قلت: يا رسول الله، ثم من؟ قال: «**الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحوّيها**[٢]**، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء**»[٣].

٥. شرح القلب بالإيمان، وسكينة النفس بالذكر والقرآن.

٦. الموت على عمل صالح. كما قال ﷺ: «**إذا أحب الله عبدًا عسله**» قالوا: وما عسله؟ قال: «**يوفق له عملاً صالحًا بين يدي أجله حتى يرضى عنه جيرانه أو من حوله**»[٤][٥].

---

(١) الترمذي (٢٣٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٢).

(٢) قال الفيروز: حواه يحويه واحتواه واحتوى عليه: جمعه وأحرزه. والتحوية: القبض، والانقباض كالتحوي. القاموس (٤٤٣). قلت: وتشديد الواو دليل المبالغة في إحرازها وحفظها لعدم غيرها وحاجته لها سترًا ودفئًا.

(٣) ابن ماجه (٤٠٢٤) وصححه البوصيري في المصباح (٤/١٨٨) كذلك الألباني.

(٤) أحمد (٤/ ٢٠٠) وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧).

(٥) ملخص بزيادات وتصرف عن (أعمال القلوب) محمد المنجد (٢٣٥، ٢٣٦).

الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى

من أحبه الله فقد حاز الخير بحذافيره، وفاز بالسعادة الأبدية، وأفلحَ الفلاحَ كله، وليس الأمر أن تُحب الله، ولكن الأمر أن يحبك الله كما جاء عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. ولسبيل محبة الله سابلة، وللدعوة إليها قلوب قابلة، ولمن سلك ووصل فواهًا!

وقد ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عشرة أسباب جالبة لمحبة الله تعالى(١)، وهي:

١ـ قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به. قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم من إنزال القرآن. وأن يشغل قلبه بالتأمل في الآي ويملأ فؤاده من معانيها، فلا شيء أنفع للقلب وأجلب لمحبة الله تعالى من

(١) انظرها في المدارج (٣/ ٤٤٨ـ ٤٥٠)، وقد شرحها الشيخ عبد العزيز مصطفى . شرحًا ماتعًا في رسالة أسماها (شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله تعالى). وانظر: (أعمال القلوب) للمنجد (٢٤٤ـ ٢٥٣) وقد اقتبست من بعضها في شرح هذه الأسباب.

قـراءة كلامـه وتعظيمـه وإجلالـه وتـدبره والعـيش بـالروح في رياضـه، ولا أسـعد للـروح الطـاهرة مـن تلاوتـه، والتغنـي بـه، وقـال ﷺ: **«لـيس منـا مـن لم يـتغنّ بالقرآن»**[١]، وقال: **«زينوا القرآن بأصواتكم»**[٢].

وروي عنه: **«للهُ أشدُّ أذنًا**[٣] **إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»**[٤]، وقد مرّ ﷺ بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ، فجعل يستمع لقراءته، وقـال: **«لقـد أوتي هـذا مزمـارًا مـن مزامير آل داود»**[٥]. وروي أنـه قـال: **«مررت بك البارحة وأنت تقرأ، فجعلت أستمع لقراءتك»**، فقال: لو علمت أنك تسمع لحبّرته لك تحبيرًا[٦]، أي: لحسنته لك تحسينًا. وكـان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقـول له: يا أبا موسى! ذكّرنا ربّنا، فيقرأ، وهم يسمعون ويبكون. وكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحدًا منهم أن يقرأ القرآن والباقي يستمعون[٧].

---

(١) البخاري (٧٥٢٧).

(٢) أبو داود (١٤٥٥) وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٧٤).

(٣) أذنًا: أي استماعًا.

(٤) أحمد (٦/ ١٩، ٢٠)، وابن ماجه (١٣٤٠)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٦٣٣).

(٥) متفق عليه. البخاري (٥٠٤٨)، مسلم (٢٣٥، ٢٣٦).

(٦) الخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ٢٩٨)، وأبو يعلى والطبراني، وفيه خالد بن نافع الأشعري وثقه ابن حبان وضعفه جماعة.

(٧) الفتاوى (١٠/ ٨٠).

وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «صليت مع الرسول ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المئة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوّذ تعوّذ»(١).

ولا شيء أنفع للقلب وأجلب لمحبة الله تعالى من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر والاعتبار(٢)؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والشكر والصبر واليقين، وسائر أحوال العبد وأعماله الظاهرة والباطنة. قال الحسن: أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً! فالتفكر بالقرآن وفي القرآن أصل صلاح القلب ، والعمل من ثمراته، وصلاح الباطن موجب لصلاح الظاهر، وصلاح الظاهر علامة على صلاح الباطن.

وقال ابن الجوزي: «ينبغي لتالي القرآن العظيم أن ينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه في إيصال معاني كلامه إلى أفهامهم، وأن يعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه، ويتدبر كلامه»(٣).

وقال الحسن: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا

---

(١) مسلم (٧٧٢).

(٢) وسيأتي في أبواب التفكر والتذكر والاعتبار إن شاء الله عز وجل.

(٣) مختصر منهاج القاصدين (٤٦).

يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها في النهار»(١).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من أحب القرآن فهو يحب الله ورسوله»(٢).

والتدبر هو المقصود من القراءة؛ وإن لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية فليرددها(٣)، فقد روى أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه أقام ليلة بآية يرددها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وقام تميم الداري بآية حتى الصباح، كذلك الربيع بن خثيم، وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تردد الآيات وتبكي عندها.

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠]: «فالتجارة التي لن تبور هي الثواب الذي لابد من حصوله»(٤).

وقال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]: «فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن، النووي (٢٨).

(٢) الطبراني في الكبير (٨٦٥٨)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٦٥): رجاله ثقات.

(٣) مختصر منهاج القاصدين (٤٧).

(٤) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٣١).

اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه إلى شيء آخر؛ حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر»[١].

٢ـ التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض؛ لأنها توصل إلى درجة المحبة، كما جاء في الحديث الرباني: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبَّهُ؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»[٢].

فتضمن هذا الحديث الإلهي القدسي حصر أسباب محبة الله في أمرين: أداء فرائضه، ثم التقرب إليه بالنوافل. ومن أحس في نفسه تقصيرًا في الفرائض فليبادر بإصلاحها بدون الفتور في النوافل، ومن اشتغل بالنوافل دون الفرائض فقد ضلّ، فالفرائض أصل والنوافل فرع لها، وما من فريضة إلا ولها عبادات نافلة من جنسها رحمة من الله بعباده ليجبروا نقصهم ويرفعوا درجتهم.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جرت العادة أن التقرب يكون غالبًا بغير ما وجب على المتقرب، كالهدية والتحفة، بخلاف من يؤدي ما عليه من خراج، أو يقضي ما عليه من دين... وأيضًا فإن من جملة ما شرعت له النوافل: جبر الفرائض، كما

---

(١) الفوائد (٣) باختصار.

(٢) البخاري (٦٥٠٢).

صح في الحديث: «**انظروا هل لعبدي من تطوع فتكمل فريضته...**»[١] الحديث بمعناه، فتبيّن أن المراد بالتقرب بالنوافل أن تقع ممن أدّى الفرائض، لا من أخلّ بها»[٢].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أولياء الله المقربون قسمان:

أحدهما: من تقرب إلى الله بأداء الفرائض، ويشمل ذلك فعل الواجبات، وترك المحرمات؛ لأن ذلك كله من فرائض الله التي افترضها على عباده. وأهل هذا القسم هم المقتصدون الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ [فاطر: ٣٢]، وهم أصحاب اليمين الذين قال فيهم: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧]. فأداء الفرائض أفضل الأعمال[٣]، كما قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرّم الله، وصدق النية فيما عند الله عز وجل.

الثاني: من تقرّب إلى الله تعالى بعد أداء الفرائض بالنوافل، وهم أهل درجة

---

(١) الترمذي (٤١٣) وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١/ ١٣٠).

(٢) الفتح (١١/ ٣٥١).

(٣) وفي الحديث: «**اتق المحارم تكن أعبد الناس**» رواه الترمذي (٢/ ٥٠) وأحمد (٢/ ٣١٠)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣٠)، وكما قال سهل بن عبد الله: أعمال البر يطيقها البرُّ والفاجر، ولكن لا يصبر عن المحارم إلا صدّيق.

السابقين المقربين(١).. لأنهم تقربوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات بالورع. وذلك يوجب للعبد محبة الله، فمن أحبه الله رزقه محبته وطاعته والحظوة عنده»(٢).

٣ـ دوام ذكر الله تعالى على كل حال، باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وفي الحديث الإلهي: **«أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»**(٣).

وكل العبادات قد قيدت بقدر إلا الذكر فلم يقدر، بل قد أوصى بالزيادة منه والإكثار؛ فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، وحينما سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا، فبابٌ نتمسك به

---

(١) وهم من يشربون التسنيم صِرْفًا بينما يمزج للأبرار، كما قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨] والباء للتضمين. نسأل الله الكريم من فضله.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٣٠) باختصار.

(٣) أحمد (٤/ ١١٨، ١٩٠)، وابن ماجه (٣٧٩٣) وغيرهما، وصححه الألباني (٣٠٦٠).

جامع. فقال: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»[١]. فلاحظ اختياره لكلمة (لا يزال) وهي المفيدة للاستمرارية والدوام، وقد كان ﷺ يوصي بذكر الله تعالى بمقاله وبحاله، كما حدثت عنه الصديقة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان يذكر الله على كل أحيانه[٢].

والذكر أنواع عديدة منقسمة على القلب واللسان والجوارح، ولكل قسم أصناف وألوان، قد جعل الله كلاً منها غذاءً للروح ودواءً وبلسمًا وسلوةً وفرحًا، وأنموذجًا لنعيم في الجنة التي يُلهم أهلها التسبيح كما نُلهم النَّفس استرواحًا ولذة وفرحًا.

٤ـ إيثار محابّه على محابّك عند غلبات الهوى، والتسنّم إلى محابّه وإن صعب المُرتقى.

وهذه عزيزة نفيسة، وهي بحق برهان الصدق في الامتحان، والنجاح في الابتلاء، فالقلب لا يقدم محبة شيء على غيره إلا لتمكنه من نياطه ووحشته لفقده، وعند المزاحمة يتبين الصادق من المدعي، وعند الامتحان يكرم المرء أو يُهان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إيثار رضى الله عز وجل على غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته[٣] ولو أغضب الخلق، وهي درجة الأنبياء، وأعلاها لنبينا

---

(١) الترمذي (٣٣٧٢) وصححه عبد القادر الأرناؤوط في جامع الأصول (٢٥٦١).

(٢) أحمد (٦/٢٧٨)، ومسلم (١/١٩٤) وسيأتي مزيد في باب الذكر إن شاء الله تعالى.

(٣) وسيأتي مزيد في باب الإيثار إن شاء الله تعالى.

محمد ﷺ، فإنه قاوم العالم كله، وتجرد للدعوة إلى الله، واحتمل عداوة القريب والبعيد في الله تعالى، وآثر رضى الله على رضى الخلق من كل وجه، ولم يأخذه في إيثار رضاه لومة لائم»(١).

وقال السفاريني: «لا شك أن في مخالفة النفوس لهواها اعتزازها وقوتها ومنعتها من الشيطان وجنوده، وعدم ذلّها، فلّما قمع هوى نفسه بمقمعة المتابعة، وضربها بسياط الاقتداء، وصرفها بزمام التقوى؛ حصل له العز والامتناع والقوة والارتفاع بحسن الاتباع ومخالفة الابتداع»(٢).

وقيل للحسن: يا أبا سعيد! أي الجهاد أفضل؟ قال: جهاد هواك.

إذا المرء أعطى نفسه كلما اشتهت ... ولم ينهها تاقت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار للذي ... دعته إليه من حلاوة عاطل

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]: «إنه الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب بين يدي ربه سبحانه، فيخاف فيتركها»(٣).

وبالجملة؛ فإيثار مراضي رب العزة سبحانه عند لجلجة النفس بشهوتها وحبس فورتها بالتقوى وكسر جماحها بالورع لهو برهان المحبين.

---

(١) المدارج (٢/ ٢٩٩) باختصار.
(٢) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، محمد السفاريني (٢/ ٤٥٥).
(٣) تفسير الآلوسي (٣٠/ ٤٦).

ومن أفضل الإيثار؛ الإيثار بالنفس والمال جهادًا في سبيل الله تعالى.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد، والجهاد دليل لمحبته الكاملة. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال تعالى في صفة المحبين المحبوبين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤]» (١).

وعلامة إيثار محاب الله تعالى وجماعه شيئان:

الأول: فعل ما يحبه الله، ولو كانت النفس له كارهة.

الثاني: ترك ما يكرهه الله ولو كانت النفس له محبة مشتاقة.

وهي قنطرة بعدها النعيم المقيم.

قال ابن القيم: «ما ابتلى الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبة ما هو أفضل منها وأنفع وأخير وأدوم، وليجاهد نفسه على تركها لله، فتورثه هذه المجاهدة محبة الله والوصول إلى

(١) الفتاوى (١٠/ ٥٧، ٥٨).

المحبوب الأعلى، فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه إليها؛ صرف ذلك الشوق والإرادة بشوق أعظم ومحبة أكبر، وهي محبة الله عز وجل»[١]، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

٥ـ مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ أحبه لا محالة[٢].

والإيمان بالأسماء والصفات ضروري فطري عقلي شرعي، فمن آمن بها وأثبتها على حقيقتها من غير تمثيل ونزه الله تعالى عما لا يليق به بلا تعطيل فهو الموفق المستقيم، أما من تلوّث بشوائب البدع وأصول أهل الكلام والمنطق والفلسفة من أهل التجهم أو الاعتزال أو الماتريدية أو الأشاعرة وأشباههم من أهل الزيغ والابتداع فقد حَرِجَ صدرُه وضاقت نفسه، واضطربت أفكاره، وتناقضت علومه. وأنى بالانسجام بين العلوم والعقول والأرواح إلا بالتسليم التام للوحي الشريف، فرسول الله ﷺ هو أعلم الخلق وهو أفصحهم وهو أنصحهم[٣]، ومن اجتمعت فيه هذه الثلاث فالحق معه حيث دار، فالسعيد من اتبعه واستقام على طريقته وسنته، والشقي من خالف جادته، وتنكب محجته.

فالرسل عليهم السلام قد بُعثوا بثلاث مهام عظام ووظائف كبار تدور كلها

---

(١) الفوائد، ابن القيم (١/ ١١٠).

(٢) وسيأتي مزيد بسط في باب العلم إن شاء الله تعالى.

(٣) الفتاوى (٥/ ٤٧٧).

على التوحيد[١]:

الوظيفة الأولى: الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا لا يتم إلا بعد تعريف العباد بالمعبود سبحانه، وتفرده بصفات الجلال وأسماء الكمال.

الوظيفة الثانية: بيان الطريق الموصلة إليه سبحانه، وهذا يكون ببيان التكاليف التي تجيء بها الشرائع من أمر ونهي، ووعد ووعيد، ليخلص العبد لربه عبادته.

الوظيفة الثالثة: بيان حال المكلفين بعد حط رحالهم في الآخرة، حيث يفترقون بعدها إما إلى دار النعيم المقيم؛ الجنة، أو دار الشقاء المقيم؛ النار[٢].

وهذه الوظائف الثلاث التي جاءت من أجلها الرسل، وجدت من أعداء الرسل - من شياطين الجن والإنس - ثلاث طوائف، قعدت كل طائفة منهم على رأس طريق تصدّ عنه:

الطائفة الأولى: معطلة الصفات والملحدون في الأسماء، قعدوا على رأس الطريق المعرّفة بالله، حتى يَحُولُوا بين الرسل وأتباعهم، وبين تعريف الخلق بربهم ومعبودهم المعرفة الصحيحة والعلم الحق.

الطائفة الثانية: قعدت على رأس الطريق الموصلة إلى الله، والمقتضية الامتثال للأمر واجتناب النهي، وهؤلاء هم أهل التبديل والتحريف والتغيير، من

(١) انظر: شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبة الله (٨٩-٩٧).

(٢) انظر: شرح العقيد الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٨٩، ٩٠)، المدارج (٣/ ٣٤٨).

أصحاب الآراء الفاسدة والسياسات الباطلة والأذواق المنحرفة والعادات والتقاليد البالية[١] ليَحُولوا بين الخلق وبين السير على الطريق المستقيم؛ طريق الشريعة الكاملة الشاملة.

الطائفة الثالثة: قعدت على رأس الطريق الهادية إلى العمل للجنة، والناهية عن العمل بعمل أهل النار، وهؤلاء القاعدون هم أهل الشهوات المفتونون بها.

وأخطر هذه الطوائف: الطائفة الأولى الصادة عن معرفة الله، أولئك الذين ينكرون صفات الرب المعبود، فلا يثبتون له ما أثبته لنفسه من صفات الكمال والجمال والجلال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيء الظن به، وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢، ٢٣] فما أُتي كافرٌ ولا عاصٍ إلا من قِبَلِ سوء ظنه بربه في صفاته أو غفلته عن ذلك.

ومن أجل أن يتلافى العبد الظنون والاعتقادات الفاسدة؛ فلابد له من سلوك سبل المعرفة بالله تعالى، لكي يعبده على بصيرة وهدى، وله لذلك طريقان: الأول أصل والثاني متفرع منه محكوم به:

---

(١) المخالفة للشريعة.

الأول: الوقوف عند ما جاء في نصوص الوحي من صفات الله وأسمائه، فيثبتها كما جاءت، ولا يفسد معرفته لله بتأويلها أو تعطيلها أو تحريفها[١]، فهو عندما يؤمن بصفات الله الثابتة بالوحي فإنه سيعرف منها أن لربه صفات الكمال والجلال كلها، وسيجد أنه لا مجال لمتمحك ولا متمحل في تأويلها أو صرفها عن المراد بها.

---

(١) التأويل الممنوع: صرف اللفظ عن ظاهره بلا موجب، والتعطيل: إنكار الاسم أو الصفة أو نفي حقيقة الصفة، فإن كان مع التعطيل إثبات معنى آخر فهو التأويل وحقيقته التحريف، وإن كان بدون إثبات معنى آخر فهو التفويض وهو أخبث من التأويل؛ لأن أصحابه يلتزمون نفي المعنى الشرعي ويتهمون الوحي بالعجمة، وأنه في الصفات مجرد حروف بلا معنى معقول. والمؤسف أن بعض من ترك التأويل انتهى أمره إلى التفويض. والتحريف جامع لذلك، ويخصه بعضهم بتغيير اللفظ.
وقد صارت قاعدة الإمام مالك ميزانًا عند أهل السنة في الأسماء والصفات ، وهي القاعدة المالكية المشهورة حيث قال بعدما سئل عن الاستواء: «الاستواء معلوم» - أي معقول المعنى ومعلوم المراد - «والكيف مجهول» - أي تفويض العلم بكيفية الصفة لأن الكلام عن الصفات كالكلام في الذات يحذى فيه حذوه ويُجرى فيه بمثاله - «والإيمان به واجب» - لأن هذه الصفة قد ثبتت في الكتاب والسنة، فمن موجبات الإيمان بالله تعالى الإيمان بها فنثبت بلا تمثيل وننزه بلا تعطيل. «والسؤال عنه بدعة»، أي السؤال عن الكيفية وليس السؤال عن المعنى، فإنه من العلم الشريف ومعرفة معانيه سبيل للتفكر والتذكر وترسيخ الإيمان بالملك الديان سبحانه وبحمده.
واعتبر سائر الصفات على هذا المثال البديع، فإذا ثبتت الصفة في أحد الوحيين؛ الكتاب والسنة، فالصفة معلومة وكيفها مجهول والسؤال عن كيفها بدعة والإيمان بها واجب.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] فهذه الآية واضحة في إثبات مجيء الله للفصل بين العباد يوم القيامة[١]، وكذلك دل قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] على إثبات صفة الكلام لله سبحانه، وأنه سبحانه كلم بعض عباده من النبيين كلامًا أخص من الوحي العام الذي أوحاه لسائر النبيين، كذلك حديث الرؤية في الصحيحين: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا**»[٢]. ففي هذا الحديث الجليل بيان وإيضاح لإثبات الرؤية واحترازات واضحة تبطل التأويل والتحريف، بحيث لا يرتاب في المعنى المراد إلا مُغالٍ أو مغالط.

فباب الأسماء والصفات واضح وفهمه عند أهل السنة والجماعة مستقيم ومنسجم مع الوحي والعقل والروح والفطرة، أما من ألحد فيهما[٣] بشبه

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٩٦).

(٢) متفق عليه، البخاري (٧٤٣٤)، مسلم (٦٣٣) واللفظ للبخاري.

(٣) الإلحاد في الأسماء متضمن للإلحاد في الصفات. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وحسن الأسماء متضمن لحسن معانيها وهي الصفات المشتقة منها. قال ابن القيم: «الإلحاد في أسمائه: هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل، كما تدل عليه مادة اللحد، ومنه اللحد، وهو الشق في جانب القبر الذي مال =

عن الوسط، ومنه اللحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل».

قلت: فالمائل عن الحق إلى الباطل: ملحد، والمائل عن الباطل إلى الحق: حنيف.

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه أنواع:

١ـ أن يُسمي الأصنام بها؛ كتسميتهم اللات من الإله، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهًا.

٢ـ تسمية الله تعالى بما لا يليق بجلاله وعظمته؛ كتسمية النصارى له أبًا، وتسمية الفلاسفة له موجبًا بذاته، أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

٣ـ وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائض؛ كقول أخبث اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: يد الله مغلولة، وأمثال ذلك.

٤ـ تعطيل الأسماء الحسنى عن معانيها، وجحد حقائقها؛ كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم، ويقولون: لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعًا ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا من أسمائه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوا الأسماء كمالها وجحدوها وعطلوها، وكلاهما ألحد في أسمائه.

ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في الإلحاد؛ فمنهم الغالي والمتوسط والمتلوّث، وكل من جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ فقد ألحد في ذلك فليستقل أو ليستكثر.

٥ـ تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى الله علوًّا كبيرًا، وهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفات كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه.

قلت: قد نقضت آية الشورى ضلالتيهم، قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ =

المعطلة[١] أو الممثلة فقد هرب من الشرّ، وفي الشرّ وقع.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى لما سئل عن آية الصفات، وأحاديث

=

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فالجملة الأولى نقض لمذهب الممثلة المشبهة، والجملة الثانية نقض لمذهب المعطلة المحرفة، ومع جمعهما بناء وإثبات مذهب السلف الصالح أهل السنة والجماعة؛ إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل.

فالمعطلة والممثلة جمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه، وبرّأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته من ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت له لا لفظًا ولا معنىً، بل أثبتوا له الأسماء والصفات. ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئًا من التشبيه، وتنزيههم خاليًا من التعطيل، فالمشبه يعبد صنمًا، والمعطل يعبد عدمًا.

وأهل السنة وسط في النِّحَلِ، كما أن أهل الإسلام وسط في المِلَلِ، توقد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء.

باختصار وتصرف عن تيسير العزيز الحميد (٦٤٥-٦٤٧).

(١) قال ابن القيم في المقدمة التي بين يدي قصيدته النونية: «فالمشبه يعبد صنمًا، والمعطل يعبد عدمًا، والموحّد يعبد إلهًا واحدًا صمدًا. ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]»، وقال: «قلب المعطل متعلق بالعدم فهو أحقر الحقير، وقلب المشبه عابد للصنم الذي قد نحت بالتصوير، والموحد قلبه متعلق بمن ليس كمثله شيء وهو السميع البصير».

الصفات، وهي الفتوى المشهورة الموسومة بالفتوى الحموية الكبرى(١) ـ وسأكتفي بسوق مقدمتها ـ: «الحمد لله رب العالمين. قولنا فيها ما قاله الله ورسوله ﷺ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وهذا هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وغيره؛ فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وشهد له بأنه بعثه داعيًا إليه بإذنه، وسراجًا منيرًا، وأمره أن يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]. فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل معه الكتاب بالحق؛ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأمر الناس أن يردّوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة، وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة، وقد أخبر الله أنه أكمل له ولأمته دينهم، وأتم عليهم نعمته. مُحالٌ مع هذا وغيره: أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسًا مشتبهًا، ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وما يجوز عليه وما يمتنع عليه.

فإن معرفة هذا أصل الدين، وأساس الهداية، وأفضل وأوجب ما اكتسبته

(١) وقد كتبها سنة ٦٩٨ جوابًا لسؤال من حماة، وهي رسالة متوسطة الطول لكنها غزيرة العلم ولا غنى لطالب علم عنها بعد الله تعالى، وكان الإمام ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يقول ـ وقد علق عليها مرارًا ـ: لأهميتها ينبغي أن تقرأ أكثر من مئة مرة.

القلوب، وحصّلته النفوس، وأدركته العقول، فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يُحكموا هذا الباب اعتقادًا وقولاً؟!

ومن المحال أيضًا أن يكون النبي ﷺ قد علم أمته كل شيء حتى الخراءة، وقال: «**تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»(١)، وقال فيما صح عنه أيضًا: «**ما بعث الله من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم**»(٢). وقال أبو ذر: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه إلا ذكر لنا منه علمًا»(٣). وقال عمر بن الخطاب: «قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا، فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه»(٤).

ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين - وإن دقّت - أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين(٥)، الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه

(١) أحمد (٤/ ١٢٦)، ابن ماجه (٤٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٤)، وتكلم بعضهم في زيادة المحجّة.

(٢) مسلم (٤٦).

(٣) أحمد (٥/ ١٥٣، ١٦٢).

(٤) البخاري (٣١٩٢).

(٥) ولمـّا قال ابن فورك - من أئمة الأشاعرة - لمحمود بن سبكتكين - فاتح الهند وكاسر أصنامها -: يلزمك القول بالسفل إذا أثبتّ العلو! فقال محمود: لا يلزمني من أقوالك شيء؛ لأنه في القرآن والله أعلم به.

غاية المطالب، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية، وزبدة الرسالة الإلهية، فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة ألا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام؟! ثم إذا كان قد وقع ذلك منه[١]، فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصروا في هذا الباب، زائدين فيه أو ناقصين عنه[٢].

---

(١) على سبيل التنزّل.

(٢) وهذه الحجة من أعظم الحجج البدهية المنطقية على الإطلاق في رد البدع والمحدثات في الدين، فعلى بساطتها إلا أنها جامعة مانعة؛ فنقول: هل كانت هذه البدعة المعيّنة ـ سواءً في الاعتقاد أو القول أو العمل ـ معلومة للنبي ﷺ أم لا؟ فإن كان الجواب بالإيجاب، فأين الدليل على ذلك؟ وإن كان الجواب بالنفي فهو إقرار بأن هذه البدعة ليست من دين محمد ﷺ.

فإن قال: علمها ولم يبينها. قيل له: إن كانت من الدين فأنت تتهم رسول الله ﷺ بالتقصير في البلاغ، فالله تعالى يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] وقد صحّ عنه أنه بلغ البلاغ التام الكامل الوافي في قوله: «**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها**» (أحمد ٤/ ١٢٦) بسند صحيح.

وقد أقره الله على ذلك بقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣]. فالدين تام وقد بلغ رسول الله ﷺ البلاغ المبين وأقام الحجة الكاملة وبين المحجة الآمنة.

لذلك لما قيل في المناظرة في موضوع القول بخلق القرآن، بين يدي المتوكل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أمْرٌ وَسِعَ رسول الله ﷺ وصحابته ألا يحملوا الناس عليه، فلا وَسَّع الله لمن لم يسعه ما وسع رسول الله ﷺ، فنهض المتوكل واضطجع وهو يردد: لا وسّع الله على من =

ثم من المحال أيضًا أن تكون القرون الفاضلة ـ القرن الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ـ كانوا غير عالمين، وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين؛ لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق. وكلاهما ممتنع.

أما الأول: فلأن من في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم، أو نهمة في العبادة، يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه، ومعرفة الحق فيه ـ أكبر مقاصده، وأعظم مطالبه، أعني بيان ما ينبغي اعتقاده، لا معرفة كيفية الرب وصفاته.

وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر. وهذا أمر معلوم بالفطرة الوجدية، فكيف يتصور مع قيام هذا المقتضي ـ الذي هو من أقوى المقتضيات ـ أن يتخلف عنه مقتضاه في أولئك السادة في مجموع عصورهم. هذا لا يكاد يقع في أبلد الخلق، وأشدهم إعراضًا عن الله، وأعظمهم إكبابًا على طلب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله تعالى؛ فكيف يقع في أولئك؟

وأما كونهم كانوا معتقدين فيه غير الحق أو قائليه؛ فهذا لا يعتقده مسلم، ولا عاقل عرف حال القوم.

ثم الكلام في هذا الباب عنهم أكثر من أن يمكن سطره في هذه الفتوى

=

لم يسعه ما وسع رسول الله.. يرددها ويضع المروحة على وجهه ويرفعها حتى أصبح، ثم أمر بإقامة السنة وهي أن القرآن كلام الله وهتك البدعة وكسرها. رحمه الله تعالى.

وأضعافها[١]، يعرف ذلك من طلبه وتتبعه.

ولا يجوز أيضًا أن يكون الخالفون أعلم من السابقين، كما قد يقوله بعض الأغبياء ممن لم يقدِّر قدر السلف[٢]، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها من أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم[٣]!

فإن هؤلاء المبتدعة الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم على طريقة السلف، إنما أُتوا من حيث ظنّوا أن طريقة السلف هي مجرد

---

(١) وقد سطر رحمه الله المؤلفات العديدة والفتاوى الكثيرة في بيانه كالواسطية وهذه الرسالة الحموية والتدمرية ونقض التأسيس والعقل والنقل وما تناثر في مجموع الفتاوى وبخاصة المجلد الخامس والسادس وغيرها، كذلك تلميذه ابن القيم في الصواعق المرسلة ومدارج السالكين والنونية وغيرها.

(٢) للحافظ ابن رجب رسالة نفيسة بعنوان: فضل علم السلف على علم الخلف.

(٣) وانظر بسط ذلك ونقض هذه الجملة في: درء التعارض (٥/ ٣٧٨-٣٨٠). ومما ينبه عليه أن في الطبعة المتداولة - طبعة الشيخ ابن قاسم - زيادة على شكل جملة اعتراضية وفيها: (وإن كانت هذه العبارة إذا صدرت من بعض العلماء قد يعني بها معنى صحيحًا) قال العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه عليها: قد رجعت إلى أصل المخطوطة فلم أجد هذه العبارة، فلعلّها مقحمة في متن الحموية. وعلق ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ على ذلك بقوله: هذا الأقرب، فهي كلمة خبيثة حاشا شيخ الإسلام قولها، ولا نجد لها مساغاً. قلت: وكذلك قد نفى وجود هذه الزيادة في الأصل محقق النسخة المطبوعة، فليتنبه.

الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك، بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات، وغرائب اللغات.

فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة؛ التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر، وقد كذبوا على طريقة السلف، وضلّوا في تصويب طريقة الخلف، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف.

وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة، التي شاركوا فيها إخوانهم من الكافرين، فلما اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر، وكان مع ذلك لا بد للنصوص من معنى، بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى - وهي التي يسمونها طريقة السلف - وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع تكلف - وهي التي يسمونها طريقة الخلف - فصار هذا الباطل مركبًا من فساد العقل والكفر بالسمع(١)، فإن النفي إنما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ظنوها بينات وهي شبهات، والسمع حرفوا فيه الكلم عن مواضعه(٢).

---

(١) أي القرآن والسنة.

(٢) فسفسطوا في العقليات، وقرمطوا في النقليات.

فلما انبنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكفريتين الكاذبتين؛ كانت النتيجة استجهال السابقين الأولين واستبلاههم، واعتقاد أنهم كانوا قومًا أميين، بمنزلة الصالحين من العامة، لم يتبحروا في حقائق العلم بالله، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلهي، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله.

ثم هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة؛ بل في غاية الضلالة. كيف يكون هؤلاء المتأخرون، لاسيما والإشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين[(١)] الذين كثر في باب الدين اضطرابهم، وغلظ عن معرفة الله حجابهم، وأخبر الواقف على نهاية إقدامهم بما انتهى إليه أمرهم حيث يقول[(٢)]:

---

(١) هو محمد بن عبد الكريم الشهرستاني.

(٢) هو محمد بن عمر الرازي، ذكرها في كتابه (أقسام اللذات). ونقل الشيخ العلامة عبد الرحمن المعلمي في (القائد إلى تصحيح العقائد) (ص٧٤) عن (لسان الميزان ٤/ ٤٢٩) في ترجمة الفخر الرازي: «أوصى بوصية تدل على أنه حسّن اعتقاده» وهذه الوصية في ترجمته من كتاب (عيون الأنباء ٢/ ٢٦-٢٨) قال مؤلف الكتاب: «أَمْلَى في شدة مرضه وصية على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصفهاني.. وهذه نسخة الوصية: بسم الله الرحمن الرحيم. يقول العبد الراجي رحمة ربه، الواثق بكرم مولاه، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، وهو في آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، وهو الوقت الذي يلين فيه كل قاس، ويتوجه إلى مولاه كل آبق... ولقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات. وما ذاك إلا العلم بأن العقول =

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيّرت طرْفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعًا كف حائرٍ على ذقن أو قارعًا سن نادمِ

وأقرّوا على أنفسهم بما قالوه متمثلين به أو منشئين له فيما صنّفوه من كتبهم، كقول بعض رؤسائهم:

نهاية إقدام العقول عقالُ وأكثر سعي العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، واقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]، ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. اهـ.

=

البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة، والمناهج الخفية... وكل ما ورد في القرآن والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد فهو كما هو، والذي لم يكن كذلك أقول: يا إله العالمين... وأقول: ديني متابعة محمد سيد المرسلين وكتابي هو القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما...» باختصار.

ويقول الآخر منهم[١]: لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام

---

(١) هو أبو المعالي الجويني، من كبار منظري الأشاعرة. وقد قال الكلام الآنف عند موته وفي رواية: على عقيدة عجائز نيسابور، وقال كذلك: يا أصحابنا! لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به. (قطف الجني الداني شرح مقدمة أبي زيد القيرواني) للعلامة عبد المحسن العبادي (ص٣٢)، وقد نقل حفظه الله نقولاً أخرى نذكرها للفائدة:

قال شمس الدين الخسروشاهي ـ وكان من أجلّ تلاميذ فخر الدين الرازي ـ لبعض الفضلاء، وقد دخل عليه يومًا فقال: ما تعتقد؟ قال: ما يعتقده المسلمون. فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ أو كما قال، فقال: نعم، فقال: اشكر الله على هذه النعمة، لكني والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد! والله ما أدري ما أعتقد! وبكى حتى اخضل لحيته.

ولابن أبي الحديد ـ الفاضل المشهور بالعراق ـ:

فيك يا أُغلوطة الفِكر ... حار أمري وانقضى عمري
سافرتْ فيك العقول فما ... ربحت إلا أذى السفر
فلحى الله الأُلى زعموا ... أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذي ذكروا ... خارج عن قوّة البشر

وقال الخونجي عند موته: ما عرفتُ مِمّ حصّلتُه شيئًا سوى أن الممكن مفتقر إلى المرجح، ثم قال: الافتقار وصف سلبي، أموت وما عرفت شيئًا!

وقال آخر: أضطجع على فراشي، وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي منها شيء.

(قلت: وسبب ذلك خفاء مذهب السلف عليهم، فيظنوا أنه التفويض، وإلا فلو =

=

علموا حقيقته وتفاصيله لما كان لهم أن يترددوا).

وقال ابن أبي العز شارح الطحاوية: وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز، فيقرّ بما أقرّوا به، ويعرض عن الدقائق المخالفة لذلك، التي كان يقطع بها ثم تبيّن له فسادها، أو لم يتبيّن له صحتُها، فيكونون في نهاياتهم ـ إذا سلموا من العذاب ـ بمنزلة أتباع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب.

وكان أبو محمد الجويني ـ والد إمام الحرمين ـ في حيرة واضطراب في صفات الله عز وجل، ثم صار إلى مذهب السلف، وألّف رسالة نُصْحٍ لبعض مشايخه من الأشاعرة، وهي مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (١/ ١٧٤ـ١٨٧).

وقال الغزالي في الإحياء (٩١، ٩٢) محذرًا من مزلق علم الكلام: أما مضرّته فإثارة الشبهات، وتحريك العقائد، وإزالتها عن الجزم والتصميم... وأما منفعته، فقد يُظن أن فائدته كشفُ الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه، وهيهات، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف... فاسمع هذا ممن خَبرَ الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة، وبعد التغلغل فيه إلى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمّق في علوم أُخَرَ تناسب نوع الكلام، وتحقّق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود، ولعمري لا ينفكّ الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الندور في أمور جليّة تكاد تفهم قبل التعمّق في صفة الكلام.

وقال ابن أبي العز معلقًا على كلام الغزالي: وكلام مثله في ذلك حجة بالغة (شرح الطحاوية: ٢٣٨). ثم نقل عن ابن رشد الحفيد ـ وهو أعلم الناس بالفلسفة والمنطق ـ في كتابه (تهافت التهافت): ومن الذي قال في الإلهيات شيئًا يُعتد به؟! وكذلك الآمدي واقفٌ في المسائل الكبار وحائر فيها. كذلك الغزالي انتهى آخر أمره إلى التوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عنها وأقبل على حديث النبي ﷺ،

=

وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أمي. اهـ.

ويقول الآخر منهم: أكثر الناس شكًّا عند الموت أصحاب الكلام[١].

ثم هؤلاء المتكلمون المخالفون للسلف إذا حقق عليهم الأمر؛ لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبر، ولم يقعوا من ذلك على

=

فمات وصحيح البخاري على صدره.

وانظر كلامًا ماتعًا للعلامة المعلمي في تحليله لشخصية أبي حامد الغزالي في كتابه النفيس (القائد إلى تصحيح العقائد: ٧٠ـ ٧٥).

(١) وقال رحمه الله في (نقض المنطق): ولهذا ما زال علماء المسلمين وأئمة الدين يذمونه ـ أي المنطق ـ ويذمون أهله، وينهون عنه وعن أهله، حتى رأيت للمتأخرين فتيا فيها خطوط جماعة من أعيان زمانهم من أئمة الشافعية والحنفية وغيرهم فيها كلام عظيم في تحريمه وعقوبة أهله، حتى إن من الحكايات المشهورة التي بلغتنا: أن الشيخ أبا عمرو بن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبي الحسن الآمدي، وقال: أَخْذُها منه أفضل من أخذ عكّا. (الفتاوى ١٠/ ٧).

وقال أيضًا في وصف المنطق: لحم جمل غث، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى، (وفي نسخة: ولا سمين فينتقل) لا يحتاج إليه الذكي، ولا يستفيد منه البليد، مع ذلك ففيه من الأخطاء والضلالات ما لا يحصر.

وقال أيضًا شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: ما أظن أن الله يغفل عن المأمون، ولابد أن يقابله على ما اعتمده في هذه الأمة من إدخال هذه العلوم الفلسفية بين أهلها. نقله الصفدي. الغيث المسجم (١/ ٧٩).

عين ولا أثر، كيف يكون هؤلاء المحجوبون، المفضولون، المنقوصون، المسبوقون، الحيارى المتهوكون؛ أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل، وأعلام الهدى، ومصابيح الدُّجَى، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء، فضلاً عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة!

ثم كيف يكون خير قرون الأمة أنقص في العلم والحكمة - لاسيما العلم بالله وأحكام أسمائه وآياته - من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم؟!

أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان، وورثة المجوس والمشركين، وضُلّال اليهود والنصارى والصابئين، وأشكالهم وأشباههم؛ أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان»[١]؟!

---

(١) الحموية الكبرى، ضمن الفتاوى (٥/ ٥-١٢). ولضرورة المؤمن للفقه في أسماء الله تعالى وصفاته فسأسوق بعض الفوائد والقواعد من كتب أهل العلم باختصار واقتصار:

١- منهج أهل السنة والجماعة في العقيدة: اتباع الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

٢- أهل السنة والجماعة وسط بين فرق الضلال كما أن الأمة وسط بين أمم الضلال.

=

=

٣ـ عقيدة أهل السنة والجماعة موافقة للفطرة التي فطر الله الناس عليها.

٤ـ السلف الصالح يثبتون صفات الله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته مع تنزيهه عن مماثلة المخلوقات، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، فهم مثبتة للمعاني مفوّضة للكيفيات وليسوا مؤولة محرفة ولا مفوّضة مجهّلة.

٥ـ كلٌ من الممثلة والمعطلة جمعوا بين التمثيل والتعطيل، فالمعطلة لم يعطلوا الصفات إلا بعد أن تصوروا في أذهانهم أن ظاهر الآيات والأحاديث يلزم التمثيل، فمثلوا أولاً ثم عطلوا ثانيًا. أما الممثلة فقد عطلوا صفات الله اللائقة به ومثلوه بخلقه، وكلاهما ضلالتان.

٦ـ رجع كثير من أئمة الكلام إلى مذهب السلف الصالح في الأسماء والصفات. وقد مر ذكر أمثلة وافية.

٧ـ أكثر أمة الإسلام وسوادهم الأعظم على مذهب السلف الصالح في الأسماء والصفات؛ لأنه الفطرة، فإذا سمع العامي آيات الصفات فهم منها المراد مع تنزيه ربه تعالى، وهذا محض مذهب السلف، أما من تلوّث بالتعلم على يد مبتدع فلا نسبة له في جماهير العامة المؤمنة.

٨ ـ عقيدة الأئمة الأربعة في هذا الباب الشريف هي عقيدة أهل السنة والجماعة، فالإمام أبو حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد عقيدتهم هي عقيدة السلف من الصحابة ومن سار على نهجهم.

أما المشتغلون بالتفقه على مذاهبهم من بعدهم فمنهم من هو على عقيدة السلف ومنهم من ابتدع، فمن هو على عقيدة السلف على سبيل المثال من الأحناف أبو جعفر الطحاوي صاحب عقيدة أهل السنة والجماعة، وشارح هذه العقيدة علي ابن أبي العز الحنفي، ومن الشافعية عبد الرحمن بن إسماعيل الصابوني مؤلف كتاب عقيدة السلف وأصحاب الحديث، والذهبي صاحب كتاب العلو، وابن كثير

=

=

صاحب التفسير، ومن المالكية عبد الله بن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة المشهورة، وأبو عمر الطلمنكي وأبو عمر بن عبد البر مؤلف التمهيد، ومن الحنابلة ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب. وغير هؤلاء كثير من المذاهب الأربعة وخارجها بحمد الله تعالى. (قطف الجني الداني ١١ـ ٢٩) للعباد. وهي جديرة بالقراءة، كما ذكر مؤلفات في العقيدة كتبها العلماء في هذا الباب وهي ملخصة عن القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى للعثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

فمنها ـ وسيكون تسلسل العناصر مبنياً على ما سبق ـ:

٩. أسماء الله كلها حسنى، أي بالغة في الحسن غايته.

١٠ـ أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف. أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني.

١١. أسماء الله تعالى إذا دلت على وصف متعدٍّ، تضمنت ثلاثة أمور:

أحدها: ثبوت ذلك الاسم لله عز وجل.

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها لله عز وجل.

الثالث: ثبوت حكمها ومقتضاها.

مثال ذلك: «السميع» يتضمن إثبات السمع اسمًا لله تعالى، وإثبات السمع صفة له، وإثبات حكمه ومقتضاه وهو أنه يسمع السر والنجوى.

وإن دلت على وصف غير متعدٍّ تضمنت أمرين:

أحدهما: ثبوت ذلك الاسم لله عز وجل.

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها لله عز وجل.

مثال ذلك: «الحي» يتضمن إثبات الحي اسمًا لله تعالى، وإثبات الحياة صفة له.

١٢ـ دلالة أسماء الله تعالى على ذاته وصفاته تكون بالمطابقة والتضمن والالتزام.

مثال ذلك: «الخالق» يدل على ذات الله، وعلى صفة الخلق بالمطابقة، ويدل على =

=

الذات وحدها وعلى صفة الخلق وحدها بالتضمن، ويدل على صفتي العلم والقدرة بالالتزام.

١٣.أسماء الله تعالى توقيفية، لا مجال للعقل فيها، فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسنة، فلا يزاد فيها ولا ينقص ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

١٤.أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معين بدليل: «**أو استأثرت به في علم الغيب عندك**» رواه أحمد وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٩)، أما حديث «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**» متفق عليه. فليس فيه سردها، إنما هي زيادة من الرواة (ومعنى إحصائها: حفظها ومعرفة معانيها والتعبد بمقتضاها).

١٥.الإلحاد في أسماء الله تعالى هو الميل بها عما يجب فيها. وقد سبق..

ومن القواعد في صفات الله تعالى:

١٦.صفات الله تعالى كلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

١٧.باب الصفات أوسع من باب الأسماء؛ لأن كل اسم متضمن لصفة (أو أكثر) ولأن من الصفات ما يتعلق بأفعال الله تعالى، وأفعاله لا منتهى لها، كما أن أقواله لا منتهى لها. فنصف الله تعالى بالصفات الواردة على الوجه الوارد ولا نسميه بها، فلا نقول: إن من أسمائه الجائي، والآتي، والآخذ، والممسك، والباطش ونحوها، وإن كنا نخبر بذلك عنه ونصفه به.

١٨.صفات الله تعالى تنقسم إلى قسمين: ثبوتية وسلبية. فالثبوتية: ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، كالحياة والعلم والقدرة والاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا والوجه واليدين والفرح والضحك والغضب ونحو ذلك. وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه. وأما الصفات

=

=

السلبية: فهي ما نفاها الله سبحانه عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، وكلها صفات نقص في حقه كالموت والنوم والجهل والنسيان والعجز والتعب ونحوها. فيجب نفيها مع إثبات ضدّها على الوجه الأكمل؛ وذلك لأن ما نفاه الله تعالى عن نفسه فالمراد به بيان انتفائه لثبوت كمال ضده، لا لمجرد نفيه؛ لأن النفي ليس بكمال إلا أن يتضمن ما يدل على الكمال. مثاله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] فنفي الموت عنه يتضمن كمال حياته.

١٩ـ الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية لأنها أدلّ على الكمال.

٢٠ـ الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين: ذاتية، وفعلية.

فالذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها، كالعلم والقدرة، والسمع، والبصر، والعزة، والحكمة، والعلو، والعظمة. ومنها الصفات الخبرية (أي علمت بالنص دون العقل) كالوجه، واليدين، والعينين.

والفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين، كالكلام، فباعتبار أصله صفة ذاتية لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلمًا، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية؛ لأن الكلام يتعلق بمشيئته، يتكلم متى شاء بما شاء.

وكل صفة تعلقت بمشيئته تعالى فإنها تابعة لحكمته، وقد تكون الحكمة معلومة لنا، وقد نعجز عن إدراكها.

٢١ـ صفات الله تعالى توقيفية لا مجال للعقل فيها، فلا يثبت لله تعالى من الصفات إلا ما دل الكتاب والسنة على ثبوته، ولدلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفة ثلاثة

=

٦ـ مشاهدة برّه وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته.

=

أوجه:

الأول: التصريح بالصفة كالعزة والقوة والرحمة واليدين والفرح ونحوها.

الثاني: تضمن الاسم لها، مثل: الغفور متضمن للمغفرة، والسميع متضمن للسمع ونحو ذلك.

الثالث: التصريح بفعل أو وصف دال عليها، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين العباد يوم القيامة، والانتقام من المجرمين ونحو ذلك.

ومن القواعد في أدلة الأسماء والصفات:

٢٢ـ الأدلة التي تثبت بها أسماء الله وصفاته هي الكتاب والسنة لا غير.

٢٣ـ الواجب في نصوص القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف، لاسيما نصوص الصفات حيث لا مجال للرأي فيها.

٢٤ـ ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار المعنى، ومجهولة لنا باعتبار الكيفية.

٢٥ـ ظاهر النصوص هو ما يتبادر إلى الذهن من المعاني، وهو يختلف بحسب السياق، وما يضاف إليه من الكلام، فالكلمة الواحدة يكون لها معنى في سياق، ومعنى آخر في سياق آخر، وتركيب الكلام يفيد معنى على وجه ومعنى آخر على وجه.

أخيرًا: من كان بالله أعرف كان منه أخوف، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

فلا منعم على الحقيقة ولا محسن إلا الله وحده لا شريك له، فهو المستحق للحب والحمد والشكر والعبادة. وتأمل قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، والنتيجة للمؤمن المتدبر: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

والتفكر في النعم يفضي إلى حب مسديها، فأول نعمة لله على العبد أن خلقه ولم يك شيئًا. وإذا أردت أن تعرف قدر نعمة فتأمل عدمها. كما قال أبو الطيب:

والضد يظهر حسنه الضد ... وبضدها تتميز الأشياء

فإذا تخيلت أنك معدوم عرفت قدر خلق الله لك.

ثم بعد أن خلقك لم يجعلك من صنف النبات أو الجبال أو الحيوان البهيم، فلو شاء لخلقك شجرة أو جبلاً أو حشرة أو كلبًا، أو حتى جنيًّا! ولكنه اصطفاك وجعلك من العنصر الكريم وهو الآدمي ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، فأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته، ثم أنزلك في السلالات البشرية، ثم بعث

إليك الرسل وأنزل لك الكتب، ووعدك برضاه والجنة إن أطعته.

ثم لما اختارك آدميًّا من أصناف خلقه أكرمك بجوهرة نفيسة هي العقل، ولو شاء لختم على عقلك بالبَلَهِ والجنون. ثم لما اصطفاك بالعقل هداك لدينه المرتضى، ولو شاء لطبعك كافرًا، ثم لما هداك للملة اصطفاك بأن جعلك من هذه الأمة المحمدية وهي خير أمة أخرجت للناس، وبعث إليك خير المرسلين، وجعل له من الكرامات والشفاعات ما لا يحيط به الفكر، إكرامًا له وفلاحًا لأمته، وأنزل إليك خير كتبه وهو القرآن العظيم المجيد الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ثم ركّب فيك القوى الحيوية والإدراكية والنفسانية والروحانية والجسدية فحيثما وليت شطر نعمة عاد بصرك خاشعًا منيبًا محبًّا مخبتاً جذلاً، قد نثر مولاك في أنحائك المنن، وأسبغ بين جوانحك العطايا، وأترع كأس حظّك بالمنح.

تأمل أصلك الترابي[١] وكيف رَكِبْتَ طبقًا عن طبق، فحفظتك يد القدرة

(١) أثبت العلم الحديث أن عناصر جسد الآدمي هي بذاتها عناصر تكوين التراب، فهو مكوّن من كربون وأكسجين وأيدروجين وفسفور وكبريت وآزوت وكالسيوم وبوتاسيوم وصوديوم وكلور ومغنيسيوم وحديد ومنجنيز ونحاس ويود وفلورين وكوبالت وزنك وسليكون وألمنيوم.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠]. وعندما تنتهي حياته بعد الانتشار، فإنه يعود ترابًا، فيتحلل إلى نفس العناصر كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] (عن =

الربانية، وصنعتك العناية الإلهية متنقلاً من صلب إلى صلب، نازلاً من ظهر إلى ظهر، ومن جيل إلى جيل، ومن قرن إلى قرن، وأنت تتردد بين أصلاب الرجال زمانًا بعد زمان وطورًا بعد طور، حتى أذن الحكيم العليم وشاء البارئ المصور أن تشرق شمس وجودك في هذا الزمان، فاختارك من مليارات غيرك من ماء أبيك(١) واصطفاك لتلتحم ببقية جسدك من بويضة أمك، حتى تستقر آمنًا وادعًا يُجري لك رزقك صبحًا ومساءً، محفوظًا بحفظ مولاك لك، مكلوءًا بعنايته، مستورًا بستره، حتى إذا تهيأت لحرث الأرض، واشتقت لسلوك السابلة، فتح لك المصاريع، ورفق بك حتى تنزل عن طبقك الوديع لتركب طبق الابتلاء.

ثم أحنى لك قلب والدتك، وصبَّ على قلبها الرحمة بك، والعطف عليك، والمحبة لك. ثم قلب اللطيف البر سبحانه غذاءك الدموي في رحم أمك إلى لبن سائغ مُغَذٍّ نافع، فنبتت عليه أطرافك، واغتذت به خلاياك، وطورًا بعد طور، ويومًا بعد يوم، يُنضج عقلك وجسدك، حتى إذا بلغت التكاليف أقام عليك الحجج والبراهين، وأعذر إليك كل الإعذار، فركّب عقلك وقدح زند فهمك، وأقام شواهد التوحيد والعبودية أمامك، ثم لطف بك فيسر لك العبادة، وهوّن عليك المسير، ودعمك بألطافه، وساق إليك مدده، وحبّبك لمخلوقاته الزاكية السامية ملائكته، فسخّرها لك داعية مستغفرة، ومدافعة ساهرة، وبسط لك

=

شرح الأسباب العشرة/ ١١٠).

(١) يذكر أن الدفقة الواحدة الطبيعية من الرجل تحوي قرابة ستة مليارات حيوان منوي!

العلم به بأن جعله في دفتر مسطور مكتوب في خزانة فطرتك.

فإذا رأيت الأثر تذكرت المسير، وإذا تأملت الأفلاك نطقت بحمد اللطيف الخبير، ثم ضاعف لك المثوبة فجعل الحسنة بعشر، إلى أضعاف كثيرة، بل جعل الهم بها حسنة كاملة، ووضع عليك حلمه، وأسبل عليك ستره، وقرب إليك أقرب من حبل الوريد بعلمه وإحاطته ولطفه وحفظه، وفتح لك باب التوبة، ودعاك إليها وناداك، فإن أجبته ودعوته لبّاك، فما تزال له في كل لحظة منن وألطاف عليك تترى، إن وقفت تريد إحصاءها لم توف منها شيئاً، ويكفيك عن إحصائها شكر مسديها وحمده ومحبته ورجاؤه وخوفه، وتقواه وعبادته حسب الطاقة والوسع، اللّهم لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، لك الحمد كله أوله وآخره، علانيته وسره، حق أنت أن تُحمد وأنت للحمد أهل، بل ليس له أهل سواك يا حميد.

٧ـ وهو من أعجبها: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

فالله تعالى يحب القلب المنكسر المنطرح على عتبة خشيته ورهبته ومحبته وهيبته. وكلما ازداد إيمان المرء وغزرت علومه بالله ذاق من ذلك الانكسار اللذيذ على روحه وقلبه بحسبه، فلا أسعد للقلب من انكساره بين يدي من يعلم أن الخير بحذافيره عنده، والتوفيق بحذافيره ملكه، والفلاح بحذافيره بأمره، وأضدادها كذلك فيحب ربه، ويرهبه، ويرجوه ويخافه، ويهابه ويأمنه، ويطمئن

إليه بسكون روح وسعادة قلب، ثم يتذكر قدر نفسه وتفريطها وتضييعها وعدم قيامها بحق العبودية فتضطرب جوانحه، وتجزع روحه، وتفيض مدامعه، ويلهج لسانه بالتوبة والاستغفار، والذل والانكسار، ولا يزال قلبه يراوح بين الهيبة والرهبة والخشوع والخشية، فبينا هو كذلك إذ حلت عليه الطمأنينة، ونزلت عليه السكينة، وغشيته الرحمة، فانغمس القلب الكسير في بحر الرجاء والحب وحسن الظن بمن مقاليد الأمور بيده، وأزمّة المصائر بأمره، فعاد القلب طربًا مسرورًا، فرحًا جذلاً، فهو يتقلب في أطوار عمره بين هيبة من سيده وخشية ووجل، وبين رجاء وحسن ظن وثقة بفضله وإجابة دعوته ويقين بصفات رحمته وعفوه ومغفرته، وبين حب وشوق يكاد يطير بروحه خارج جسده، شوقًا للقاء ربه وحبًّا فيه، فهو بين نظر لنفسه متذكرٍ تقصيرها وبين نظر لرحمة ربه معلقًا أسبابه إليها، وبين نظر في جمال وجلال ربه وإلهه ومولاه، فيكاد يغيب بهذا المشهود بقلبه عن الموجود خارجه، فيتذوق نعيم الجنة قبل أوان الحساب ويستحل طعم الإيمان وهو في دار العمل.

وهذا ما عناه رسول الله ﷺ بقوله الزكي: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا...**»(١)، وقوله السني: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...**»(٢) وهو الفرح المحمود الذي قال الله عز وجل فيه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] وهي جنة الدنيا

---

(١) مسلم (٣٤).

(٢) متفق عليه.

على الحقيقة، التي من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وهي العتبة لجنة الخلد ونعيم الأبد.

وهذه الكسرة التي تسبق الفرح لابد لقلب المؤمن منها، فهي تطير وساوس العجب وتهدم مشيدات الكبر في القلب، فلا يزال الموفق خافض الطرف لربه غاض البصر حياءً منه وإشفاقًا من ذنبه، وهيبة وجلالاً له، وهي ما عناها أحد السلف حين سئل: أيسجد القلب؟ قال: نعم. يسجد سجدة لا يقوم منها إلا يوم القيامة. أي حين يعطى منشور السعادة كتابًا بيمينه، ويبشّر على رؤوس الأشهاد: لقد سعد فلان بن فلان سعادة لا شقاء بعدها. وكسرة القلب تقطع شهوة الحرام من نياطه، فهو معها كالمنجل مع النبات المتسلق على كريم الأشجار، فكلما برز غصن قطعه حتى تأخذ شجرة الإيمان في قلبه حظها من كل خير.

ولابد للقلب من هذه الكسرة ضرورة، فهي سوط السائق لنفسه الأمارة حتى تصير لوامة، ثم تكمل بأن تدخل نادي النفوس المطمئنة، وهذا محتاج لطول مراس وحزم في السير، ولبصيرة وحكمة وعلم في السلوك، حتى لا تهلك الراحلة، فيكون كالمنبتّ لا ظهرًا أبقى ولا طريقًا قطع.

لهذا قال الإمام ابن القيم عليه شآبيب الرحمة والرضوان ما معناه: القلب في سيره إلى الله تعالى كالطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فإن قطع الرأس هلك الطائر، وإن كسر الجناح سقط فصار عرضة لكل صائد وكاسر، والرجاء حادٍ والخوف سائق. ولابد منهما جميعًا مع المحبة حتى يصل السالك بغيته. نسألك اللّهم بوجهك الكريم رضوانك والجنة، ونعوذ به من سخطك

والنار، ووالدينا والمسلمين.

هذا ولنبينا ﷺ وللسلف في كسرة القلوب والخشوع والحياء والهيبة أمر عظيم، فنبينا صلوات الله وسلامه عليه كان يبكي من خشية الله، ويكثر الاستغفار، ويسمع لصدره في صلاته أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وكان أخشى الخلق لله، وأعلمهم به. وكان أبو بكر أسيفًا، فإذا صلى وقرأ القرآن بكى وأبكى، وكان على خدّي عمر خطان أسودان من البكاء، وكان يسمع الآية فيمرض حتى يعاد، وكان عثمان من أشد الناس حياء من الله، حتى إن الملائكة لتستحي منه لحيائه من الله تعالى، وكان علي كثير الحزن دائم التواضع، كذلك الأصحاب رضوان الله عليهم. وكان ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع، وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلا جذع أو حائط.

وقال ميمون بن مهران: ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتًا في صلاته قط، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدتها، وإنه لفي المسجد يصلي فما التفت. وكان أهل بيته إذا دخل المنزل سكتوا فإذا قام إلى الصلاة تكلموا وضحكوا.

قلت: وهذا الخشوع في الصلاة من آثار الخشوع في سائر الأوقات، فأعمال القلب يرفد بعضها بعضًا، وقرح الفؤاد الكسير لربه يجعل العمر محراب عبادة، فللناس شأن وللموفق شأن.

«وكان علي بن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إذا توضأ اصفر لونه، فقيل له: ما هذا الذي

يعتادك عند الوضوء؟ قال: أتدرون بين يدي من أقوم»[١]؟ والآخر لمّا أراد أن يلبّي تلعثم وبكى، فسئل، فقال: أخشى أن أقول: لبيك اللّٰهم لبيك، فيقال: لا لبيك ولا سعديك![٢].

٨ـ الخلوة بالله عز وجل وقت نزوله إلى السماء الدنيا، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم خَتْمُ ذلك بالاستغفار والتوبة.

قال الله عز وجل مثنيًا على أهل القيام: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

إن لإحياء الليل بالصلاة والدعاء والاستغفار والتلاوة شأنًا لا يعرفه إلا الموفقون ممن أُلهموه، وله حلاوة لا يصفها إلا من ذاق شهدها بلسان قلبه وروحه، ولكن حالنا عن ذلك بعيد والله المستعان. ولقد كتب الأوائل والأواخر في هذا الموضوع العظيم لجلالته وأهميته وضرورة العبد له إذا أراد سلوك سابلة القانتين[٣].

(١) مختصر منهاج القاصدين (٢٦).

(٢) وسيأتي مزيد في باب الخشوع إن شاء الله تعالى.

(٣) وسألخص بعض تلك المعاني ووسائل حصولها من كتابَيْ (رهبان الليل) لسيد بن حسين العفاني، و(كيف نتحمس لقيام الليل) لمحمد بن صالح آل عبد الله، =

وصلاة الليل معينة على الإخلاص. قال قتادة: كان يقال: ما سهر الليل منافق(١). وهي سبيل لجمعية القلب على الله ولمِّ شمله. قال الرافعي: إن الخطأ الأكبر أن تنظّم الحياة من حولك وتترك الفوضى في قلبك(٢).

سيبدو لكم في مضمر القلب والحشا سريرة حب يوم تبدو السرائر

وهي سبب لعلوِّ الهمة، وسموِّ الإرادة، قال ابن القيم: مثل القلب، مثل الطائر، كلما علا؛ بَعُدَ عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات(٣)، وكما قال أحد الصالحين موصيًا: دقائق الليل غالية، فلا ترخصوها بالغفلة. وهي سبب لتزكية النفوس، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] فقد أقسم الله تعالى أحد عشر قسمًا متتاليًا ما وردت في القرآن إلا في هذا الموطن أن الفلاح في تزكية النفوس(٤).

ولابد من علو همة لنيل المنى، وإتعاب الجسد في سبيل الفلاح كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الراحة للرجال غفلة، وأتعبُ الناس من جلّت مطالبه. وقال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤]. قال

=

ومؤلفات أخرى سأشير لها في الهامش إن شاء الله تعالى.

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٣٨).

(٢) وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي (٢/ ٤٤).

(٣) الجواب الكافي (٧٠).

(٤) رهبان الليل، العفاني (٣٦).

الزجاج: بات الرجل يبيت؛ إذا أدركه الليل، نام أو لم ينم(١).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٨]، قال الطبري: قال ابن عباس: لما نزلت أول المزمل، كانوا يقومون نحوًا من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها سنة.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يثبت القرآن في الصدر، ولا يسهل حفظه، وييسر فهمه إلا القيام به في جوف الليل(٢)، وقد أمر الله بترتيل كلامه. وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾: بيّنه تبيينًا. وقرأ عليه علقمة - وكان حسن الصوت - فقال: رتّل فداك أبي وأمي، فإنه زين القرآن. وعن مجاهد: ترسل فيه ترسيلاً(٣). وقال القرطبي: أي لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه على مهل وبيان مع تدبر المعاني(٤). وقال الحافظ ابن حجر: أي اقرأه مترسلاً بتبيين الحروف وإشباع الحركات.

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٤٧٨٧).

(٢) تتمة أضواء البيان، عطية محمد سالم (٦١٣).

(٣) مختصر قيام الليل للمقريزي.

(٤) القرطبي (١٠/ ٦٨٢٩).

وروى مسلم من حديث حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «أن النبي ﷺ كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها»(١).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تهذوا القرآن هذّ الشِّعر، ولا تنثروه نثر الدقل، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة»(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، قال الحسن: العمل به. وقال كذلك: ثقيلاً في الميزان يوم القيامة. وقال قتادة: تثقل والله فرائضه وحدوده. وقيل: ثقل الوحي(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ قال ابن جرير: كل ساعة من ساعات الليل ناشئة، ونقلها عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وبعضهم حفظها بما بعد العشاء وبعضهم بما قبله(٤)، وبعضهم خصه بما كان قيامًا من نوم.

---

(١) الفتح (٣/ ٢٨).

(٢) عن محاسن التأويل (١٦/ ٥٩٥٩).

(٣) مختصر قيام الليل (١٠) بتصرف. وكلام ابن عباس: «نشأ: قام بالحبشية» البخاري (٣/ ٢٧) والجمهور على أنه ليس في القرآن شيء بغير العربية، وقالوا: ما ورد من ذلك فهو من توافق اللغتين. قلت: والحبشية لها جذور لغوية شبيهة بالعربية القديمة، بل بعض لغاتها عربية سامية في الأصل.

(٤) السابق (١٤، ١٥).

وقوله: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ قال ابن عباس: أدنى أن تفهموا القرآن. وقال قتادة: أثبت في الخير، وأبلغ في الحفظ.

والمعنى: أشد مواطأة للسان على القلب لصفاء الذهن من الصوارف المشغلات.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: أصوب للقراءة وأثبت للقول لأنه زمان التفهم كما قاله قتادة ومجاهد[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. قال ابن جرير: ومن الليل فاسهر به بعد نومة يا محمد بالقرآن، ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾: خالصة دون أمتك. والتهجد: التيقظ والسهر بعد نومة الليل[(٢)]. ومعنى نافلة: أي زيادة، وقيل: إنها كانت واجبة عليه ﷺ[(٣)].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، قال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام. وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: من أحبّ أن يهوّن عليه طول الوقوف يوم القيامة

(١) فتح الباري (٣/ ٢٩٢٢٧).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١٤١).

(٣) ينظر: فتح الباري (٣/ ٦).

فليره الله في ظلمة الليل ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة[(١)].

وقال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]. قال القرطبي: السيما: العلامة، أي لاحت علامات التهجد بالليل وأمارات السهر. وقال الحسن: إذا رأيتهم تحسبهم مرضى وما هم بمرضى. وقال سفيان: يصلون بالليل، فإذا أصبحوا رؤي ذلك في وجوههم. وقال الضحاك: هي الصفرة. وقال عكرمة: هو السهر يُرَى في وجوههم[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠] قال ابن جرير: هي الصلاة بالليل من أي وقت صلى[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦] قال القرطبي: يعني التطوع بالليل، قاله ابن حبيب، وقال ابن عباس وسفيان: كل تسبيح في القرآن فهو صلاة[(٤)].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٧،٨]، قال محمد ابن نصر: قال عبد الله ـ أي ابن مسعود ـ: إذا فرغت من المكتوبة فانصب في قيام الليل[(٥)].

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٠٠).

(٢) القرطبي (٦١١٣، ٦١١٤).

(٣) جامع البيان (٢٦/ ١٨٠).

(٤) القرطبي (٦٩٤١).

(٥) مختصر قيام الليل (٢٠).

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] وقال: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨] وعن نافع أن ابن عمر كان يحيي الليل صلاة، ثم يقول: يا نافع هل أسحرنا؟ فيقول: لا. فيعاود الصلاة، فإذا قلت: نعم، قعد يستغفر ويدعو حتى يصبح(١). وقال ابن زيد: السَّحَر هو سدس الليل الأخير(٢).

وقال الحسن: مَدُّوا الصلاة إلى السحر، ثم استغفروا(٣).

قال شيخ الإسلام: ما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع في غيرها من العبادات، كما عرفه أهل القلوب الحية، والهمم العالية(٤).

امنع جفونك أن تذوق مناماً ... واذر الدموع على الخدود سجاماً
واعلم بأنك ميت ومحاسب ... يا من على سخط الجليل أقاما
لله قوم أخلصوا في حبه ... فرضي بهم واختصهم خدّامًا(٥)
قوم إذا جنّ الظلام عليهمُ ... باتوا هنالك سجدًا وقيامًا

---

(١) الطبري (٦/ ٢٦٤).
(٢) القرطبي (٢/ ١٢٨٠).
(٣) رهبان الليل، العفاني (١/ ١٣٣).
(٤) الفتاوى (١٦/ ٥١٢).
(٥) لا أعلم لتسمية العابد بالخادم أصلاً في الشريعة، وقد وجدت في تراجم أهل الكتاب لكتابهم المحرف استخدامهم لهذا اللفظ. فالأولى إبدال هذا اللفظ (الخادم - الخدمة) بـ(العابد - العبادة) أو (المطيع - الطاعة) ونحو ذلك.

خمص البطون من التعفف ضمّرًا   لا يعرفون سوى الحلال طعامًا

وقال ﷺ في قصة رؤيا ابن عمر: «**نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل**»(١).

قال مسلم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً.

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال ﷺ: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يَضرِبُ على كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلّت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلّى انحلّت عقدة، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»(٢).

قال الحافظ ابن حجر: قال القرطبي: الحكمة في الاقتصار على الثلاث أن أغلب ما يكون انتباه الإنسان في السحر، فإن اتفق له أن يرجع إلى النوم ثلاث مرات لم تَنْقَضِ النومة الثالثة إلا وقد ذهب الليل(٣). وقال النووي في قوله: «**طيب النفس**»: معناه لسروره بما وفقه الله الكريم من الطاعة، ووعده به من ثوابه، مع ما يبارك له في نفسه وتصرّفه في كل أموره، مع ما زال عنه من عقد الشيطان وتثبيطه(٤).

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) الفتح (٣/ ٢٦).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ٤٣٥).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**»(١).

وعن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن النبي ﷺ استيقظ ليلة فقال: «**سبحان الله، ماذا أنزل الليلة من الفتنة! ماذا أنزل من الخزائن! من يوقظ صواحب الحجرات؟ يا رُبَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة**»(٢). وأصحاب الحُجَر هن أزواجه ﷺ. وفي الحديث إيقاظ الرجل أهله للعبادة والصلاة. وعن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ طرقهُ وفاطمة ليلة فقال: «**ألا تصليان؟**»(٣)، وكل هذا امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: ١٣٢].

وعن عبد الله بن سلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، فكنت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، قال: فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: «**أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»(٤).

وعن أبي مالك الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها، أعدّها الله لمن أطعم الطعام،**

---

(١) رواه مسلم.

(٢) البخاري.

(٣) متفق عليه.

(٤) أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٤٢).

وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام»(١). وفي حديث اختصام الملأ الأعلى: **«والدرجات: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام»**(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: **«أحب الصلاة إلى الله صلاةُ داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يومًا، ويفطر يومًا»**(٣). قال الحافظ: وإنما صارت هذه الطريقة أحبَّ من أجل الأخذ بالرفق للنفس التي يخشى منها السآمة، وقد قال ﷺ: **«إن الله لا يملّ حتى تملّوا»** والله يحب أن يديم فضله وإحسانه(٤).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك في كل ليلة»**(٥).

---

(١) ابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٢٥٤).

(٢) أحمد والترمذي وقال: سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا فقال: هذا حديث حسن صحيح، وقد صححه الإمام أحمد وابن رجب وجمع طرقه في «اختيار الأولى»، وكان آخر الأمرين من الألباني القول بصحته كما في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٦٥).

(٣) متفق عليه.

(٤) الفتح (٣/ ٢٢).

(٥) مسلم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: **«ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له»**(١). وفي رواية: **«فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر»**(٢). وقال ﷺ: **«ينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا لثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ أو يسألني فأعطيه، ثم يبسط يديه فيقول: من يقرض غير عدوم ولا ظلوم»**(٣).

وقال ﷺ: **«عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد»**(٤).

قوله: «**قبلكم**» قال المناوي: أي هي عادة قديمة واظب عليها الكمّل السابقون، واجتهدوا في إحراز فضلها. وقوله: «**وقربة إلى الله تعالى**»: نكّر القربة إيذانًا بأن لها شأنًا، وأتى بالجملة ولم يعطف قربة على دأب الصالحين لتدل باستقلالها على مزيد تقريب.

قال ابن الحاج: وفي القيام من الفوائد: أنه يحط الذنوب كما يحط الريح

---

(١) متفق عليه.

(٢) مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفيه فضيلة الصدقة في آخر الليل لأنها أخفى عن العيون وأدعى للإخلاص، وأوفق للوقت المبارك حال النزول الإلهي.

(٤) الترمذي والحاكم وقال: على شرط البخاري. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨).

العاصف الورق الجاف من الشجرة، وينوّر القبر، ويحسّن الوجه، ويذهب الكسل وينشط البدن، وترى الملائكة موضعه من السماء كما يتراءى الكوكب الدري لنا من السماء[(١)]، وقد أثبت الطب الحديث فوائد قيام الليل الصحية سواء على القلب أو الرئتين أو الجهاز العصبي أو العضلي أو الهضمي أو العظمي[(٢)].

وفي حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: **«ألا أدلّك على أبواب الخير؟ الصوم جنّة، والصدقة تُطفئُ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦]»**[(٣)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: **«شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزّه استغناؤه عمّا في أيدي الناس»**[(٤)].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال ﷺ: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»**[(٥)]. قال المنذري في الترغيب: والمراد بالحسد هنا: الغبطة، وهي تمني مثل ما للمُغْبط، وهذا لا بأس به، وله نيته، فإن تمنى زوالها عنه فذلك حرام، وهو

---

(١) فيض القدير للمناوي (٤/ ٣٥١).

(٢) انظر: رهبان الليل (١/ ١٧٥-١٧٧).

(٣) جزء من حديث رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح، والحاكم وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠١٢).

(٤) أخرجه الخطيب في التاريخ، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٩٠٣).

(٥) متفق عليه.

الحسد المذموم.

وعن ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربِّ إني منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه. يقول القرآنُ: رب منعته النومَ بالليل فشفّعني فيه، فيُشفَّعان**»(١).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجب ربنا من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه، من بين أهله وحِبِّهِ(٢) إلى صلاته، فيقول الله جل وعلا: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين حِبِّه وأهله إلى صلاته، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي...**»(٣).

وتأمل قوله: «**ثار**» وما فيها من العزيمة وعلو الهمة، ولم يقل «قام».

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة يحبهم الله، ويضحك إليهم ويستبشر بهم؛ الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل، فإما أن يُقتل، وإما أن ينصره الله ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه. والذي له امرأة حسنة وفراش ليّن حسن، فيقوم من الليل، فيقول: يَذَرُ شهوته ويذكرني، ولو شاء رقد. والذي إذا كان في سفر وكان معه ركب، فسهروا،**

---

(١) أحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٧٦).

(٢) وفي لفظ أحمد: حيّه.

(٣) أحمد وأبو يعلى والطبراني وابن حبان وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦٢٦).

ثم هجعوا، فقام من السحر في ضراء وسراء»(١).

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الرجل من أمتي يقوم من الليل يعالج نفسه إلى الطَّهور، وعليه عُقَدٌ، فإذا وضَّأ يديه انحلت عقدة، وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة، وإذا مسح رأسه انحلت عقدة، وإذا وضأ رجليه انحلت عقدة. فيقول الله عز وجل للذين وراء الحجاب: انظروا إلى عبدي هذا يعالج نفسه، ويسألني، ما سألني عبدي هذا فهو له»**(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها فصلّى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء»**(٣).

وقال ﷺ: **«من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين جميعًا كتاب ليلتئذٍ من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات»**(٤).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ذكرتُ القيام، فقال بعضهم: إن رسول الله

---

(١) الطبراني في الكبير وحسنه، كذلك حسنه الألباني في صحيح الترغيب (٦٢٥).

(٢) أحمد وابن حبان واللفظ له. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٦٢٧).

(٣) أحمد وأبو داود. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٨٨).

(٤) أبو داود والحاكم عن أبي سعيد وأبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٠٦).

ﷺ قال: **«نصفه، ربعه، فُوَاقَ حلب ناقة، فواق حلب شاة»**(١). والفواق: هو وقت ما بين الحلبتين حتى يعود حليب جديد إلى الضرع.

وعن ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمئة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين»**(٢).

وقال ﷺ: **«من قرأ بمئة آية في ليلة كُتب له قنوت ليلة»**(٣).

وعن فضالة بن عبيد وتميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: **«من قرأ عشر آيات في ليلة كتب له قنطار من الأجر، والقنطار خير من الدنيا وما فيها، فإذا كان يوم القيامة، يقول ربك عز وجل: اقرأ وارق بكل آية درجة، حتى ينتهي إلى آخر آية معه، يقول الله عز وجل للعبد: اقبض، فيقول العبد بيده: يا رب! أنت أعلم. يقول: بهذه الخلد، وبهذه النعيم»**(٤).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذُكر عند النبي ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح، قال: **«ذلك رجل بال الشيطان في أذنه، أو قال: أذنيه»**(٥).

---

(١) أبو يعلى. وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٦٢٣).

(٢) أبو داود وابن خزيمة، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٤٢).

(٣) أحمد والنسائي عن تميم، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٤٤).

(٤) ابن خزيمة والحاكم، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٤٣).

(٥) متفق عليه.

وعن عبد الله بن قيس قال: قالت عائشة: «لا تدع قيام الليل، فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه، وكان إذا مرض أو كسل صلّى قاعدًا»(١).

وقال أبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: سألت رسول الله ﷺ: أي قيام الليل أفضل؟ قال: **«جوف الليل الغابر، أو نصف الليل، وقليل فاعله»**(٢).

وقد كان لنبينا ﷺ هدي جميل في القيام. فمن ذلك قوله ﷺ: **«إن أخًا لكم لا يقول الرفث»**(٣) يعني ابن رواحة القائل:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقعُ
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وكان يأمر ويُرغّب في النوم على طهارة، فعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: **«من بات طاهرًا بات في شِعَاره(٤) ملك، فلا يستيقظ إلا قال الملك: اللّهم اغفر لعبدك فلان، فإنه بات طاهرًا»**(٥).

---

(١) أبو داود وابن خزيمة، وقال الألباني: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) أحمد. وقال الساعاتي في الفتح الرباني: سنده جيد (٤/ ٢٣٥).

(٣) البخاري في كتاب التهجد.

(٤) الشعار: الملابس التي تلي الجسد مباشرة (ملابس داخلية)، أما الدثار فهي الخارجية، وفي الصحيح: **«الأنصار شعار والناس دثار»**.

(٥) ابن حبان. وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١/ ٣٤٥).

وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يبيت على ذكر طاهرًا فيتعارّ من الليل، فيسألُ الله خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه**»(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**طهروا هذه الأجساد، طهركم الله، فإنه ليس عبد يبيت طاهرًا إلا بات معه في شعاره ملك، لا يتقلب ساعة من الليل إلا قال: اللّٰهم اغفر لعبدك، فإنه بات طاهرًا**»(٢).

وإذا صدقت النية تم الأجر بحمد الله، فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبلغُ به النبي ﷺ قال: «**من أتى فراشه، وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل، فغلبته عينه حتى أصبح، كُتب له ما نوى، وكان نومه صدقةً عليه من ربه**»(٣). فإن فاتته من الليل قضاها في الضحى شفعًا.

ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه أذكار النوم، والنوم على الشق الأيمن، ووضع الكف اليمنى تحت الخد الأيمن، والنوم على فراش خشن، ويذكر ربه إذا تضوّر(٤) في منامه، وحين يقوم من النوم، فإذا قام شاص فاه بالسواك(٥)، ومسح النوم عن وجهه بيده ثم نظر إلى السماء وذكر الله وقرأ العشر الخواتم من سورة آل عمران. ثم تطهر الطهارة التامة، ونصب قدميه لربه وصلى ما كتب له.

---

(١) أبو داود. وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١/ ٣٤٥).

(٢) الطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١/ ٣٤٥).

(٣) النسائي وابن ماجه. وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١/ ٣٤٦).

(٤) تضوّر: تلوّى وتقلب ظهرًا لبطن، والمراد انقلب على شقه الآخر، وهذا من جمعيته على الذكر، فيذكر ربه عند أدنى أدنى انتباهه.

(٥) متفق عليه.

أما وقت قيامه ﷺ فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما كنا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ في الليل مصليًّا إلا رأيناه، ولا نشاء أن نراه نائمًا إلا رأيناه»(١).

وعن مسروق قال: سألت عائشة عن عمل رسول الله ﷺ، فقالت: «كان يحب الدائم» قال: قلت: أيَّ حينٍ كان يصلي؟ فقالت: «كان إذا سمع الصارخ قام فصلى»(٢)، والصارخ الديك، وغالبًا يكون صراخه في منتصف الليل. وقال ابن عباس: نصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان ﷺ ينام أول الليل ويحيي آخره»(٣).

وكان أحيانًا يصلي بين المغرب والعشاء، وهي الناشئة عند بعضهم، فعن عبيد مولى رسول الله ﷺ «أن النبي ﷺ كان يصلي بين المغرب والعشاء»(٤).

أما عدد ركعاته بالليل ﷺ فكانت غالبًا بين الإحدى عشرة ركعة والثلاث عشرة ركعة(٥). وقال لمن سأله عن صلاة الليل: **«مثنى مثنى»**(٦).

---

(١) النسائي، وصححه الألباني والأرناؤوط. مشكاة المصابيح (٨٦).

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) أحمد والطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٣٨).

(٥) وانظر تفصيل ذلك والجمع بين الأحاديث: شرح النووي لصحيح مسلم (٣٨٨) باب صلاة الليل والوتر. وانظر: رهبان الليل (١/ ٢١٣-٢١٨).

(٦) متفق عليه.

وقال القاضي عياض: لا خلاف أنه ليس في ذلك حد لا يزاد عليه ولا ينقص منه، وأن صلاة الليل من الطاعات التي كلما زاد فيها زاد الأجر[(١)].

أما الكيفيات التي صلى بها رسول الله ﷺ صلاة الليل والوتر فقد فصّلها الألباني رحمه الله تعالى كالتالي:

١ـ يصلي ثلاث عشرة ركعة، يفتتحها بركعتين خفيفتين[(٢)].

٢ـ يصلي ثلاث عشرة ركعة، منها ثمانية يسلم بعد كل ركعتين، ثم يوتر بخمس لا يجلس ولا يسلم إلا في الخامسة.

٣ـ يصلي إحدى عشرة ركعة، يسلم بعد كل ركعتين، ثم يوتر بواحدة.

٤ـ يصلي إحدى عشرة ركعة، أربعًا بتسليمة واحدة، ثم أربعًا مثلها، ثم ثلاثًا[(٣)].

---

(١) المنهاج للنووي (٣٨٨).

(٢) ويرجح الألباني أن الركعتين الخفيفتين في أول قيام الليل هي سنة العشاء. ويكون على ذلك أنه يقوم بعدما ينام. وليس هذا بظاهر والله أعلم.

(٣) واستدل بحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا المتفق عليه: «ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا». قال النووي في قولها: «يصلي أربعًا»: «وهذا لبيان الجواز، وإلا فالأفضل التسليم من كل ركعتين، وهو المشهور من فعل الرسول ﷺ، وأمره بالصلاة مثنى مثنى» اهـ.

قلت: ونازع بعضهم في ذلك وقال: إن معنى قولها: «يصلي أربعًا» أي إنه يطيل =

٥ـ يصلي إحدى عشرة ركعة، منها ثمان ركعات لا يقعد فيها إلا في الثامنة، يتشهد ويصلي على النبي ﷺ، ثم يقوم ولا يسلّم، ثم يوتر بركعة، ثم يسلّم، ثم يصلي ركعتين وهو جالس(١).

٦ـ يصلي تسع ركعات، منها ست ركعات لا يقعد إلا في السادسة منها، يتشهد ويصلي على النبي ﷺ، ثم يقوم ولا يسلّم، ثم يوتر بركعة، ثم يسلّم، ثم يصلي ركعتين وهو جالس(٢).

=

الاثنتين ثم يسلم ثم يقوم فيطيل الاثنتين، ثم يستريح، ثم يقوم لمثل ذلك، فكانت الراحة هي الفاصل بين الأربع والأربع، وبهذا يلتئم مع أمره بالصلاة مثنى مثنى.

قلت: وهو الأحوط.

(١) كما في حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا «ثم يصلي ركعتين بعدما يسلّم وهو قاعد» رواه مسلم.

(٢) ملخص عن صلاة التراويح للألباني (٨٧ـ ٩٤).

وفي المسند بسند حسن من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يصلي ركعتين بعد الوتر وهو جالس، يقرأ فيهما ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ و﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (٥/ ٢٦٠). وفيه عن عائشة وأم سلمة بنحوه. قال ابن القيم في الزاد بعد ذكرها: وقد أشكل هذا على كثير من الناس فظنوه معارضًا لقوله ﷺ: **«اجعلوا آخر صلاتكم من الليل وترًا»** (مسلم ٧٥١). وأنكر مالك هاتين الركعتين، وقال أحمد: لا أفعله، ولا أمنع من فعله.

والصواب أن يقال: إن هاتين الركعتين تجريان مجرى السنة، وتكميل الوتر، فإن الوتر عبادة مستقلة، ولاسيما إن قيل بوجوبه، فتجري الركعتان بعده مجرى سنة المغرب من المغرب، فإنها وتر النهار، والركعتان بعدها تكميل لها، فكذلك

=

ثم قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ بعد تفصيل ما سبق: هذه هي الكيفيات التي كان رسول الله ﷺ يصلي بها صلاة الليل والوتر، ويمكن أن يُزاد عليها أنواع أخرى، وذلك بأن ينقص من كل نوع من الكيفيات المذكورة سابقًا ما شاء من الركعات، وحتى يجوز له أن يقتصر على ركعة واحدة، لقوله ﷺ: **«فمن شاء فليوتر بخمس، ومن شاء فليوتر بثلاث، ومن شاء بواحدة»**.

وكان ﷺ يطيل صلاة الليل، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صليت مع رسول الله ﷺ فأطال حتى هممت بأمر سوء. قيل: وما هممت به؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه[1].

وقال ﷺ: **«أفضل الصلاة طول القنوت»**[2].

=

الركعتان بعد وتر الليل. اهـ.

قلت: وسبب توقف بعض أهل العلم فيه أنه ليس بقوة الأحاديث القولية أو العملية في قيام الليل، فمن قال به؛ فلأنه قد صحّ سنده لديه، ورآه مكملاً لغيره، ولا مضارة بينهما. ومن توقف أو أنكر فلأن الحديث لم يصح لديه، أو أنه رأى الجمع عن طريق إلحاق الركعتين بالفجر، فيجعلهما السنة القبلية، ويكدّر على ذلك أنه صلاها جالسًا، وبعد الوتر مباشرة، ولو كانت للفجر لذكر الرواة ذلك، وأحاديث ذكر سنة الفجر لم تذكر وصلها بالوتر. فالأظهر - والله أعلم - العمل بها أحيانًا لصحة سندها، وتركها أحيانًا لعدم ذكر غالب الرواة لها.

(١) متفق عليه.

(٢) مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي حديث حذيفة لما صلى معه أنه قرأ بالبقرة والنساء وآل عمران في ركعة[١].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وجد[٢] رسول الله ﷺ ذات ليلة شيئًا فلما أصبح قيل: يا رسول الله، إن أثر الوجع عليك لبيّن. قال: «**إني على ما ترون بحمد الله قد قرأت السبع الطوال**»[٣].

وكان ﷺ لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث[٤].

---

(١) والمائدة أو الأنعام. شك شعبة. رواه أبو داود، وصححه الألباني في المشكاة (١٢٠٠).

(٢) أي وجد الألم والتعب أو المرض. وليس هو الوجد الصوفي بحال!

(٣) أخرجه الحاكم وقال: على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. قلت: وقد صح أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قام بالقرآن كله في ركعة. قال ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد اختبرت ذلك فصليت العشاء ليلة، ثم قمت بالقرآن في ركعة وختمه حين اقترب الفجر. ذكره تلميذه الشيخ علي الشبل.

(٤) كما في حديث عائشة عند ابن سعد (١/ ٣٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٤٢). ويرى بعضهم أن الزمن الفاضل والمكان الفاضل يختلف فيه الحال، ورجح ذلك ابن رجب، وقال ابن باز: بل هو على عمومه، فلا يفقه القرآن من قرأه في أقل من ثلاث. وهذا على سبيل الأفضلية مع جواز قراءته في أقل من يوم كما كان الشافعي يختم القرآن في رمضان مرتين في كل يوم وليلة. وكان جدي محمد الدميجي رَحِمَهُ اللَّهُ في شبابه يختم في رمضان كل يوم وليلة ختمتين. وهذه المسألة مبنية على أفضلية كثرة الحروف أم عمق التدبر، والأظهر أن الثانية أولى ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ
=

وكان ﷺ يرتل القرآن ترتيلاً كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. قال ابن عباس: بينه تبيينًا.

كما في حديث حفصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «كان رسول الله ﷺ يقرأ بالسورة حتى تكون أطول من أطول منها»(١).

وحديث أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا حيث نعتت قراءته بأنها مفسرة حرفًا حرفًا(٢).

وكان يمد قراءته مدًّا، كما في حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «كان يمدُّ مدًّا»(٣).

وكان يقف على رؤوس الآي. كما روت أم سلمة أنه «كان يُقطّعُ قراءته آية آية، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم يقف، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم يقف»(٤).

وقد سار على هديه صحابته وأتباعه، قال علقمة: صليت مع ابن مسعود من أول الليل إلى انصرافه من الفجر، فكان يرتل ولا يرتجع، ويسمع من في المسجد. وقرأ علقمة على عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وكان حسن الصوت فكأنه عَجِلَ. قال: رتّل فداك أبي وأمي فإنه زَيْنُ القرآن. وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لا تهذّوا القرآن كهذ الشِّعر، ولا تنثروه كنثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحرّكوا به القلوب، ولا يكن

=

مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩] هذا إذا تساوى الزمنان.

(١) مسلم.

(٢) الترمذي والنسائي. وصححه الألباني في المشكاة (١٢١٠).

(٣) البخاري.

(٤) أحمد والترمذي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٧٦).

هم أحدكم آخر السورة.

وعن أبي مليكة: سافرت مع ابن عباس من مكة إلى المدينة وهم يسيرون إليها، وينزلون بالليل، فكان ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يقوم نصف الليل، فيقرأ القرآن حرفًا حرفًا. ثم حكى قراءته، قال: ثم يبكي حتى نسمع له نشيجًا.

وكان محمد بن سيرين يحب الترتيل في القرآن ويقول: هذه الأصوات التي تقرأونها محدثة. وقيل لمجاهد: رجل يعجل في القراءة، وآخر يترسل. قال: إن أحب الناس إلى الله أعقلهم عنه. وقال مجاهد وطاووس: كانوا يستحبون إذا قام الرجل من الليل أن يمد صوته بالآية من القرآن[(١)].

وكان ﷺ يُرجِّعُ صوته أحيانًا بالقراءة، فعن أم هانئ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: «كنت أسمع صوت النبي ﷺ وهو يقرأ، وأنا نائمة على فراشي يرجّع القرآن»[(٢)].

قال الحافظ: الترجيع: هو تقارب ضروب الحركات في القراءة، وأصله الترديد. وترجيع الصوت: ترديده في الحلق. وقال: والذي يظهر أن في الترجيع قدرًا زائدًا على الترتيل، وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: معنى الترجيع: تحسين التلاوة لا ترجيع الغناء، لأن القراءة بترجيع الغناء تنافي الخشوع الذي هو مقصود التلاوة. وقال المناوي: وذلك ينشأ غالبًا عن أريحية وانبساط[(٣)].

---

(١) مختصر قيام الليل (٥٦، ٥٧).

(٢) أحمد وأهل السنن بسند صحيح.

(٣) رهبان الليل (١/ ٢٣٨).

وقال القاضي عياض: أجمع العلماء على تحسين الصوت بالقراءة وترتيلها[١].

وفي حديث عبد الله بن مغفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتفق على صحته: «قرأ النبي ﷺ عام الفتح في مسير له سورة الفتح على راحلته، فرجّع في قراءته. قال معاوية: لولا أني أخاف أن يجتمع الناس علي لحكيت لكم قراءته. وقد حكى عبد الله بن مغفل ترجيعه عليه الصلاة والسلام بمد الصوت في القراءة، نحو: آآآ. قال ابن الأثير: وهذا حصل منه والله أعلم يوم الفتح لأنه كان راكبًا فحدث الترجيع في القراءة.

وكان ﷺ بأبي هو وأمي ونفسي وولدي يبكي في صلاته، فعن عبد الله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء»[٢]. وحدثت عنه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قام ليلة من الليالي فقال: **«يا عائشة! ذريني أتعبد لربي»** قالت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرك. قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، فلم يزل يبكي حتى بَلَّ حجره، ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرض. وجاء بلال يؤذن بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: **«أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت علي الليلة آيات، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾** [آل عمران: ١٩٠][٣].

(١) المنهاج للنووي (٢/ ٤٤٨).
(٢) أبو داود والترمذي بسند صحيح.
(٣) رواه أبو الشيخ وابن حبان وصححه الألباني.

وكان ﷺ يسرّ بالقراءة في صلاة الليل تارة ويجهر بها تارة، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما سُئلت: كيف كانت قراءة النبي ﷺ بالليل أيجهر أم يسر؟ قالت: كل ذلك قد كان يفعل، ربما أسرّ بالقراءة وربما جهر»[١].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كانت قراءة النبي ﷺ ربما يسمعه من في الحجرة، وهو في البيت»[٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كانت قراءة النبي ﷺ بالليل يرفع طورًا ويخفض طورًا»[٣].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به»**[٤]. قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: جاءت أحاديث بفضيلة رفع الصوت بالقراءة، وآثار بفضيلة الإسرار، قال العلماء: والجمع بينهما أن الإسرار أبعد من الرياء، فهو أفضل من في حق من يخاف، فإن لم يخف فالجهر أفضل بشرط ألا يؤذي غيره من مُصَلٍّ أو نائم أو غيرهما.

وكان من هديه السؤال والتعوّذ والتسبيح في القراءة كما مرّ في حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وربما قام بآية واحدة، كما في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام النبي ﷺ

---

(١) الترمذي والنسائي والحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) أبو داود والترمذي واللفظ له، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢٧٥).

(٣) أبو داود والحاكم وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٤٣).

(٤) متفق عليه.

حتى أصبح بآية، والآية ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][(١)][(٢)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب الصلاة كلامًا نفيسًا أنقله بطوله مع شيء من الاختصار: «قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] فأمرنا بإقامتها، وهو الإتيان بها قائمة تامة الركوع والسجود والأذكار، وقد علق الله سبحانه الفلاح بخشوع المصلي في صلاته، فمن فاته الخشوع لم يكن من أهل الفلاح، ويستحيل حصول الخشوع مع العجلة والنقر قطعًا، وكلما ازداد طمأنينة ازداد خشوعًا، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقال لموسى: ﴿فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤] فلن تكاد تجد ذكر الصلاة في موضع من التنزيل إلا مقرونًا بإقامتها، فالمصلون في الناس قليل، ومقيم الصلاة منهم أقل القليل، فالعاملون يعملون الأعمال المأمور بها على الترويج تحلّة القسم، ويقولون: يكفينا أدنى ما يقع عليه الاسم، ولو علم هؤلاء أن الملائكة تصعد بصلاتهم فتعرضها على الرب جل جلاله، بمنزلة الهدايا التي يتقرب بها الناس إلى ملوكهم وكبرائهم. فليس من عَمِدَ إلى أفضل ما يقدر عليه فيزيّنه ويحسّنه ما استطاع، ثم يتقرب به إلى من يرجوه ويخافه، كمن يعمد إلى أسقط ما

(١) أحمد والنسائي والحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الأرناؤوط في تعليقه على الزاد (١/ ٣٣١).

(٢) وانظر: زاد المعاد (١/ ٣٢٢-٣٤١)، والصلاة لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

عنده وأهونه عليه، فيستريح منه، ويبعثه إلى من لا يقع عنده بموقع. وليس من كانت الصلاة ربيع قلبه، وحياة روحه، وقرة عينه، وجلاء حزنه، وذهاب همّه وغمّه، ومفزعًا له إليه في نوائبه ونوازله، كمن هي سحت لقلبه، وقيد لجوارحه، وتكليف له، وثقل عليه، فهي كبيرة على هذا، وقرة عين وراحة لذاك.

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦] فإنما كبرت على غير هؤلاء لخلو قلوبهم من محبة الله تعالى وتكبيره وتعظيمه والخشوع له، وقلة رغبتهم فيه، فإن حضور العبد في الصلاة وخشوعه فيها، وتكميله لها، واستفراغه وسعه في إقامتها وإتمامها على قدر رغبته في الله. قال الإمام أحمد: «إنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة، فاعرف نفسك يا عبد الله، واحذر أن تلقى الله تعالى ولا قدر للإسلام عندك، فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك»(١).

وليس حظ القلب العامر بمحبة الله وخشيته والرغبة فيه وإجلاله وتعظيمه من الصلاة، كحظ القلب الخالي الخراب من ذلك، فإذا وقف الاثنان بين يدي الله في الصلاة، وقف هذا بقلب مخبت خاشع له، قريب منه، سليم من معارضات السوء، قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة، وسطع فيه نور الإيمان، وكشف عنه حجاب النفس ودخان الشهوات، فيرتع في رياض معاني القرآن، وخلط فيه بشاشة

---

(١) طبقات الحنابلة (١/ ٣٥٤).

الإيمان بحقائق الأسماء والصفات وعلوّها وجمالها وكمالها الأعظم، وتفرد الرب سبحانه بنعوت جلاله، وصفات كماله، فاجتمع همّه على الله، وقرّت عينه به، وأحسّ بقربه من الله قربًا لا نظير له، ففرّغ قلبه له، وأقبل عليه بكليته، وهذا الإقبال منه بين إقبالين من ربه، فإنه سبحانه أقبل عليه أولاً فانجذب قلبه إليه وإقباله، فلما أقبل على ربه حظي منه بإقبال آخر أتم من الأول.

وههنا عجيبة من عجائب الأسماء والصفات، تحصل لمن تفقّه قلبه في معاني القرآن، وخالط بشاشة الإيمان بها قلبه، بحيث يرى لكل اسم وصفة موضعًا من صلاته ومحلاً منه، فإذا انتصب قائمًا بين يدي الرب تبارك وتعالى شاهد بقلبه قيوميته، وإذا قال: الله أكبر؛ شاهد كبرياءه، وإذا قال: سبحانك اللّهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك[1]، شاهد بقلبه ربًّا منزهًا عن كل عيب، سالمًا من كل نقص، محمودًا بكل حمد، فحمده يتضمن وصفه بكل كمال، وذلك يستلزم براءته من كل نقص تبارك اسمه، فلا يذكر على قليل إلا كثره، ولا على خير إلا أنماه وبارك فيه، ولا على آفة إلا أذهبها، ولا على شيطان إلا رده خاسرًا داحرًا، وكمال الاسم من كمال مسماه، فإذا كان هذا شأن اسمه الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء، فشأن المسمّى أعلى وأجل، ومعنى: تعالى جدك: أي ارتفعت عظمتك، وجلّت فوق كل عظمة وعلا شأنه على كل شأن، وقهر سلطانه كل سلطان، فتعالى جده أن يكون معه شريك في ملكه وربوبيته، أو في إلهيته، أو في أفعاله، أو في صفاته، كما قال مؤمن الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ

(١) مسلم (٢٩٩) موقوفًا على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣] فكم في هذه الكلمات من تجلّ لحقائق الأسماء والصفات على قلب العارف بها، غير المعطل لحقائقها.

وإذا قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقد آوى إلى ركنه الشديد، واعتصم بحوله وقوته من عدوه الذي يريد أن يقطعه عن ربه، وباعده عن قربه، ليكون أسوأ حالاً. فإذا قال: الحمد لله رب العالمين، وقف هنيهة يسيرة ينتظر جواب ربه له بقوله: «**حمدني عبدي**» فإذا قال: الرحمن الرحيم، انتظر الجواب بقوله: «**أثنى علي عبدي**» فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ انتظر جوابه: «**مجدني عبدي**»(١). فيا لذة قلبه، وسرور نفسه بقول ربه: «**عبدي**» ثلاث مرات! فوالله لولا ما على القلوب من دخان الشهوات وغيم النفوس لاستطيرت فرحًا وسرورًا بقول ربها وفاطرها ومعبودها: حمدني عبدي، وأثنى علي عبدي، ومجدني عبدي.

ثم يكون لقلبه مجال من شهود هذه الأسماء الثلاثة التي هي أصول الأسماء الحسنى، وهي: الله، والرب، والرحمن، فشاهد قلبه من ذكر اسم الله تبارك وتعالى إلهًا معبودًا موجودًا مخوفًا، لا يستحق العبادة غيره، ولا تنبغي إلا له، قد عنت له الوجوه، وخضعت له الموجودات، وخشعت له الأصوات ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

وشاهد من ذكر اسمه ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قيومًا قام بنفسه، وقام به كل شيء، فهو قائم على كل نفس بخيرها وشرها، قد استوى على عرشه، وتفرّد بتدبير ملكه، فالتدبير كله بيديه، ومصير الأمور كلها إليه، فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده على أيدي ملائكته بالعطاء والمنع، والخفض والرفع، والإحياء والإماتة، والقبض والبسط، وكشف الكروب، وإغاثة الملهوفين، وإجابة المضطرين ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، ولا مبدل لكلماته، تعرج الملائكة والروح إليه، وتعرض الأعمال أول النهار وآخره عليه، فيقدّر المقادير، ويوقت المواقيت، ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها، قائمًا بتدبير ذلك كله وحفظه ومصالحه.

ثم يشهد عند ذكر اسم ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ جل جلاله، ربًّا محسنًا إلى خلقه بأنواع الإحسان، متحببًا إليهم بصنوف النعم، وأوسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأوسع كل مخلوق نعمة وفضلاً، فوسعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته إلى كل حي، فبلغت رحمته حيث بلغ علمه، فاستوى على عرشه برحمته، وخلق خلقه برحمته، وأنزل كتبه برحمته، وأرسل رسله برحمته، وشرع شرائعه برحمته، وخلق الجنة برحمته، والنار أيضًا برحمته، فإنها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنته، ويطهّر بها أدران الموحدين من أهل معصيته، وسجنه الذي يسجن فيه أعداءه من خليقته، فتأمل ما في أمره ونهيه ووصاياه ومواعظه من الرحمة البالغة، والنعمة السابغة، وما في حشوها من الرحمة والنعمة، فالرحمة هي السبب المتصل منهم،

فمنهم إليه العبودية، ومنه إليهم الرحمة، ومن أخص مشاهد هذا الاسم؛ شهود المصلي نصيبه من الرحمة الذي أقام به بين يدي ربه، وأهّله لعبوديته ومناجاته، وأعطاه ومنع غيره، وأقبل بقلبه وأعرض بقلب غيره، وذلك من رحمته.

فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فهنا شهد المجد الذي لا يليق بسوى الملك الحق المبين، فيشهد ملكًا قاهرًا قد دانت له الخليقة، وعنت له الوجوه، وذلت لعظمته الجبابرة، وخضع لعزته كل عزيز. فيشهد بقلبه مليكًا على عرش السماء مهيمنًا، لعزته تعنو الوجوه وتسجدُ.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ففيها سرّ الخلق والأمر والدنيا والآخرة، وهي متضمنة لأجلّ الغايات وأفضل الوسائل، فأجلّ الغايات عبوديته، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبود يستحق العبادة إلا هو، ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجلّ الوسائل، وقد أنزل الله سبحانه وتعالى مئة كتاب، وأربعة كتب، جمع معانيها في أربع، وهي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وجمع معانيها في القرآن، وجمع معانيه في المفصّل(١)، وجمع معانيها في الفاتحة، وجمع معانيها في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التوحيد، وهما توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وتضمنت التعبد باسم الرب واسم الله، فهو يُعبد بألوهيته ويستعان بربوبيته ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته، فكان أول السورة ذكر اسمه: الله والرب

---

(١) الأرجح أنه من سورة (ق) إلى سورة الناس.

والرحمن تطابقًا لأجل المطالب من عبادته وإعانته وهدايته، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله، لا يعين على عبادته سواه، ولا يهدي سواه.

ثم يشهد الداعي ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ شدة فاقته وضرورته إلى هذه المسألة التي ليس شيء أشد فاقة وحاجة منه إليها البتة، فإنه محتاج إليه في كل نفس وطرفة عين، وهذا المطلوب من هذا الدعاء لا يتم إلا بالهداية إلى الطريق الموصل إليه سبحانه، والهداية فيه، وهي هداية التفصيل وخلق القدرة على الفعل وإرادته وتكوينه وتوفيقه لإيقاعه على الوجه المرضي المحبوب للرب سبحانه وتعالى، وحفظه عليه من مفسداته حال فعله وبعد فعله، ولما كان العبد مفتقرًا في كل حال إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره، من أمور قد أتاها على غير الهداية فهو يحتاج إلى التوبة منها، وأمور هُدي إلى أصلها دون تفصيلها، أو هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو يحتاج إلى إتمام الهداية فيها ليزداد هدى، وأمور هو يحتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها بالمستقبل مثلما حصل له في الماضي، وأمور هو خال من اعتقاد فيها فهو يحتاج إلى الهداية فيها، وأمور لم يفعلها فهو يحتاج فعلها على وجه الهداية، وأمور قد هُدي إلى الاعتقاد الحق والعمل والصواب فيها فهو محتاج إلى الثبات عليها، إلى غير ذلك من أنواع الهدايات، فرضى الله سبحانه عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله مرات متعددة في اليوم والليلة(١).

ثم بيّن أن أهل هذه الهداية هم المختصون بنعمته دون المغضوب عليهم،

(١) فللهداية ثلاث مراتب: العلم ثم العمل ثم الثبات عليه حتى الموافاة، وكلها مجتمعة في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾.

وهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، ودون الضالين، وهم الذين عبدوا الله بغير علم. فالطائفتان اشتركتا في القول على الله في خلقه وأمره وأسمائه وصفاته بغير علم، فسبيل المُنعم عليه مغايرة لسبيل أهل الباطل كلها علمًا وعملاً.

فلما فرغ من هذا الثناء والدعاء والتوجيه، شُرع له أن يطبع على ذلك بطابع من التأمين(١) يكون كالخاتم له وافق فيه ملائكة السماء، وهذا التأمين من زينة الصلاة، كرفع اليدين الذي هو زينة الصلاة، واتباع للسنة، وتعظيم أمر الله، وعبودية اليدين، وشعار الانتقال من ركن إلى ركن.

ثم يأخذ في مناجاة ربه بكلامه، واستماعه من الإمام بالإنصات وحضور القلب وشهوده، وأفضل أذكار الصلاة ذكر القيام، وأحسن هيئة المصلي هيئة القيام، فخصت بالحمد والثناء والمجد وتلاوة كلام الرب جل جلاله، ولهذا نهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود(٢)؛ لأنهما حالتا ذل وخضوع وتطامن وانخفاض، ولهذا شرع فيهما من الذكر ما يناسب هيئتهما، فشرع للراكع أن يذكر عظمة ربه في حال انخفاضه هو وتطامنه وخضوعه، فأفضل ما يقول الراكع على الإطلاق: سبحان ربي العظيم، فإن الله سبحانه أمر العباد بذلك، وعين المبلغ عنه السفير بينه وبين عباده هذا المحل لهذا الذكر لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] قال: «**اجعلوها في ركوعكم**»(٣)، وأبطل كثير من أهل

---

(١) ومعنى «آمين»: أي اللّهم استجب.

(٢) كما في مسلم (١/ ٣٤٨).

(٣) أحمد (٤/ ١٥٥)، أبو داود (١/ ٣٨٥) وفي سنده مقال.

العلم صلاة من تركها عمدًا وأوجب سجود السهو على من سها عنها[(١)]، وهذا مذهب الإمام أحمد ومن وافقه من أئمة الحديث والسنن، وسرّ الركوع تعظيم الرب جل جلاله بالقلب والقالب والقول، ولهذا قال ﷺ: «**وأما الركوع فعظموا فيه الرب**»[(٢)].

ثم يرفع رأسه عائدًا إلى أكمل هيئاته، وجعل شعار هذا الركن حمدًا لله والثناء عليه وتحميده، فافتتح هذا الشعار بقول المصلي: «ربنا ولك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد»[(٣)]. أي قدر ملء العالم العلوي والسفلي والفضاء الذي بينهما، فهذا الحمد قد ملأ الخلق الموجود، وهو يملأ ما يخلقه الرب تبارك وتعالى بعد ذلك مما يشاؤه، فحمده قد ملأ كل موجود، وملأ ما سيوجد، ثم أتبع ذلك بقوله: «أهل[(٤)] الثناء والمجد»، فعاد الأمر بعد الركعة إلى ما افتتح به الصلاة قبل الركعة من الحمد والثناء والمجد، ثم أتبع ذلك بقوله: «أحق ما قال العبد» تقريرًا لحمده وتمجيده والثناء عليه، وأن ذلك أحق ما نطق به العبد. ثم أتبع ذلك بالاعتراف والعبودية، وأن ذلك حكم عام لجميع العبيد «وكلنا لك عبد» ثم عقب ذلك قوله: «لا مانع لما

---

(١) ولا يقوم غيره من الأذكار مقامه، ومال إليه شيخ الإسلام، كذلك (سبحان ربي الأعلى) في السجود.

(٢) مسلم (١/ ٢٠٧).

(٣) متفق عليه.

(٤) وتصح بالضم والفتح.

أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك»[(١)]. ويقول ذلك بعد انقضاء الصلاة أيضًا، فيقوله في هذين الموضعين اعترافًا بتوحيده، وأن النعم كلها منه، وهذا يتضمن أمورًا:

أحدها: أنه المنفرد بالعطاء والمنع.

الثاني: أنه إذا أعطى لم يطق أحد منع من أعطاه، وإذا منع لم يطق أحد إعطاء من منعه.

الثالث: أنه لا ينفع عنده، ولا يخلّص من عذابه، ولا يدني من كرامته جدود[(٢)] بني آدم وحظوظهم من الملك والرئاسة والغنى وطيب العيش وغير ذلك، إنما ينفعهم عنده التقرب إليه بطاعته وإيثار مرضاته.

ثم ختم ذلك بقوله: «اللّٰهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد»[(٣)]، كما افتتح به الركعة في أول الاستفتاح، كما كان يختم الصلاة بالاستغفار[(٤)] وكان الاستغفار في أول الصلاة ووسطها وآخرها، فاشتمل هذا الركن على أفضل الأذكار وأنفع الدعاء من حمده وتمجيده والثناء عليه، والاعتراف له بالعبودية، والتوحيد، والتنصّل إليه من الذنوب والخطايا، فهو ذكر مقصود، في ركن

(١) مسلم (١/ ١٩٤).

(٢) الجد: الحظ والغنى.

(٣) متفق عليه.

(٤) النسائي (١/ ١٦٧) بسند صحيح.

مقصود، ليس بدون الركوع والسجود.

ثم يكبّر ويخر لله ساجدًا غير رافع يديه؛ لأن اليدين تنحطان للسجود كما ينحط الوجه، فهما ينحطان لعبوديتهما، فأغنى ذلك عن رفعهما، ولذلك لم يشرع رفعهما عند رفع الرأس من السجود، لأنهما يرفعان معه كما يوضعان معه، وشرع السجود على أكمل الهيئة وأبلغها في العبودية، وأعمها لسائر الأعضاء، بحيث يأخذ كل جزء من البدن بحظه من العبودية.

والسجود سرّ الصلاة، وركنها الأعظم، وخاتم الركعة، وما قبله من الأركان كالمقدمات له، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد[(١)]، وأفضل الأحوال له حال يكون فيها أقرب إلى الله، ولهذا كان الدعاء في هذا المحل أقرب إلى الإجابة، ولما خلق الله سبحانه العبد من الأرض كان جديرًا بألا يخرج عن أصله، بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطبع والنفس بالخروج عنه، فإن العبد لو ترك لطبعه ودواعي نفسه لتكبر وأَشِرَ، وخرج عن أصله الذي خرج منه، ولوثب على حق ربه من الكبرياء والعظمة فنازعه إياهما! وأمر بالسجود خضوعًا لعظمة ربه وفاطره، وخشوعًا له، وتذللاً بين يديه، وانكسارًا له، فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلل ردًّا له إلى حكم العبودية، ويتدارك ما حصل له من الهفوة والغفلة والإعراض الذي خرج به عن أصله، فتمثل له حقيقة التراب الذي خلق منه، وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه وهو الوجه. وقد صار أعلاه أسفله خضوعًا بين يدي ربه الأعلى، وخشوعًا له، وتذللاً لعظمته، واستكانة لعزته،

---

(١) مسلم (١/ ٣٥٠).

وهذا غاية خشوع الظاهر، فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مذللة للوطء بالأقدام، واستعمله فيها، ورده إليها، ووعده بالإخراج منها، فهي أمه وأبوه وأصله وفصله، فضمته حيًّا على ظهرها، وميتًا في بطنها، وجُعلت له طهورًا ومسجدًا.

فأمر بالسجود إذ هو غاية خشوع الظاهر، وأجمع العبودية لسائر الأعضاء، فيعفّر وجهه في التراب استكانة وتواضعًا وخضوعًا، وإلقاء باليدين، وقال مسروق لسعيد بن جبير: ما بقي شيء يرغب فيه إلا أن نعفر وجوهنا في هذا التراب. وكان النبي ﷺ لا يتقي الأرض بوجهه قاصدًا، بل إذا اتفق له ذلك فعله، ولذلك سجد في الماء والطين(١).

ولهذا كان من كمال السجود الواجب أنه يسجد على الأعضاء السبعة: الوجه واليدين والركبتين وأطراف القدمين(٢)، ومن كماله الواجب أو المستحب مباشرة مصلاه بأديم وجهه، واعتماده على الأرض، بحيث ينالها ثقل رأسه، وارتفاع أسافله عن أعاليه، فهذا من تمام السجود، ومن كماله أن يكون على هيئة يأخذ فيها كل عضو من البدن بحظه من الخضوع، فيجافي بطنه عن فخذيه، وفخذيه عن ساقيه، ويجافي عضديه عن جنبيه، ولا يفرشهما على الأرض ليستقل كل عضو منه بالعبودية. ولذلك إذا رأى الشيطان ابن آدم ساجدًا لله اعتزل ناحية يبكي ويقول: يا ويله، أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فعصيت، فلي

(١) متفق عليه.

(٢) مسلم (١/ ٣٥٥).

النار[١].

لذلك أثنى الله على الذين يخرون سجدًا عند سماع كلامه، وذم من لا يقع ساجدًا عنده، ولذلك كان قول من أوجبه قويًّا في الدليل.

ولما كانت العبودية غاية كمال الإنسان، وقربه من الله بحسب نصيبه من عبوديته، وكانت الصلاة جامعة لمتفرق العبودية، متضمنة لأقسامها، كانت أفضل أعمال العبد، ومنزلتها من الإسلام بمنزلة عمود الفسطاط منه[٢]، وكان السجود أفضل أركانها الفعلية وسرّها الذي شرعت لأجله، وكان تكرره في الصلاة أكثر من تكرر سائر الأركان، وجعله خاتمة الركعة وغايتها، وشرع فعله بعد الركوع، فإن الركوع توطئة له ومقدمة بين يديه، وشرع فيه من الثناء على الله ما يناسبه، وهو قول العبد: «سبحان ربي الأعلى» فهذا أفضل ما يقال فيه، ولم يرد عن النبي ﷺ أمره في السجود بغيره حيث قال: **«اجعلوها في سجودكم»**[٣]، وكان وصف الرب بالعلو في هذه الحالة في غاية المناسبة لحال الساجد الذي قد انحط إلى السفل على وجهه، فذكر علو ربه في حال سقوطه. وهو كما ذكر عظمته في حال خضوعه في ركوعه ونزه ربه عما لا يليق به مما يضاد عظمته وعلوه.

ثم لما شرع السجود بوصف التكرار لم يكن بدّ من الفصل بين السجدتين، ففصل بينهما بركن مقصود، شرع فيه من الدعاء ما يناسبه ويليق به، وهو سؤال

---

(١) مسلم (١/ ٨٧).

(٢) الترمذي (١٠/ ١٠١) بسند صحيح.

(٣) أحمد (٤/ ١٥٥)، أبو داود (٨٦٩)، ابن ماجه (١/ ٣٨٧)، وسنده ضعيف.

العبد المغفرة والرحمة والهداية والعافية والرزق[١]، فإن هذه تتضمن جلب خير الدنيا والآخرة، ودفع شر الدنيا والآخرة، فالرحمة تحصّل الخير، والمغفرة تقي الشر، والهداية توصل إلى هذا وهذا، والرزق إعطاء ما به قوام البدن من الطعام والشراب، وما به قوام الروح والقلب من العلم والإيمان. وجعل جلوس الفصل محلاً لهذا الدعاء لما تقدمه من طلب رحمة الله، والثناء عليه، والخضوع له، فكان هذا وسيلة للداعي ومقدمة بين يدي حاجته.

فهذا الركن مقصود كذلك الدعاء فيه، فهو ركن وضع للرغبة وطلب العفو والمغفرة والرحمة، فإن العبد لما أتى بالقيام والحمد والثناء والمجد ثم أتى بالخضوع وتنزيه الرب وتعظيمه، ثم عاد إلى الحمد والثناء، ثم كمل ذلك بغاية التذلل والخضوع والاستكانة، بقي سؤال حاجته واعتذاره، فشرع له أن يتمثل في الخدمة فيقعد قعود العبد الذليل، جاثيًا على ركبتيه كهيئة الملقي نفسه بين يدي سيده راغبًا راهبًا معتذرًا إليه، مستعديًا إليه على نفسه الأمارة بالسوء، ثم شرع له تكرير هذه العبودية مرة بعد مرة إلى إتمام الأربع[٢].

كما شرع له تكرير الذكر مرة بعد مرة لأنه أبلغ في حصول المقصود، وأدعى إلى الاستكانة والخضوع، فلما أكمل ركوع الصلاة وسجودها وقراءتها وتسبيحها

---

(١) أبو داود (١/ ٣٧٧) بسند حسن. كذلك أهل السنن إلا النسائي، بلفظ: «**اللّٰهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، واجبرني، وعافني، وارزقني، وارفعني**» وعند أبي داود «**رب اغفر لي، رب اغفر لي**».

(٢) أي في الصلاة الرباعية.

وتكبيرها، شُرع له أن يجلس في آخر صلاته جلسة المنخشع المتذلل المستكين، جاثيًا على ركبتيه، ويأتي في هذه الجلسة بأكمل التحيات وأفضلها، وعوضًا عن تحية المخلوق للمخلوق إذا واجهه أو دخل عليه، فإن الناس يحيون ملوكهم وأكابرهم بأنواع التحيات التي يتحببون بها إليهم، فلما جاء الإسلام أُمروا أن يجعلوا أطيب تلك التحيات وأزكاها وأفضلها لله، فالتحية هي تحية من العبد للحي الذي لا يموت، وهو سبحانه أولى بتلك التحيات من كل ما سواه، فإنها تتضمن الحياة والبقاء والدوام، ولا يستحق أحد هذه التحيات إلا الحي الباقي الذي لا يموت ولا يزول ملكه.

وكذلك قوله: «**والصلوات**» فإنه لا يستحق أحد الصلاة إلا الله عز وجل، والصلاة لغيره من أعظم الكفر والشرك به. وكذلك قوله: «**والطيبات**» فهي صفة الموصوف المحذوف، أي: الطيبات من الكلمات والأفعال والصفات والأسماء لله وحده، فهو طيّب وأفعاله طيّبة، وصفاته أطيب شيء، وأسماؤه أطيب الأسماء، واسمه الطيب، ولا يصدر عنه إلا طيب، ولا يصعد إليه إلا طيب، ولا يقرب منه إلا طيب، فكله طيب، وإليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الطيب يعرج إليه، فالطيبات كلها له، ومضافة إليه، وصادرة عنه، ومنتهية إليه.

قال عنها ﷺ: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**»[(١)]، ولا يجاوره من عباده إلى الطيبون، كما يقال لأهل الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾

---

(١) مسلم (٢/ ٧٠٣).

[الزمر: ٧٣]، وقد أحكم سبحانه شرعه وقدره أن الطيبين للطيبات، فإذا كان سبحانه هو الطيب على الإطلاق، فالكلمات الطيبات والأفعال الطيبات، والصفات الطيبات، والأسماء الطيبات، كلها له سبحانه، لا يستحقها أحد سواه، بل ما طاب شيء قط إلا بطيبته سبحانه، فطيب كل ما سواه من آثار طيبته، ولا تصلح هذه التحية الطيبة إلا له.

ولما كان السلام من أنواع التحية، وكان المسلم داعيًا لمن يحييه، وكان الله سبحانه هو الذي يُطلب منه السلام، لا يُطلب له السلام، فإنه السلام ومنه السلام؛ شرع أن يطلب منه السلام لعباده الذين اختصهم بعبوديته، وارتضاهم لنفسه، وشرع أن يبدأ بأكرمهم عليه وأحبهم إليه، وأقربهم منه منزلة في هذه التحية.

ثم ختمت هذه التحية بالشهادتين اللتين هما مفتاح الإسلام، فشرع أن يكون خاتمة الصلاة، فدخل فيها بالتكبير والحمد والثناء والتمجيد وتوحيد الربوبية والإلهية، وختمها بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

وشرعت هذه التحية في وسط الصلاة إذا زادت على ركعتين تشبيهًا لها بجلسة الفصل بين السجدتين، وفيها مع الفصل راحة للمصلي لاستقباله الركعتين بنشاط وقوة، بخلاف ما إذا والى بين الركعات، ولهذا كان الأفضل في النفل مثنى مثنى[١] وإن تطوع بأربع جلس في وسطهن.

---

(١) حديث «**صلاة الليل مثنى مثنى**» متفق عليه من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وجعلت كلمات التحيات في آخر الصلاة بمنزلة خطبة الحاجة أمامها، فإن المصلي إذا فرغ من صلاته جلس جلسة الراغب الراهب، يستعطي من ربه ما لا غنى به عنه، فشرع له أمام استعطائه كلمات التحيات مقدمة بين يدي سؤاله، ثم يتبعها بالصلاة على من نالت أمته هذه النعمة على يده، فكأن المصلي توسل إلى الله سبحانه بعبوديته ثم بالثناء عليه والشهادة له بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، ثم الصلاة على رسوله، ثم قيل له: تخيّر من الدعاء أحبه إليك، فذاك هو الحق الذي عليك، وهذا هو الحق الذي لك[1]، وشرعت الصلاة على آله مع الصلاة عليه تكميلاً لقرّة عينه بإكرام آله والصلاة عليهم، وأن يصلي عليه وعلى آله كما صلى على إبراهيم وآله، والأنبياء كلهم بعد إبراهيم من آله، ولذلك كان المطلوب لرسول الله ﷺ صلاة مثل الصلاة على إبراهيم وعلى جميع الأنبياء بعده وآله المؤمنين، فلهذا كانت هذه الصلاة[2] أكمل ما يصلى على رسول الله ﷺ بها وأفضل.

فإذا أتى المصلي بها أُمر أن يستعيذ بالله من مجامع الشر كله، فإن الشر إما عذاب في الآخرة وإما سببه، فليس الشر إلا العذاب وأسبابه، والعذاب نوعان: عذاب في البرزخ، وعذاب في الآخرة، وأسبابه الفتنة، وهي نوعان: كبرى وصغرى، فالكبرى: فتنة الدجال، وفتنة الممات، والصغرى: فتنة الحياة التي يمكن

---

(١) منة من الله تعالى وفضلاً كما وضحه المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في مواطن عددًا:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عُذّبوا فبعدله، أو نُعّموا ... فبفضله وهو الكريم الواسعُ

(٢) وتسمى الصلاة الإبراهيمية، ولها صيغ في الصحيحين.

تداركها بالتوبة، بخلاف فتنة الممات وفتنة الدجال، فإن المَفْتون فيهما لا يتداركهما.

ثم شرع له من الدعاء ما يختاره من مصالح دنياه وآخرته، والدعاء في هذا المحل قبل السلام أفضل من الدعاء بعد السلام، وأنفع للداعي، وهكذا كانت عامة أدعية النبي ﷺ كلها كانت في الصلاة من أولها إلى آخرها. فكان يدعو في الاستفتاح أنواعًا من الدعاء، وفي الركوع، وبعد رفع رأسه منه، وفي السجود. وبين السجدتين، وفي التشهد قبل التسليم.

وعلّم الصديق دعاءً يدعو به في صلاته(١) وعلّم الحسن بن علي دعاءً يدعو به في قنوت الوتر(٢)، وكان إذا دعا لقوم أو على قوم جعله في الصلاة بعد الركوع(٣)، وسرّ ذلك أن المصلي قبل سلامه في محل المناجاة والقربة بين يدي ربه، فسؤاله في هذا الحال أقرب إلى الإجابة من سؤاله بعد انصرافه من بين يديه، وقد سئل رسول الله ﷺ: أي الدعاء أسمع؟ فقال: «**جوف الليل الآخر، وأدبار الصلوات المكتوبة**»(٤)، ودبر الصلاة جزؤها الأخير كدبر الحيوان ودبر الحائط،

---

(١) متفق عليه من حديث أبي بكر قال: «**قل: اللّهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**».

(٢) أبو داود (٢/ ٦١٩)، والنسائي (٣/ ٢٧٥)، وابن ماجه (١٠/ ٣٧٢)، وصحّح سنده أحمد شاكر. والدعاء هو «**اللّهم اهدني فيمن هديت...**».

(٣) متفق عليه. عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع» لفظ البخاري.

(٤) الترمذي (٥/ ٥٢٦)، والنسائي (٥١/ ١٠٨) بسند صحيح.

وقد يُراد دبرها بعد انقضائها بقرينة تدل عليه[١]، كقوله: «**يسبحون الله ويحمدونه ويكبرونه دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين**»[٢]، فهنا دبرها بعد الفراغ منها.

ثم ختمت بالتسليم، وجعل تحليلاً لها يخرج به المصلي منها، كما يخرج بتحليل الحج منه، وجعل هذا التحليل دعاء الإمام لمن وراءه بالسلامة التي هي أصل الخير وأساسه، فشرع لمن وراءه أن يتحلل بمثل ما تحلل به الإمام، وفي ذلك دعاء له وللمصلين معه بالسلام، ثم شرع ذلك لكل مصلٍّ وإن كان منفردًا، فلا أحسن من هذا التحليل للصلاة، وكما أنه لا أحسن من كون التكبير تحريمًا لها، فتحريمها تكبير الرب تعالى، الجامع لإثبات كل كمال له، وتنزيهه عن كل نقص وعيب، وإفراده، وتخصيصه بذلك، وتعظيمه وإجلاله، فالتكبير يتضمن تفاصيل أفعال الصلاة وأقوالها وهيئاتها. فالصلاة من أولها إلى آخرها تفصيل لمضمون «الله أكبر»، وأي تحريم أحسن من هذا التحريم المتضمن للإخلاص والتوحيد، وهذا التحليل المتضمن للإحسان إلى إخوانه المؤمنين، فانفتحت بالإخلاص، وتمت بالإحسان»[٣].

---

(١) فإن عدمت القرينة عدنا للأصل وهو آخر الصلاة قبل التسليم، ومن ذلك الدعاء الذي علّمه رسول الله ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه حين قال: «**لا تدعنّ في دبر كل صلاة أن تقول: اللّهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**» أبو داود (٥/ ٣٩) وهو اختيار شيخ الإسلام.

(٢) متفق عليه.

(٣) الصلاة وحكم تاركها، ابن القيم (١٤٦-١٥٩) باختصار.

صفة صلاة النبي ﷺ

قال الإمام ابن باز رحمه الله تعالى: «هذه كلمات موجزة في بيان صفة صلاة النبي ﷺ، أردت تقديمها إلى كل مسلم ومسلمة؛ ليجتهد كل من يطلع عليها في التأسي به ﷺ في ذلك لقوله ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»(١).

وإلى القارئ بيان ذلك:

١ـ يسبغ الوضوء، وهو أن يتوضأ كما أمره الله، عملاً بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: ٦]، وقول النبي ﷺ: «**لا تقبل صلاة بغير طهور**»(٢)، وقوله ﷺ للذي أساء صلاته: «**إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء...**»(٣).

٢ـ يتوجه المصلي إلى القبلة، وهي الكعبة، أينما كان بجميع بدنه، قاصدًا بقلبه فعل الصلاة التي يريدها من فريضة أو نافلة، ولا ينطق بلسانه بالنية؛ لأن النطق باللسان غير مشروع لكون النبي ﷺ لم ينطق بالنية ولا أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ويجعل له سترة يصلي إليها إن كان إمامًا أو منفردًا، واستقبال القبلة شرط في

---

(١) البخاري (١٢٢٥).

(٢) مسلم (٣٢٩).

(٣) البخاري (٥٧٨٢).

الصلاة إلا في مسائل مستثناة معلومة موضحة في كتب أهل العلم.

٣ـ يكبر تكبيرة الإحرام قائلاً: «**الله أكبر**»، ناظرًا ببصره إلى محل سجوده.

٤ـ يرفع يديه عند التكبير إلى حذو منكبيه، أو إلى حيال أذنيه.

٥ـ يضع يديه على صدره، اليمنى على كفه اليسرى لثبوت ذلك عن النبي ﷺ(١).

٦ـ يُسنّ أن يقرأ دعاء الاستفتاح وهو: «**اللّٰهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللّٰهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللّٰهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد**»(٢). وإن شاء قال بدلاً من ذلك: «**سبحانك اللّٰهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك**»(٣). وإن أتى بغيرهما من الاستفتاحات الثابتة عن النبي ﷺ فلا بأس(٤). والأفضل أن يفعل هذا تارة، وهذا تارة؛ لأن ذلك أكمل في الاتباع. ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، ويقرأ سورة الفاتحة،

---

(١) النسائي (٨٨٩) وصححه الألباني في الإرواء (٢/ ٦٨، ٦٩).

(٢) متفق عليه.

(٣) مسلم (٢٩٩) موقوفًا على عمر. وله حكم الرفع فليس مما يقال من جهة الرأي، وعمر قد علّمه الناس. قاله ابن باز رحمه الله.

(٤) من أمثال: «**وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً**» (مسلم ١/ ٥٣٤)، و«**اللّٰهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل...**» (مسلم ١/ ٥٣٤)، و«**الله أكبر كبيرًا، الله أكبر كبيرًا...**» (أبو داود ١/ ٢٠٣).

لقوله ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»[١].

٧ـ يركع مكبرًا، رافعًا يديه إلى حذو منكبيه أو أذنيه، جاعلاً رأسه حيال ظهره، واضعًا يديه على ركبتيه، مفرقًا أصابعه. ويطمئن في ركوعه، ويقول: «**سبحان ربي العظيم**»، والأفضل أن يكررها ثلاثًا أو أكثر، ويستحب أن يقول مع ذلك: «**سبحانك اللّٰهم ربنا وبحمدك، اللّٰهم اغفر لي**»[٢].

٨ـ يرفع رأسه من الركوع رافعًا يديه إلى حذو منكبيه أو أذنيه قائلاً: «**سمع الله لمن حمده**»[٣]، إن كان إمامًا أو منفردًا، ويقول حال قيامه: «**ربنا ولك الحمد، حمدًا كثيرًا، طيبًا مباركًا فيه**»[٤]، «**ملء السموات، وملء الأرض، وملء بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد**»[٥]، أما إن كان مأمومًا فإنه يقول عند الرفع: «**ربنا ولك الحمد**» إلى آخر ما تقدم.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه. ومما ورد كذلك «**سبوح قدوس، رب الملائكة والروح**» (مسلم ١/ ٣٥٣)، و«**اللّٰهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي [وما استقلّت قدمي]**» (مسلم ١/ ٥٣٤)، وما بين المعقوفين لفظ ابن خزيمة (٦٠٧)، و«**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**» (أبو داود ١/ ٢٣٠).

(٣) البخاري مع الفتح (٢/ ٢٨٢).

(٤) البخاري مع الفتح (٢/ ٢٨٤).

(٥) مسلم (١/ ٣٤٦) بزيادة «**أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللّٰهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**».

ويستحب أن يضع كل منهما - أي الإمام والمأموم - يديه على صدره كما فعل في قيامه قبل الركوع لثبوت ما يدل على ذلك عن النبي ﷺ من حديث وائل بن حجر وسهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(١).

٩- يسجد مكبرًا، واضعًا ركبتيه قبل يديه إذا تيسر له ذلك، فإن شق عليه قدّم يديه قبل ركبتيه(٢) مستقبلاً بأصابع رجليه ويديه القبلة، ضامًّا أصابع يديه،

(١) حديث سهل «**كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل اليد اليمنى على ذراع اليسرى في الصلاة**» (البخاري ٧٤٠)، أما حديث وائل فعند ابن خزيمة وصححه، وفي الباب أحاديث أخر. وقد حقق ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ هذه المسألة باستقصاء في فتاويه (١١/ ١٣١-١٤٣) وتتبع الأدلة وردَّ على المخالفين بأسلوب غاية في الأدب وحفظ حقوق المخالف، حقيق بأن يفرد له دراسة في كيفية اختلاف الكبار. ومن جميل ما قاله: فلا ينبغي لأحد من المسلمين أن يتخذ من الخلاف في هذه المسألة وأشباهها وسيلة إلى النزاع والتهاجر والفرقة، فإن ذلك لا يجوز للمسلمين (١١/ ١٤١).

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: السنة للمصلي إذا هوى للسجود أن يضع ركبتيه قبل يديه إذا استطاع ذلك في أصحّ قولي العلماء، وهو قول الجمهور، لحديث وائل بن حجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وما جاء في معناه من الأحاديث. وأما حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهو في الحقيقة لا يخالف ذلك بل يوافقه؛ لأن النبي ﷺ نهى فيه المصلي عن بروك كبروك البعير. ومعلوم أنه من قدّم يديه فقد شابه البعير. أما قوله في آخره: «**وليضع ركبتيه**»، فالأقرب أن ذلك انقلاب وقع في الحديث على بعض الرواة، وصوابه: «**وليضع ركبتيه قبل يديه**»، وبذلك تجتمع الأحاديث، ويوافق آخر الحديث المذكور أوله، ويزول عنها التعارض، وقد نبه عليها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (زاد المعاد): «أما العاجز عن تقديم الركبتين لمرض أو كبر سن فلا حرج عليه في تقديم يديه...» =

ويسجد على أعضائه السبعة: الجبهة مع الأنف، واليدين، والركبتين، وبطون أصابع الرجلين. ويقول: «**سبحان ربي الأعلى**» ويكرر ذلك ثلاثًا[١] أو أكثر، ويستحب أن يقول مع ذلك: «**سبحانك اللّٰهم ربنا وبحمدك، اللّٰهم اغفر لي**»[٢]، ويكثر من الدعاء لقوله ﷺ: «**أما الركوع فعظّموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فَقَمِنٌ أن يستجاب لكم**»[٣]، ويسأل ربه من خير الدنيا والآخرة، سواء كانت الصلاة فرضًا أو نفلاً، ويُجافي عضديه عن جنبيه، وبطنه عن فخذيه، وفخذيه عن ساقيه، ويرفع ذراعه عن الأرض، لقول النبي ﷺ:

=

(الفتاوى ١١/ ١٥٩). وقد ذكر الحافظ ابن القيم عشرة أوجه لترجيح الحكم بانقلاب هذه الرواية. زاد المعاد (١/ ٢٢٢ ـ ٢٣٢).

(١) مسلم (١/ ٣٤٦).

(٢) أحمد وأهل السنن، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١/ ٨٣)، ومما ورد كذلك: «**سبوح قدوس، رب الملائكة والروح**» مسلم (١/ ٥٣٣)، و«**اللّٰهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه، وصوّره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين**» مسلم (١/ ٥٣٤). و«**سبحان ذي الجبروت، والملكوت، والكبرياء والعظمة**» أبو داود (١/ ٢٣٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١/ ١٦٦)، و«**اللّٰهم اغفر لي ذنبي كله، دِقَّهُ وجِلَّهُ، وأوله وآخره، وعلانيته وسره**» مسلم (١/ ٣٥٠)، و«**اللّٰهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**» مسلم (١/ ٣٥٢).

(٣) مسلم (٧٣٨).

«اعتدلوا في السجود، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب»[(١)].

١٠ـ يرفع رأسه مكبرًا، ويفرش قدمه اليسرى ويجلس عليها، وينصب رجله اليمنى، ويضع يديه على فخذيه وركبتيه ويقول: **«رب اغفر لي، وارحمني، واهدني، وارزقني، وعافني، واجبرني»**[(٢)].

١١ـ يسجد السجدة الثانية مكبرًا، ويفعل فيها كما فعل في السجدة الأولى.

١٢ـ يرفع رأسه مكبرًا، ويجلس جلسة خفيفة كالجلسة بين السجدتين، وتسمى جلسة الاستراحة، وهي مستحبة، وإن تركها فلا حرج، وليس فيها ذكر ولا دعاء، ثم ينهض قائمًا إلى الركعة الثانية معتمدًا على ركبتيه إن تيسر ذلك، وإن شق عليه اعتمد على الأرض، ثم يقرأ الفاتحة وما تيسر من القرآن بعد الفاتحة، ثم يفعل كما فعل في الركعة الأولى.

١٣ـ إذا كانت الصلاة ثنائية أي ركعتين كصلاة الفجر والجمعة والعيد، جلس بعد رفعه من السجدة الثانية ناصبًا رجله اليمنى، مفترشًا رجله اليسرى، واضعًا يده اليمنى على فخذه اليمنى، قابضًا أصابعه كلها إلا السبابة فيشير بها إلى التوحيد، وإن قبض الخنصر والبنصر من يده، وحلق إبهامها مع الوسطى، وأشار بالسبابة فحسن، لثبوت الصفتين عن النبي ﷺ، والأفضل أن يفعل هذا تارة،

---

(١) متفق عليه.

(٢) في مسلم (١/ ٣٥٢) بلفظ: **«رب اغفر لي، رب اغفر لي»** وعند أبي داود وابن ماجه: **«اللّٰهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، واجبرني، وعافني، وارزقني، وارفعني»** صحيح ابن ماجه للألباني (١/ ١٤٨).

وهذا تارة، ويضع يده اليسرى على فخذه اليسرى وركبته، ثم يقرأ التشهد في هذا الجلوس وهو **«التحيات لله، والصلوات، والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله»**(١)، ثم يقول: **«اللّٰهم صل(٢) على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد»**(٣). ويستعيذ بالله من أربع فيقول: **«اللّٰهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»**(٤). ثم يدعو بما شاء من خير الدنيا

---

(١) متفق عليه.

(٢) يجدر التنبيه على خطأ من يكتبها بالياء «صلي» لأنها ياء المؤنثة المخاطبة، وهذا في غاية سوء الأدب.

(٣) وهناك صيغ أخرى مثل: **«اللّٰهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللّٰهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»** (البخاري مع الفتح ٦/ ٤٠٨)، كذلك: **«اللّٰهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»** متفق عليه واللفظ لمسلم (١/ ٣٠٦).

(٤) متفق عليه، ولفظ مسلم **«اللّٰهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب جهنم، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»** (١/ ٤١٢) وله صيغ أخرى.

والآخرة، وإذا دعا لوالديه أو غيرهما من المسلمين فلا بأس، سواء كانت الصلاة فريضة أو نافلة لعموم قول النبي ﷺ: **«ثم ليتخيّر من الدعاء أعجبه إليه فيدعو»**[(١)]، وفي لفظ آخر: **«ثم ليتخيّر بعد من المسألة ما شاء»**[(٢)]، وهذا يعمّ جميع ما ينفع العبد في الدنيا والآخرة، ثم يسلّم عن يمينه وشماله قائلاً: **«السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله»**[(٣)].

وقد كان الصحابة عليهم الرضوان عُبّادُ ليل وأُسْدُ نهار، فقد صلّى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صلاة الفجر، فلما سلّم انفتل عن يمينه، ثم مكث كأن عليه كآبة، حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قِيد رمح، قلّب يده فقال: لقد رأيت أثرًا من أصحاب رسول الله ﷺ فما أرى أحدًا يشبههم، والله إن كانوا ليصبحون شُعثًا غُبرًا صُفرًا، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا يتلون كتاب الله، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، إذا ذُكر الله مادوا كما تميد الشجر في يوم ريح، فانهملت أعينهم حتى تبل والله ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين.

وكان أبو بكر رجلاً أسيفًا[(٤)]، فإذا صلى بكى وله نشيج، وكان عمر يصلي بالناس العشاء ثم يدخل بيته فلا يزال يصلي إلى الفجر، كما ذكره ابن كثير عنه،

---

(١) أبو داود (٨٢٥)، النسائي (١٢٨١).

(٢) مسلم (٦٠٩).

(٣) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة للشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ (١١/ ٧-١٧) وقد اقتصرت على بعضها، وهي مطبوعة في رسالة مستقلة.

(٤) أي رقيقًا، قريب الدمعة.

وكان في وجهه خطّان أسودان مثل الشراك من البكاء. أما عثمان فقد قرأ القرآن كله في ركعة يجعلها وتره(١).

وبعد: فهناك وسائل تعين المؤمن على الوصول لدرجة القائمين الساجدين، فإلى شيء منها(٢):

الإخلاص، واستشعار محبة الله تعالى للقائمين، واستشعار قيام النبي ﷺ، وأن من كمال اتباعه قيام الليل، وقراءة فضائل القيام، وسير المتهجدين، وبذل الأسباب المعنوية للقيام من الخشية والحب والرجاء ونحوها، والحسيّة من الدعاء، والنوم المبكر، وتطبيق سنن النوم مثل الطهارة والذكر والنوم على الشق الأيمن، وتخفيف العشاء، والتواصي عليه مع غيرك، وتربية النفس على كبح الهوى، ونفض الكسل، إلى غير ذلك من الأسباب.

٩ـ مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب التمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعرفت أن فيه مزيدًا لحالك ومنفعة لغيرك.

كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ

---

(١) الطحاوي والبيهقي (٣/ ٢٥) وصححه الأرناؤوط والشاويش في تحقيق شرح السنة (٤/ ٩٩)، وقد ذكر العفاني في رهبان الليل عشرات الأمثلة العالية السامية من الصحابة ومن بعدهم ودأبهم في قيام الليل، ووصاياهم به.

(٢) ينظر: كيف نتحمس لقيام الليل، محمد آل عبد الله.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال ﷺ: **«قال الله عز وجل: وجبت محبتي للمتحابّين فيّ، ووجبت محبتي للمتجالسين فيّ، ووجبت محبتي للمتزاورين فيّ»**(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: **«إن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته**(٢) **ملكًا، فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي. قال: هل لك من نعمة تربُّها عليه**(٣)**؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى. قال: إني رسول الله إليك بأن الله قد أحبّك كما أحببته فيه»**(٤). وفي هذا فضل الزائر على المزور.

وقال عليه الصلاة والسلام: **«أوثق عرى الإيمان: أن تحب في الله، وتبغض في الله»**(٥). وقال عليه الصلاة والسلام: **«الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»**(٦)، وقال ﷺ: **«إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء، بمكانهم من الله عز وجل»** قالوا: يا رسول الله! من هم؟ قال: **«هم قوم تحابّوا بروح الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن**

---

(١) أحمد (٤/ ٣٨٦)، وصححه الألباني في المشكاة (٣/ ١٣٩٥).

(٢) المدرجة: الطريق.

(٣) تربها: أي تنمّيها وتصلحها.

(٤) مسلم (٤/ ١٩٨٨).

(٥) الطبراني في الكبير (١١٥٣٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٢٨).

(٦) أبو داود والترمذي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٠٤٦).

الناس. ثم تلا هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾» [يونس: ٦٢] (١).

«أما العقل، فهو رأس المال، ولا خير في صحبة الأحمق، لأنه يريد أن ينفعك فيضرك، وأما حسن الخلق، فلابد منه، إذ رُبَّ عاقل يغلبه غضب أو شهوة فيطيع هواه، فلا خير في صحبته. وأما الفاسق، فلأنه لا يخاف الله، ومن هو هكذا لم تؤمن غائلته، ولا يوثق به. وأما المبتدع، فيخاف من صحبته بسراية بدعته، وأما الحريص على الدنيا، فإنه يبعد عن طلب النجاة في الآخرة ويقطع عنها.

ومن اجتمعت فيه تلك الخصال، فإن صحبته لا ينتفع بها في الدنيا فحسب، بل يرتفع بها في الآخرة. وعلى هذا يُحمل كلام السلف: استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة يوم القيامة»(٢).

وقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «عليك بإخوان الصدق، تعش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء، وعُدَّة في البلاء. وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يقليك منه. واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تطلعه على سرّك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى»(٣). وقال: «لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد لقيت الله، لولا أن أضع جبهتي لله، أو أجلس في مجالس ينتقى فيها طيب الكلام كما ينتقى

(١) الترمذي (٢٣٩١)، وأبو داود (٣٥٢٧)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٠١٢).
(٢) مختصر منهاج القاصدين (٩١، ٩٢).
(٣) صفة الصفوة (١/ ١٣٠).

جيد التمر، أو أن أسير في سبيل الله عز وجل»[١].

وقال إبراهيم الخوّاص: «دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين»[٢].

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله فضيلة الصمت إلا من خير، وقد قال عليه الصلاة والسلام: **«من صمت نجا»**[٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: **«إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»**[٤].

وقال يونس بن عبيد: «ما رأيت أحدًا لسانه منه على بال، إلا رأيت ذلك صلاحًا في سائر عمله»[٥]. وقال يحيى بن أبي كثير: «ما صلح منطق رجل؛ إلا عرفت ذلك في سائر عمله، ولا فسد منطق رجل قط؛ إلا عرفت ذلك في سائر عمله»[٦].

وقال رجل لنبي الله صلوات الله وسلامه عليه: ما النجاة؟ قال: **«أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»**[٧].

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٥١).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، النووي (٤٦).

(٣) أحمد (٢/ ١٥٩)، والترمذي (٢٥٠٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٣٦).

(٤) متفق عليه.

(٥) حلية الأولياء (٣/ ٦٨).

(٦) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٣٦).

(٧) الترمذي (٢٤٠٨)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٩٦١).

١٠ـ مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل:

لأن الرَّوْحَ في حياة القلب، والهلكة في شتاته وضياع جمعيته على ربه ومولاه، فلابد من العناية بسلامته، وحياطته من الآفات، وحمايته من المكدرات ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] وكان من دعائه ﷺ: «**وأسألك قلبًا سليمًا**»(١).

قال شيخ الإسلام: «القلب السليم هو السليم مما سوى الله، أو مما سوى عبادة الله، أو مما سوى إرادة الله، أو مما سوى محبة الله»(٢).

وقال ابن القيم: «إنما يباعد من الله كل طريق يوصل إلى باب من تلك الأبواب الثلاثة:

باب شبهة أورثت شكًا في دين الله، وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ورضاه، وباب غضب يورث العدوان على خلق الله»(٣).

فالشبهات طريق لمخالفة الاعتقاد، والشهوات طريق لمخالفة الجوارح، والغضب ـ مع الحسد ـ طريق لمخالفة الطباع. ومن هذه الأبواب الثلاثة، تلج كل الذنوب والمعاصي المفسدة للقلوب، وهي ترجع في أصولها إلى ثلاثة:

---

(١) أحمد (٤٠/ ١٢٣)، والترمذي (٤٠٠٤)، والنسائي في كتاب السهو (٦١).

(٢) الفتاوى (٢١٩).

(٣) الفوائد (٥٨).

الأول: تعلق القلب بغير الله، وغايته الشرك، ودعاء غير الله.

الثاني: طاعة النفس في الغضب -غير المشروع- وغايته القتل.

الثالث: طاعة النفس في شهوة الجسد، وغايته الزنى.

وقد جمع الله تعالى هذه الثلاثة في سلك واحد، ونزّه عباده عنها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] كما جُمعت في الحديث لما سأل ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ فقال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**». قال: ثم أي؟ قال: «**وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك**» قال: ثم أيّ؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»[1].

لذلك قال الإمام أحمد: أعظم الذنوب بعد الشرك: قتل النفس التي حرم الله، والزنى.

ولكل ذنب أثره المباشر على القلب إمراضًا أو إماتة!

رأيت الذنوب تميت القلوب   وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب   وخير لنفسك عصيانها

وأصول الخطايا ثلاثة: الكبر والحرص والحسد. فالكبر لُعن إبليس، وطرد من رحمة الله، وهو أول ذنب عُصي الله به في العالم المشهود، وبالحرص طرد آدم

(١) متفق عليه.

عليه السلام وحواء من الجنة، فهو دافع المعصية الأولى حين أكلا من الشجرة، وبالحسد قتل قابيل هابيل. فالحازم العاقل هو من يتفقد هذه الثلاثة في قلبه، ويتوكل على ربه في إزالتها وإبدالها بأضدادها.

علامات محبة العبد لله عز وجل

المحبة ليست بالدعاوى والظاهر، بل بالحقائق والمخابر، وأعزّ أمر هو تحقيق هذه المحبة على قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فاتباع المصطفى صلوات الله وسلامه عليه هو برهان الاتباع، ومهر المحبة، وباب التقوى، ومنشور الولاية، وعلى قدر الاستقامة على ذلك يكون صدق الدعاوى.

والدعاوى إذا لم يكن لها بينات، أصحابها أدعياءُ

والمحبة يدعيها كل أحد، وما أسهل الدعوى! وما أعز المعنى! فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس، مهما ادّعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة.

والمحبة شجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح، وتدل تلك الآثار منها على القلب واللسان والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار، ودلالة الثمار على الأشجار(١).

وقبل بيان العلامات يحسن بنا ذكر أقسام النفوس ومحابها فنقول:

«النفوس ثلاثة، الأولى: نفس سماوية علوية، فمحبتها منصرفة إلى المعارف

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ١٦٣٢).

واكتساب الفضائل والكمالات الممكنة للإنسان، واجتناب الرذائل، وهي مشغوفة بما يقربها من الرفيق الأعلى، وذلك قُوتُها وغذاؤها ودواؤها، فاشتغالها بغيره هو داؤها.

الثانية: نفس سبعيّة غضبية، فمحبتها منصرفة إلى القهر والبغي والعلو في الأرض، والتكبر والرئاسة على الناس بالباطل، فلذتها في ذلك، وشغفها به.

الثالثة: نفس حيوانية شهوانية، فمحبتها منصرفة إلى المأكل والمشرب والمنكح، وربما جمعت الأمرين فانصرفت محبتها إلى العلو في الأرض والفساد، كما قال تعالى في أول القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]، وقال في آخر السورة: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

والحب في هذا العالم دائر بين هذه النفوس الثلاثة، فأي نفس منها صادفت ما يلائم طبعها استحسنته، ومالت إليه، ولم تُصغ فيه لعاذل، ولم تأخذها فيه لومة لائم. وكل قسم من هذه الأقسام يرون أن ما هم فيه أولى بالإيثار، وأن الاشتغال بغيره والإقبال على ما سواه غبنٌ وفوات حظ.

فالنفس السماوية بينها وبين الملائكة والرفيق الأعلى مناسبة طَبْعية، بها مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم. فالملائكة أولياء هذا النوع في الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

فالمَلَكُ يتولى من يناسبه بالنصح والإرشاد والتثبيت والتعليم، وإلقاء الصواب على لسانه، ودفع عدوه عنه، والاستغفار له إن زلّ، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضِّه على التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلى الدنيا، وتقصير أمله، وترغيبه فيما عند الله، فهو أنيسه في الوحدة، ووليّه ومعلمه ومثبّته ومُسكّن جأشه، ومرغّبه في الخير، ومحذّره من الشر، يستغفر له إن أساء، ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهرًا يذكر الله بات معه في شِعاره(١)، فإن قصده عدوٌ له بسوء وهو نائم دفعه عنه.

أما النفوس السبعية الغضبية، فالشياطين أولياء لهذا النوع، يخرجونهم من النور إلى الظلمات، قال الله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ [النحل: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ

(١) الشعار: ما تحت الدثار من اللباس، وهو ما يلي الجسد.

خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ [النساء: ١١٩-١٢١].

فهذا النوع بين نفوسهم وبين الشياطين مناسبة طبيعية، بها مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم، فالشياطين تتولاهم بضدّ ما تتولى الملائكة لمن ناسبهم، فتؤزهم إلى المعاصي أزًّا، وتزعجهم إليها إزعاجًا لا يستقرون معه، ويزينون لهم القبائح ويخففونها على قلوبهم، ويحلونها في نفوسهم، ويثقلون عليها الطاعات، ويثبطونهم عنها، ويقبّحونها في أعينهم، ويُلقون على ألسنتهم أنواع القبيح من الكلام وما لا يفيد، ويزينونه في أسماع من يسمعه منهم. يبيتون معهم حيث باتوا، ويقيلون معهم حيث قالوا، ويشاركونهم في أموالهم وأولادهم ونسائهم، يأكلون معهم، ويشربون معهم، ويجامعون معهم، وينامون معهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ [النساء: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٨].

أما النوع الثالث؛ فهم أشباه الحيوان، ونفوسهم أرضية سفلية، لا تبالي بغير شهواتها، ولا تريد سواها.

إذا عرفت هذه المقدمة؛ فعلامات المحبة قائمة في كل نوع بحسب محبوبه

ومراده، فمن تلك العلامات تعرف من أي هذه الأقسام هو»[(١)].

فمن العلامات الدالة على محبة العبد لربه تعالى:

١ـ حب لقاء الله تعالى:

فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوبًا إلا ويحب لقاءه ومشاهدته، قال النبي ﷺ: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**»[(٢)].

«فالمحب الصادق يذكر محبوبه دائمًا، والموعد الذي بينهما للقيا، ولا ينسى موعد لقاء حبيبه ولو نُشِرَ بالمناشير، وما هو موعد اللقاء؟

هناك ثلاثة مواعيد: الأول: الموت، والثاني: يوم القيامة، والثالث: اللقاء في الجنة، والنظر إلى وجه الكريم الجميل الجليل سبحانه.

وليس معنى هذا أن العبد يريد الموت الآن، أو يتمناه ويدعو على نفسه به إلا على سبيل الشوق لله تعالى، فالحديث الناهي عن تمني الموت مقيد بالضرّ النازل به فبقي ما عداه على الإباحة، والمراد أن المؤمن إذا نزل به الموت أحب نزوله واستبشر به؛ لأنه سيفضي به إلى لقاء ربه تعالى، ويكون بقربه كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ** ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]، وكما قال ﷺ عند نزول الموت به: «**بل الرفيق الأعلى من الجنة**»[(٣)]، وكما استبشر كثير

(١) روضة المحبين، ابن القيم (٢٣٢ـ ٢٣٤).

(٢) متفق عليه.

(٣) أحمد (٢٦٣٩٠) وسنده حسن، فقد صرح ابن إسحاق فيه بالتحديث فانتفى
=

من السلف من الصحابة ومن بعدهم عند الموت.

ولما علم الله سبحانه شوق عباده المحبين له، المطيعين المتبعين لرسوله ﷺ؛ ضرب لهم موعدًا بينه وبينهم هو الموت، فقال جل وعز: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]»[١].

«ولا يتصوّر أن يحب القلب محبوبًا إلا ويحب مشاهدته ولقاءه، وإذا علم أنه لا وصول له إلا بالارتحال عن هذه الدنيا ومفارقتها بالموت، فينبغي أن يكون محبًا للموت غير فارّ منه، فإن المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه لمستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته، والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة.

قال حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند الموت: حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم. وقال بعض السلف: ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود. فقدم حب لقاء الله على السجود»[٢].

«وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧] فذكر المقامات الثلاث: الحب، وهو ابتغاء القرب إليه والتوسل إليه بالأعمال

=

التدليس، وبقية رجاله رجال الشيخين غير يعقوب بن عتبة - وهو الثقفي - وهو من رجال السنن عن الترمذي، وهو من الثقات.

(١) أعمال القلوب، المنجد (٢٣٧، ٢٣٨) بتصرف.

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ١٦٣٢).

الصالحة، والرجاء والخوف و هذا يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعًا أنك لا تنافس إلا في قرب من تحب قربه، وحُبُّ قربه تبعٌ لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه. وعند الجهمية والمعطلة: ما من ذلك كله شيء! فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة. ولذلك ضُربت قلوبهم بالقسوة، وضُربت دونهم ودون الله حجب على معرفته ومحبته، فلا يعرفونه ولا يحبونه، ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته! وحسبُ ذي البصيرة وحياة القلب ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله عز وجل، ومعرفته وتوحيده، والله المستعان.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال أحبابه وأولياؤه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٩، ٢٠] فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين إرادة وجهه.

وهنا لطيفة؛ فقد قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩] فجعل إرادته غير إرادة الآخرة. وهذه الإرادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة، كما كان ﷺ

يدعو: «اللّهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قُرَّة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وبَرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللّهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين»(١).

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله، وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه، وهو حديث جليل عظيم القدر، غزير المعاني(٢).

ولو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطّلت منازل السير إلى الله، فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه، ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام، فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبة له لا إسلام له البتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، فإن «الإله» هو الذي يألهه العباد حبًّا وذلاً، وخوفًا ورجاءً، وتعظيمًا وطاعةً له، بمعنى «مألوه» وهو الذي تألهه القلوب، أي تحبه وتذلّ له. وأصل التأله: التعبد،

---

(١) النسائي (٣/ ٥٤) عن عمار بن ياسر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في صحيح النسائي (١٢٣٧).

(٢) وقد أفرد له الحافظ ابن رجب شرحًا في رسالة مستقلة، مطبوعة ضمن مجموع رسائله.

والتعبد هو آخر مراتب الحب، يُقال: عبَّده الحب وتيّمه، إذا ملكه وذله لمحبوبه، فالمحبة حقيقة العبودية(١).

قال يحيى بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا، وما قضى وطره من شيئين: بكاؤه على نفسه، وشوقه إلى ربه.

وكان أبو عبيدة الخوّاص يمشي في الطريق ويصيح: وا شوقاه إلى من يراني ولا أراه.

لـولا التعلّـل بالرجـاء لقُطّعـتْ ... نفـسُ المحـبِّ صـبابةً وتـشوقًا
ولقـد يكـاد يـذوب منـه قلبـه ... ممـا يُقـاسي حـسرة وتحرّقًـا
حتـى إذا رَوْحُ الرجـاءِ أصـابَهُ ... سَـكَنَ الحريـقُ إذا تعلَّـلَ باللقـا

والنعيم بأمرين: الشوق إلى لقاء الله في الدنيا، ولذة النظر إلى وجهه الكريم الجميل في الجنة.

لهـا أحاديـثُ مـن ذكـراك تـشغلُها ... عـن الـشراب وتلهيهـا عـن الـزادِ
لهـا بوجهـك نـور تستـضيء بـه ... ومـن حـديثك في أعقابهـا حـادِ
إذا اشتكت من كلال السير أوْعَدَهَا ... رَوْحُ اللقـاء فتقـوى عند ميعـادِ(٢)

(١) وقد مرّ تفصيل ذلك.
(٢) المدارج (٣/٢٣- ٢٥) بتصرف.

٢ـ إيثار محاب الله تعالى على كل شيء:

«قال رب العزة سبحانه في آية الامتحان: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وتسمّى كذلك آية المحبَّة، قال أبو سليمان الداراني: لما ادّعت القلوب محبة الله أنزل الله لها محنة؛ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾. وقال بعض السلف: ادّعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحنة؛ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾. فقوله تعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها محبةُ المرسِلِ لكم، فلما لم تحصل المتابعة؛ فليست محبتكم له حاصلة، ومحبته لكم منتفية»(١).

فبرهان المحبة صدق الاتباع وإحسان المعتقد والعمل. فلابد أن يكون اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما(٢)، وحينما قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنت يا رسول الله أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي. قال له: «**لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك**» قال عمر: فأنت والله أحب إلي من كل شيء، حتى من نفسي. قال: «**الآن يا عمر**»(٣). إذن فمن العلامات ألا يقدم العبد شيئًا على الله تعالى، وتقديم رسول الله ﷺ إنما تبع لتقديم الله تعالى.

---

(١) المدارج (٣/ ٤٥٥، ٤٥٦).

(٢) متفق عليه، وسيأتي إن شاء الله.

(٣) البخاري (٦٦٣٢).

وقال صلوات الله وسلامه عليه: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»(١). وهذه يستلزم تقديمه مطلقًا على كل من ذكرهم ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣].

تعصي الإله وأنت تزعم حبّه ... هذا محالٌ في القياس بديعُ
لو كان حبُّك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحبُّ مطيعُ

فالمحب الصادق يؤثر ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيلزم مشاق العمل، ويجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظبًا على طاعة الله، ومتقربًا إليه بالنوافل، وطالبًا عنده مزايا الدرجات، كما يطلب المحب مزيد القرب من محبوبه، وقد وصف الله تعالى المحبين بالإيثار، فقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] ومن بقي مستقرًا على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه، بل المحب الصادق يترك هوى نفسه كما قال بعضهم في بعض شؤون الدنيا:

أُريدُ وصالَهُ ويريدُ هجري ... فَأَتْرُكُ ما أُريدُ لِمَا يُريدُ

بل الحب إذا غلب قَمَعَ الهوى، فلم يبق له تنعم بغير المحبوب، قال سهل: علامة الحب إيثاره على نفسك، وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبًا، وإنما الحبيب من اجتنب المناهي. وهو كما قال؛ لأن محبته لله تعالى سبب

(١) متفق عليه.

لمحبة الله له، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وإذا أحبّه الله؛ تولاه ونصره على أعدائه.

وإذا تولّاه أمرًا دون الورى طرًّا تولاه العظيم الشان

وإنما عدوه شيطانه ونفسه وشهواته، فلا يخذله الله، ولا يكله إلى هواه وشهواته، ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

وأتركُ ما أهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسي

«فإن قلت: هل العصيان يضاد أصل المحبّة؟ فالجواب: أنه يضاد كمالها، ولا يضاد أصلها، فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض، ويحب الصحة ويأكل مما يضرّه مع علمه بأنه يضرّه! وذلك لا يدل على حبّه لنفسه. ولكن الإرادة قد تضعف، والشهوة قد تغلب، فيعجز عن القيام بحق المحبة. ويدل عليه قصة الرجل الذي كان يُجلَدُ في الخمر على عهد رسول الله ﷺ، فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله ﷺ: **«لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»**»(١)(٢).

«والمحبون ثلاثة أقسام: منهم من يريد من المحبوب، ومنهم من يريد المحبوب، ومنهم من يريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب، وهذا أعلى أقسام المحبين.

---

(١) البخاري.

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ١٦٣٣، ١٦٣٤).

وزُهدُ هذا أعلى أنواع الزهد، فإنه قد زهد في كل إرادة تخالف مراد محبوبه، وبين هذا وبين الزهد في الدنيا أعظم مما بين السماء والأرض.

فالزهد خمسة أقسام: زهد في الدنيا، وزهد في النفس، وزهد في الجاه والرئاسة، وزهد فيما سوى المحبوب، وزهد في كل إرادة تخالف مراد المحبوب، وهذا إنما يحصل بكمال المتابعة لرسول الحبيب. قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل سبحانه متابعة رسوله سببًا لمحبتهم له، وكونُ العبد محبوبًا لله أعلى من كونه مُحِبًّا لله، فليس الشأن أن تُحِبَّ اللهَ، ولكن الشأن أن يُحبَّك اللهُ. والطاعة للمحبوب عنوان محبته.

والمحبّ الصادق يبذل في رضا محبوبه ما يقدر عليه مما كان يتمتع به بدون المحبة، وللمحب في هذا ثلاثة أحوال: أحدها: بذلُهُ ذلك تكلّفًا ومشقة، وهذا في أول الأمر، فإذا قويت المحبة؛ بذلَهُ رضًا وطوعًا، فإذا تمكنت من القلب غاية التمكن بذله سؤالاً وضراعة كأنه يأخذه من المحبوب، حتى إنه ليبذل نفسه دون محبوبه، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم يَقُون رسول الله ﷺ بنفوسهم حتى يصرّعوا حوله(١).

---

(١) ومن لامية أبي طالب الشهيرة التي قالها في حصار الشِّعب:

كذبتم لعمر الله نُبْزَى محمدًا ... ولمّا نطاعن دونه ونناضلِ
ونُسلِمَهُ حتى نصرّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ
وينهض قومٌ في الحديد إليكمُ ... نُهوضَ الرَّوايا تحت ذات الصلاصلِ
=

ولي فـؤادٌ إلا لَـجَّ[١] الغـرامُ بـه هـام اشـتياقًا إلى لقيـا مُعَذِّبـه

يفديك بالنفس صَبٌّ لو يكونُ له أعـزُّ مـن نفسه شيءٌ فـداك بـه

ومـن آثـر محبوبـه بنفسه فهـو بمالـه أشـد إيثـارًا، قـال تعـالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ

=

وإنـا لعمـر الله إن جـد مـا أرى لتلتبـسن أسـيافنا بالأماثـلِ

بكفّي فتى مثل الشهاب سُميدع أخـي ثقـة حـامي الحقيقـة باسـل

وأبـيض يُستسقى الغمام بوجهـه ثمال اليتامى عصمة للأرامـلِ

يلـوذ بـه الهُـلّاكُ مـن آل هاشـم فهـم عنـده في رحمـة وفواضـلِ

لعمري لقد كلفت وجدًا بأحمدٍ وإخوتـه دأب المحـب المواصـلِ

فمـن مثلـه في النـاس أي مؤمـلٍ إذا قاسـه الحكّـام عنـد التفاضـلِ

حلـيم رشـيد عـادلٌ غـير طـائش يـوالي إلهًا لـيس عنـه بغافـلِ

فـوالله لـولا أن أجـيء بـسبةٍ تُجَـرُّ عـلى أشـياخنا في المحافـلِ

لكُنّـا اتبعنـاه عـلى كـل حالـةٍ من الدهر جدًّا غير قول التهازلِ

لقـد علمـوا أن ابننـا لا مكـذَّبٌ لـدينا ولا يُعنى بقـول الأباطـلِ

فأصـبح فينـا أحمـدٌ في أرومـةٍ تقـصر عنهـا سـورةُ المتطـاولِ

حَـدِبْتُ بنفـسي دونـه وحميتـه ودافعـت عنـه بالـذرى والكلاكـل

قال ابن كثير: لهي أفحل من المعلقات.

وانظر: مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله ابن الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب رحمهما الله (١٣١ـ ١٣٣)، والبيت الأول في الأصل: «كذبتم وبيت الله...».

(١) لجّ لجاجًا ولجاجة: لازمه وأبى أن ينصرف عنه.

بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٦] ولا يتم لهم مقام الإيمان حتى يكون الرسول أحبَّ إليهم من أنفسهم، فضلاً عن أبنائهم وآبائهم.

فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله، فكيف بمحبته سبحانه؟!

وهذا النوع من الحب لا يمكن أن يكون إلا لله ورسوله شرعًا، وإن وجد في الناس من يؤثر محبوبه بنفسه وماله فذاك في الحقيقة إنما هو لمحبة غَرَضه منه، فحملته محبةُ غرضه على أن يبذل فيه نفسه وماله، وليست محبته لذلك المحبوب لذاته بل لغرضه منه، وهذا المحبوب له مِثْلٌ، ولمحبته مِثْلٌ، وأما محبة الله فليس لها مِثْلٌ ولا للمحبوب مثل. ولهذا حكّم الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ رسوله ﷺ في أنفسهم وأموالهم، فقالوا: هذه أموالنا بين يديك فاحكم فيها بما شئت، وهذه نفوسنا بين يديك لو استعرضت بنا البحر لخُضناه، نقاتل بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك. قال قيس بن صِرْمَة الأنصاري:

ثوى في قريش بضعَ عشرة حجةً ... يُذَكّر لو يلقى حبيبًا مؤاتيا
فلما أتانا واستقرّت به النَّوى ... وأصبح مسرورًا بطيبة راضيا
بذلنا له الأموال من حِلِّ مالِنا ... وأنفُسَنَا عند الوغى والتآسيا
نُعادي الذي عادى من الناس كلِّهمْ ... جميعًا وإن كان الحبيبَ المُصافيا
ونعلَمَ أن الله لا ربَّ غيرُهُ ... وأن رسول الله أصبح هاديا

فالمحب وصفه الإيثار، والمدَّعي طبعه الاستئثار.

والمحب الصادق يهجر كل سبب يقصيه ويبعده عن محبوبه، ويرتاح لكل

سبب يُدنيه منه، ويستحمده عند. وقديمًا قيل:

ويرتاح[١] للمعروف في طلب العُلى لتحمد يومًا عند ليلى شمائله»[٢]

ومن آثر مراضي الله فهو المحب حقًّا، قال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: أعمال البر يطيقها البر والفاجر، ولا يصبر عن المعاصي إلا صِدِّيق.

وقال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ ملمحًا إلى هذا المعنى من موافقة مراد المحبوب وإيثاره على مقتضى الطبيعة المحبة الغالبة: «فترى المحب الناظر لا يطرف، يتنقل بتنقل المحبوب، وينزوي بانزوائه، ويميل حيث مال، كالحرباء مع الشمس»[٣]، «ومنها أن يجود ببذل كل ما يقدر عليه مما كان يمتنع به قبل ذلك، كأنه هو الموهوب له، والمسعي في حظه، كل ذلك ليُبدي محاسنه، ويرغب في نفسه، فكم بخيل جاد، وقطوب تطلّق، وجبان تشجّع، وغليظ الطبع تظرّف، وجاهل تأدّب، وتفِلٍ[٤] تزيّن»[٥].

٣ـ أُنْسُهُ بالخلوة بربّه ومناجاته بالدعاء والاستغفار والذكر وتلاوة كلامه، فيفرح بالخلوة، والبعد عن مشُتّتات جمعية القلب، ويغتنم هدأة الليل وسكونه

(١) والمشهور: ويهتزّ.

(٢) روضة المحبين، ابن القيم (٢٣٧ـ ٢٥٤) باختصار واقتصار.

(٣) رسائل ابن حزم (١/ ١٠٤)، وهذا الموضع من طوق الحمامة له (١/ ١١١).

(٤) التفل: الذي لم يتطيب ولم يتزين.

(٥) السابق (١/ ١٠٥).

وانقضاء الشواغل؛ فيصفّ قدميه للصلاة ويكثر من التلاوة والتدبر والتفكر والاستغفار والدعاء واللجأ والضراعة، وعلى قدر المحبة يكون الفرح بالخلوة والأنس بالله تعالى فيها، وتفتح له أبواب التوفيق، وتنزل عليه ألطاف الرحمن وهِبَاتُه، ويتنعَّمُ بحلاوة الأنس والقرب والخصوصية إذ حرمها أكثر العباد، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وكم من السلف من كان لا يزعجه إلا طلوع الفجر لقطعه تلك الحلاوة الخاصة في ذلك الزمان الخاص من جوف الليل الآخر والسحر. والله المستعان[١].

قال رسول الله ﷺ: «**حُبِّب إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجُعلت قرّة عيني في الصلاة**»[٢]. قال ابن القيم معلّقًا: «فقُرّةُ العين فوق المحبة، فجعل النساء والطيب مما يُحبّه، وأخبر أن قرّة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها ومحض لذته وفرحه وسروره وبهجته؛ إنما هو بالصلاة التي هي صلةٌ بالله، وحضور بين يديه، ومناجاة له، واقتراب منه، فكيف لا تكون قُرّة العين؟ وكيف تقرّ عين المحب بسواها؟ ومن قرّت عينه بصلاته في الدنيا؛ قرّت عينه بقربه من الله عز وجل في الآخرة، وقرّت عينه به أيضًا في الدنيا، ومن قرّت عينه بالله قرّت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

فقرّة عين المحب ولذته ونعيم روحه في طاعة محبوبه، بخلاف المطيع كرهًا،

---

(١) وسيأتي المزيد في الباب الأخير، باب الفرح والسرور بالله عز وجل وبفضله ورحمته، إن شاء الله تعالى.

(٢) أحمد (١١٨٨٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

المتحمِّلُ للطاعة ثُقْلاً، الذي يرى أنه لولا ذلّ القهر ما أطاع، فهو يتحمل طاعته كالمُكره الذي أذلّهُ مُكرِهُهُ وقاهِرُهُ، بخلاف المحب الذي يعد طاعة محبوبه قوتًا ونعيمًا ولذة وسرورًا، فجواذب قلبه ودواعيه منساقةٌ إلى الله طوعًا ومحبةً وإيثارًا، كجريان الماء في منحدره»(١)، وهذا يصل إليه العبد شيئًا فشيئًا حتى يغمر إيمانه حكم طبعه فتكون نفسه مطمئنة، وهذا أرفع من صاحب النفس اللوامة، التي تفعل الذنب وتلوم صاحبها عليه، وتتلوم وتتردد هل تفعله أم لا؟(٢) وبالمجاهدة يترقى العبد في مراقي العبودية والأنس برب العالمين.

قال ثابت البناني: كابدت نفسي في قيام الليل عشرين سنة، ثم تلذذت به عشرين سنة أخرى(٣). وقال الآخر: ما زلت أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي، حتى سقتها إليه وهي تضحك، أي من الفرح والأنس والسرور.

«فإذا صدق حبُّهُ لربه ومعبوده، وثبت على جادّة المحبين الصادقين، فلا شيء أحلى له من خلوته وتفرّده، فهو يحب الخلوة بمحبوبه، ويكره من يدخل بينهما غاية الكراهة، ولهذا السرّ - والله أعلم - أمر النبي ﷺ بردّ المارّ بين يدي المصلي، حتى أمر بقتاله، وأخبر أنه لو يدري ما عليه من الإثم لكان وقوفه أربعين خيرًا له من مروره بين يديه(٤). ولا يجد ألم المرور وشدته إلا قلب حاضر بين يدي

(١) عن أعمال القلوب، المنجد (٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٦٣٢).

(٣) حلية الأولياء، أبو نعيم (٢/ ٣٢١).

(٤) متفق عليه من حديث أبي جهيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو يعلم المار**
=

محبوبه، فمرور المار بينه وبين ربه بمنزلة دخول البغيض بين المحبوب ومحبوبه. وهذا أمرٌ الحاكم فيه الذوق، فلا ينكره إلا من لم يذق»(١).

وأيضًا فإن المحب يستأنس بذكر محبوبه، وكونه في قلبه لا يفارقه، فهو أنيسهُ وجليسه، لا يستأنس بسواه، فهو مستوحشٌ ممن يشغلُه عنه.

«وحدّثني تقي الدين بن شقير، قال: خرج شيخ الإسلام ابن تيمية يومًا فخرجت خلفه، فلما انتهى إلى الصحراء، وانفرد عن الناس بحيث لا يراه أحد، سمعته يتمثل بقول الشاعر(٢):

وأخرجُ من بين البيوت لعلَّني ... أُحدِّثُ عنك القلب بالسرّ خاليا

فخلوة المحب بمحبوبه هي غاية أمنيته، فإن ظفر بها وإلا خلا به في سرّه، وأوحشه ذلك من الأغيار، وكان قيس بن الملوح إذا رأى إنسانًا هرب منه، فإذا أراد أن يدنو منه ويحادثه ذكر له ليلى وحديثها؛ فيأنسُ به ويسكن إليه(٣).

=

بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خير له من أن يمر بين يديه».

(١) روضة المحبين (٢٥١).

(٢) وهو مجنون ليلى، قيس بن الملوح.

(٣) مع الفارق العظيم، فلله المثل الأعلى، ولكن هذا شاهد لحال بعض المحبين من أهل الدنيا، وقانون المحبة مبسوط على قلوب المحبين، فيتفقون في كثير من ظواهره، وإن كانت حقائقه بينهم أبعد مما بين السماء والأرض، وهذا فقه عزيز، ومن لم يضبطه لم يحسن أن يخوض فيه.

وينبغي للمحب أن يكون كما قال يوسف لإخوته وقد طلب منهم أخاه: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ [يوسف: ٦٠].

إذا لم تكـن فـيكُنَّ سُـعْدَى فـلا أرى لكُنَّ وُجُوهًا أو أُغيَّبَ في لَحْدي (١)

إذن فعلامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعّم بالخلوة به، وكمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة، ويعوق عن لذة المناجاة إلا إن كان ذلك الصارف بأمر الشارع الحكيم فيدور حينها معه حيث دار، فيقضي المراد ثم يعود إلى خلوته وله حنين كحنين الإبل إلى أولادها والطيور إلى أعشاشها بل أشد وأسمى.

وقد انتهت لذة المناجاة ببعضهم حين كان في صلاته، ووقع الحريق في داره أن لم يشعر به، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر بذلك، وإذا غلب عليه الحب والأُنس صارت الخلوة والمناجاة قرّة عينه، يدفع بها جميع الهموم، بل ربما استغرق الأنس والمحبة قلبه حتى لا يعي أمور الدنيا ما لم تكرّر على سمعه مرارًا، فإنه يكلم الناس بلسانه، وأنسه في الباطن بذكر ربه، قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، قال: هشّت إليه، واستأنست به.

وقال مطرف بن أبي بكر: المحب لا يسأم من حديث حبيبه» (٢).

---

(١) روضة المحبين (٢٥١، ٢٥٢).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ١٦٣٥، ١٦٣٦).

«وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغًا لوسواس الغير، لاستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه، وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى؟ ومن أين يجتمع الحب والوسواس؟

لا كان من لسواك فيه بقية فيها يُقسِّم فكره ويسوس»(١)

وقال ذو النون: «لم أَرَ شيئًا أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة؛ لأنه إذا خلا لم يَرَ غير الله تعالى، فإذا لم يَرَ غيره لم يحرّكه إلا حكم الله»(٢).

٤ـ كثرة ذكر المحبوب:

«فالمحب الصادق مولعٌ بذكر مولاه(٣) لا يفتر لسانه، ولا يخلو منه قلبه، فإن مَنْ أحبَّ شيئًا أكثر من ذِكره، فكثرة ذكر المحبوب، واللَّهَج(٤) بذكره وحديثه بالقلب واللسان برهان المحبَّة الصادقة. لهذا أمر الله سبحانه وتعالى بذكره على جميع الأحوال، وأمرهم بذكره أخوفَ ما يكونون، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فالذكر ملاذهم تحت قعقعات السيوف وصكّ القنا وطعن السهام. والمحبون يفتخرون بذكرهم أحبابهم وقت المخاوف وملاقاة

(١) المدارج (٣/ ٤٨٢).
(٢) طبقات الصوفية (١/ ٢٥).
(٣) وسيأتي البسط في باب الذكر إن شاء الله تعالى.
(٤) اللَّهج: الولع بالشيء، والمثابرة عليه.

الأعداء. كما قال قائلهم:

ذكرتُـكِ والخطِّـيُّ(١) يخطـرُ بيننـا وقـد نَهِلَـتْ منـه المثقَّفـةُ(٢) السُّمْرُ

وقال عنترة:

ولقـد ذكرتُـكِ والرِّمـاحُ كأنَّهـا أَشْـطَانُ بئـرٍ في لبـانِ الأدهـم(٣)
ولقـد ذكرتـك والرمـاح نواهـلٌ منّـي وبيضُ الهند تقطر من دمي
فـوددتُ تقبيـلَ السيوف لأنهـا لَمَعَـتْ كبـارق ثغـرِك المُتبَسِّمِ(٤)

وفي بعض الآثار الإلهية: «**إن عبدي كلَّ عبدي؛ الذي يذكرني وهو ملاقٍ قرنه**»(٥)، فعلامة المحبة الصادقة؛ ذكر المحبوب عند الرَّغَب والرَّهَب. وقال بعض المحبين في محبوبه:

يُـذَكِّرُنيكَ الخيـر والشرَّ والـذي أخـاف وأرجـو والـذي أتوقّـعُ

ومن الذكر الدّال على صدق المحبة؛ سبقُ ذكر المحبوب إلى قلب المحب

---

(١) الخطِّيّ: الرمح المصنوع في الخطّ ـ موضع باليمامة ـ.
(٢) المُثَقّفَة: الرماح المُسَوَّاة.
(٣) أشطان: حبال. لبان: صدر. الأدهم: الحصان المائل للسواد، وهو حصان عنترة.
(٤) وهذا من أعذب النسيب على الإطلاق، والبيت الثاني أدرجته من الديوان.
(٥) الترمذي (٥/ ٥٧٠) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٧٥٠)، وقال ابن القيم في المدارج (٢/ ٧٨): سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يستشهد به، ويقول: المحبون يفتخرون بذكر من يحبون في هذه الحال.

ولسانه عند أول يقظةٍ من منامه، وأن يكون ذكره آخر ما ينام عليه[١]، كما قال قائلهم:

آآخـرُ شيءٍ أنـت في كـل هَجْعـةٍ وأَوَّلُ شيءٍ أنت وقـتَ هُبُـوبي؟[٢]

وذكر المحبوب لا يكون عن نسيان مستحكم، فإن ذِكْرَهُ بالقوّة في نفس المحب، ولكن لضيق المحل به يرد عليه ما يُغيِّب ذكره، فإذا زال الوارد عاد الذكر كما كان. وأعلى أنواع ذكر الحبيب؛ أن يحبس المحب لسانه على ذكره، ثم يحبس قلبه على لسانه، ثم يحبس قلبه ولسانه على شهود مذكوره[٣].

وكما أن الذكر من نتائج الحب، فالحب أيضًا من نتائج الذكر، فكلّ منهما يُثمر الآخر، وزرع المحبة إنما يُسقى بماء الذكر، وأفضل الذكر ما صدر عن المحبة»[٤].

«والمحبة تُوجب سَفَرَ القلب نحو المحبوب دائمًا. والمُحِبُّ في وطنه قاطن، وتوجب مثولَهُ وقيامَهُ بين يدي محبوبه وهو قاعد، وتجافِيهُ عن مضجعه ومفارقته إياه وهو فيه راقد، وفراغه بكلّه لمحبوبه وهو مشغول في الظاهر بغيره، كما قال

(١) وهذا من حِكَم أذكار النوم والاستيقاظ.

(٢) الهجعة: النومة. والهجوع: النوم الخفيف. والهُبوب: الاستيقاظ والانتباه. عن تحقيق الروضة للشيخ بشير محمد عيون. وغالب توضيح غريب اللغة في اقتباساتي من الروضة منه.

(٣) وفي مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه» (٤/ ١٥٩).

(٤) روضة المحبين (٢٣٥-٢٣٧).

بعضهم:

وأُديـمُ نحـوَ مُحَـدِّثي لِـيَرى أن قـد عقلـتُ، وعنـدكم عقلي

وقال بعضهم لشيخه(١): أيسجد القلب بين يدي الله؟ فقال: نعم، سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة. فهذه سجدة متصلة بقيامه وقعوده وذهابه ومجيئه وحركته وسكونه. وكذلك يكون جسده في موضعه، وقلبُه قد قَطَعَ المراحل مُسارعًا إلى حبيبه. فإذا أخذ مضجعه اجتمع عليه حُبُّهُ وشوقُه، فيهزُّه المضجع إلى سكن، كما قال تعالى في حق المحبين: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦]، فلما تجافت قلوبهم عن المضاجع؛ جافت الجنوب عنها واستخدمتها، وأمرت فأطاعتها. وقال القائل(٢):

نهاري نهارُ الناس، حتى إذا بدا لي الليلُ هزَّتْنِي إليك المضاجعُ

وبالجملة؛ فقلب المحب دائمًا في سفر لا ينقضي نحو محبوبه، كلّما قطع مرحلة ومنزلة تبدّت له أخرى، كما قيل: إذا قطعنَ علَمًا بدا عَلَم(٣).

فهو مسافرٌ وهو بين أهله، وظاعنٌ وهو في داره، وغريبٌ وهو بين إخوانه وعشيرته، يرى كلَّ أحد عنده، ولا يرى نفسه عند أحد. فقوّةُ تعلّق المحب بمحبوبه توجب له ألا يستقر قلبه دون الوصول إليه. وكلّما هدأت حركاته،

---

(١) والشيخ هو سهل بن عبد الله التستري رحمه الله.

(٢) وهو ابن الدمينة.

(٣) من أرجوزة لجرير.

وقلّت شواغله اجتمعت عليه شؤون قلبه، وقوي سيره إلى محبوبه.

ومحكّ هذا الحال يظهر في مواطن أربعة:

أحدها: عند أخذ مضجعه، وتفرّغ حواسه وجوارحه من الشواغل، واجتماع قلبه على ما يحبه، فإنه لا ينام إلا على ذكر من يحبه وشغل قلبه به.

الثاني: عند انتباهه من النوم، فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكر محبوبه. فإنه إذا استيقظ ورُدَّتْ إليه روحُه؛ رُدَّ معها إليه ذكر محبوبه الذي كان قد غاب عنه في النوم، ولكن كان قد خالط روحه وقلبه، فلما رُدَّت إليه الروح أسرعَ من الطَّرْفِ رُدَّ إليه ذكرُ محبوبه متصلاً بها، مصاحبًا لها، فورد عليه قبل كل وارد، وهجم عليه قبل كل طارق، فإذا وردت عليه الشواغلُ والقواطعُ وردت على محلّ ممتلئ بمحبة ما يحبه، فوردت على ساحته من ظاهرها.

فإذا قضى وطره منها قضاه لمصاحبته لما في قلبه من الحب، فإنه قد لزمه كملازمة الغريم لغريمه، لذلك يُسمى «غرامًا» وهو الحب اللازم الذي لا يفارق[1] فسمعَ بمحبوبه، وأبصر به، وبطش به، ومشى به، فصار محبوبه في وجوده في محل سمعِهِ الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها.

هذا مثل محبوبه في وجوده، وهو غير متحدّ به، بل هو قائم بذاته مباين له.

---

(١) مع إجلال الرب سبحانه، فليس في ذلك إقرار لمسمى الغرام - بمعناه الشائع - في محبة العبد لربّه عز وجل، لكن مراد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وصف المحبة باللزوم وعدم المفارقة.

وهذا المعنى مفهوم بين الناس، لا ينكره منهم إلا غليظ الحجاب، أو قليل العلم، ضعيف العقل، يجد محبوبه قد استولى على قلبه وذكره، فيظنّ أنه هو نفس ذاته الخارجة قد اتحدت به أو حلّت فيه. فينشأ من قسوة الأول وكثافته وغِلَظِ حجابه، ومن قلّة علم الثاني ومعرفته، وضعف تمييزه، ضلالُ الحلول والاتحاد، وضلال الإنكار والتعطيل والحرمان، ويخرجُ من بين فَرْثٍ هذا ودمِ هذا لبنُ الفطرة الأولى، خالصًا سائغًا للشاربين.

الثالث: عند دخوله في الصلاة، فإنها محكّ الأحوال، وميزان الإيمان، بها يُوزن إيمانُ الرجل، ويتحققُ حاله ومقامه ومقدار قربه من الله ونصيبه منه، فإنها محلّ المناجاة والقربة، ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه، فلا شيء أقرّ لعين المحب، ولا ألذّ لقلبه، ولا أنعم لعيشه منها إن كان محبًّا، فإنه لا شيء آثر عند المحب ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه، ومناجاته له، ومثوله بين يديه، وقد أقبل بقلبه على محبوبه، وقد أقبل محبوبه عليه. وكان قبل ذلك مُعذَّبًا بمقاساة الأغيار، ومواصلة الخلق، والاشتغال بهم. فإذا قام إلى الصلاة هرب من سوى الله إليه، وأوى عنده، واطمأن بذكره، وقرّت عينه بالمثول بين يديه ومناجاته. فلا شيء أهمَّ إليه من الصلاة، كأنه في سجن وضيق وغمّ حتى تحضر الصلاة، فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح. كما قال النبي ﷺ لبلال: «**يا بلال، أرحنا بالصلاة**»[(١)]، ولم يقل:

---

(١) أحمد (٢٣٠٨٨)، أبو داود (٤٩٨٥)، ورجح الدارقطني إرساله دون وصله. العلل (٤/ ١٢٠-١٢٢).

أرحنا منها، كما يقول المبطلون الغافلون(١).

فالصلاة قرّة عيون المحبين، وسرور أرواحهم، ولذة قلوبهم، وبهجة نفوسهم، يحملون همّ الفراغ منها إذا دخلوا فيها، كما يحمل الفارغ البطّال همّها حتى يقضيها بسرعة، فلهم فيها شأن وللنقّارين شأن! يشكون إلى الله سوء صنيعهم بهم إذا ائتموا بهم، كما يشكو الغافل المعرض تطويل إمامه، فسبحان من فاضل بين النفوس، وفاوت بينها هذا التفاوت العظيم!

وبالجملة فمن كانت قرّة عينه في الصلاة فلا شيء أحب إليه وأنعم عنده منها، وبودّه أن لو قطع عمره بها غير مشتغل بغيرها، وإنما يسلّي نفسه إذا فارقها بأنه سيعود إليها عن قرب، فهو دائمًا يثوب إليها، ولا يقضي منها وطرًا. فلا يزنُ العبدُ إيمانه ومحبته لله بمثل ميزان الصلاة، فإنها الميزان العادل، الذي وزنه غير مائل.

الرابع: عند الشدائد والأهوال، فإن القلب في هذا الموطن لا يذكر إلا أحب الأشياء إليه، ولا يهرب إلا إلى محبوبه الأعظم عنده، لهذا كانوا يفتخرون بذكرهم من يحبونهم عند الحرب واللقاء، وهو كثير في أشعارهم كما مرّ.

والسرّ في هذا - والله أعلم - أن عند معاينة الشدائد والأهوال؛ يشتد خوف

(١) سبق الكلام عن علاقة الصلاة بالمحبة، ولكن ههنا وقفات عميقة ولفتات هامة فيما سطره الإمام رحمه الله، فأحببت ألا أحرمك منها. ولا يحسن نقلها عن هذا الموضع لعلاقتها به.

القلب من فوات أحب الأشياء إليه، وهي حياته التي لم يكن يؤثرها إلا لقربه من محبوبه، فهو إنما يحب حياته لتنعمه بمحبوبه، فإذا خاف فوتها بدر إلى قلبه ذكرُ المحبوب الذي يفوت بفوات حياته، ولهذا ـ والله أعلم ـ كثيرًا ما يعرض للعبد عند موته لَهَجُهُ بما يحبه وكثرةُ ذكره له، وربما خرجت روحه وهو يلهج به، وعند الموت تتقطع الشواغل، وتتعطل الحواس، فيظهر ما في القلب، ويقوى سلطانه، فيبدر ما فيه من غير حاجب ولا مداراة، والحكايات في هذا كثيرة جدًّا في من يموت وهو يلهج بدنياه، بل بفسقه أحيانًا وفجوره. أما من كان مشغولاً بالله وبذكره ومحبته في حال حياته فإنه يجد ذلك أحوجَ ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله. ولأجل هذا كان جديرًا بالعاقل أن يُلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان لأجل تلك اللحظة التي إن فاتته شقي شقاوة الأبد. فنسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره، وحسن عبادته»(١).

٥ـ محبة كلام الله تعالى:

«فالإقبال على حديث المحبوب وإلقاء سمعه كله إليه من براهين المحبة، بحيث يُفرَّغُ لحديثه سمعه وقلبه، وإن ظهر منه إقبال لغيره فهو إقبالٌ مستعار، يستبين فيه التكلُّف لمن يرمُقُهُ، كما قيل:

وأُديــمُ لَحْــظَ مُحَــدّثي لــيَرَى ... أنْ قــد فهمــتُ وعنــدكم عقــلي

فإن أعوزه حديثه بنفسه، فأحبُّ شيء إليه الحديث عنه، ولاسيما إذا حدّث

---

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٦٦٣ـ ٦٧٠) باختصار.

بكلامه، فإنه يقيمه مقامَ خطابه، كما قال القائل: المحبون لا شيء ألذّ لهم ولقلوبهم من سماع كلام محبوبهم، وفيه غاية مطلوبهم. لهذا لم يكن شيء ألذّ لأهل المحبة من سماع القرآن، وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأْ عليّ**» قلت: أقرأُ عليك وعليك أُنزِل؟ قال: «**إني أحبُّ أن أسمعه من غيري**» فقرأتُ عليه من أول سورة النساء حتى بلغت قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] قال: «**حسبك الآن**» فرفعت رأسي، فإذا عيناه تذرفان(١).

وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا قارئًا أن يقرأ وهم يستمعون، وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا دخل عليه أبو موسى يقول: يا أبا موسى! ذكّرنا ربنا. فيقرأُ أبو موسى وربَّما بكى عمر.

ومرّ رسول الله ﷺ بأبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يصلي من الليل فأعجبته قراءته، فوقف واستمع لها، فلمّا غدا على رسول الله ﷺ قال: «**لقد مررتُ بك البارحة وأنت تقرأ، فوقفتُ واستمعت لقراءتك**» فقال: لو أعلم أنك كنت تسمعه لحبّرته لك تحبيرًا(٢).

والله سبحانه هو الذي تكلّم بالقرآن(٣) يأذنُ ويستمعُ للقارئ الحسن

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه، والتحبير: تزيين الصوت وتجميل القراءة.

(٣) قال شيخ الإسلام: «إذا قرأنا القرآن فإنما نقرؤه بأصواتنا المخلوقة التي لا تماثل =

الصوت من محبته لسماع كلامه منه، كما قال ﷺ: **«لله أشدُّ أذنًا إلى القارئ الحسن الصوت من صاحب القينة إلى قينته»**(١) والأَذَنُ - بفتح الهمزة والذال - مصدر أَذِن يأذَنُه: إذا استمع، قال الشاعر:

أيُّهــا القلــبُ تعلَّــل بَــدَدَنْ(٢)   إن قلبـــي في ســـماع وَأَذَنْ

=

صوت الرب، فالقرآن الذي نقرؤه هو كلام الله مبلغًا عنه، لا مسموعًا منه، وإنما نقرؤه بحركاتنا وأصواتنا، الكلام كلام الباريء، والصوت صوت القارئ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة مع العقل، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، وقال النبي ﷺ: **«زينوا القرآن بأصواتكم»** [أبو داود (٤٧٣٤) وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٧٤)، وعلّقه البخاري]. وقال الإمام أحمد في قول النبي ﷺ: **«ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن»** [البخاري (٧٥٢٧)] قال: يزيّنه ويحسّنه بصوته، كما قال: **«زينوا القرآن بأصواتكم»**.

فنصّ أحمد على ما جاء به الكتاب والسنة؛ أنا نقرأ القرآن بأصواتنا والقرآن كلام الله كلّه لفظه ومعناه، سمعه جبريل من الله وبلّغه إلى محمد ﷺ، وسمعه محمد منه، وبلّغه محمد إلى الخلق، والخلق يبلّغه بعضهم إلى بعض، ويسمعه بعضهم من بعض». (الفتاوى ١٢/ ٩٨).

(١) أحمد (٦/ ١٩)، ابن ماجه (١٣٤٠)، الحاكم (١/ ٥٧١)، البيهقي (١٠/ ٢٣٠)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٦٣٣).

(٢) الدَّدَن: اللهو واللعب.

وقال ﷺ: «**زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم**»[(١)]، وقال ﷺ: «**ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن**»[(٢)] وفيه معنيان:

أحدهما: يجعله له مكان الغناء لأصحابه، من محبته له ولَهَجِهِ به، كما يحب صاحب الغناء غنائه.

الثاني: أنه يُزَيِّنُهُ بصوته ويحسّنه ما استطاع، كما يُزَيِّنُ المُتَغَنّي غناءه بصوته، وكثير من المحبين ماتوا عند سماع القرآن بالصوت الشجي، فهؤلاء قتلى القرآن، لا قتلى عُشَّاق المردان والنِّسوان»[(٣)].

٦ـ التَّنعُّم بطاعة الله سبحانه وتعالى:

«فليس للمُحبّ فرحة ولا سرور ولا نعيم إلا بمحبوبه، فتنجلي همومه وغمومه به، وتعود إن فارقه أو فارق أمره وما يحب.

يزورُ فتنجلي عنِّي همومي ... لأن جلاء حزني في يديهِ
ويمضي بالحسرة حين يمضي ... لأن حوالتي فيها عليهِ

ويُسرُّ بما يحبُّهُ محبوبه كائنًا ما كان وإن كرهته نفسه، فيكون عنده بمنزلة الدواء الكريه، يكرهه طبعًا ويحبّه لما فيه من الشفاء. وهكذا المحب مع محبوبه،

---

(١) أبو داود (٤٧٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٧٤) وسبق.

(٢) البخاري (٧٥٢٧).

(٣) روضة المحبين (٢٣٨ـ ٢٤٠) باختصار. وسبق الكلام على أهمية تلاوة كتاب الله وضرورته للمؤمن.

يسرُّ بما يرضى به محبوبُه وإن كان كريهًا لنفسه، وأما من كان واقفًا مع ما تشتهيه نفسه من مراضي محبوبه فليست محبته صادقة، بل هي محبَّةٌ معلولة، حتى يُسرَّ بما ساءَهُ وسرَّهُ من مراضي محبوبه. وإذا كان هذا موجودًا في محبة الخلق بعضهم لبعض، فالحبيب لذاته(١) أولى بذلك. قال أبو الشيص:

وقف الهَوَى(٢) بي حيثُ أنتِ فليسَ لي ... مُتـأخرٌ عنـهُ ولا مُتَقَـدَّمُ
وأهنتنِي فَأَهَنْتُ نفسِيَ جاهدًا ... مَا مَنْ يَهُونُ عليكِ مِمَّنْ يُكرَمُ
أَشبهتِ أعدائي فصرتُ أُحِبُّهمْ ... إذْ كانَ حَظِّي مِنْكِ حَظِّي مِنْهُمُ
أَجِدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً ... حُبًّا لذكركِ فليَلُمْني اللُّوَّمُ

وقريب من هذا البيت الأخير قولُ الآخر:

لئن ساءَني أن نلتِني بمساءةٍ ... لقد سَرَّني أَنِّي خطرتُ ببالِكِ

وقريب من هذا قول أحمد بن الحسين(٣):

يا مَنْ يَعِزُّ علينَا أنْ نُفارقهمْ ... وِجْدَانُنا كُلَّ شيءٍ بعدَكُمْ عَدَمُ

---

(١) وهو الله عز وجل. قال شيخ الإسلام: «كل شيء يُحَبُّ لغيره إلا الله فإنه يُحبُّ لذاته». الفتاوى (١٠/ ١٩٥).

(٢) وهذا من باب ضرب المثال في بحر المحبة، وإلا فالله تعالى لا يوصف بذلك، سبحانه وبحمده، كما أن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ قد أوردها في سياق حب المخلوق لمخلوق مثله، وفي الأبيات معانٍ عميقة.

(٣) هو أبو الطيب المتنبي.

إن كـانَ سَرّكُـمُ مـا قـال حاسِـدُنا فَـمَا لِجُـرْحٍ إذا أَرضـاكمُ أَلَـمُ

ولَعْمرُ الله(١) أكثر هذه دعاوى لا حقيقة لها، والصادق منهم يُخبر عن علمه

---

(١) اللام ليست من حروف القسم على الراجح، فلا تكون قسماً إلا إن كانت من الله أو بالله. لذلك يستخدم هذا المؤكّد مع المخلوقين فنقول: لعمري أو لعمرك ونحو هذا، وهو جائز إذ ليس فيه قسمٌ والإحتياط تركه تورعاً. إذن فهناك فرق بين عبارة (لعمر الله) وبين (لعمري أو لعمرك ونحوهما).

قال الموفق بن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن قال: لعمر الله، فهي يمين موجبة للكفارة... وإن قال: لعمري، أو لعمرك، أو عمري، فليس بيمين في قول أكثرهم» (المغني ١٣/ ٤٥٧).

وذكر ابن القيم في كتابه (التبيان في أقسام القرآن) (ص ٤٢٨) أن أكثر المفسرين من السلف والخلف، بل لا يعرف عن السلف نزاع فيه أن «لعمرك» في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] أن هذا قسم من الله بحياة رسوله ﷺ، وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب بحياته، وهذه مزيّة لا تعرف لغيره.

وعمر بفتح العين وضمّها واحد، وهو هنا قسم بحياة مخصوصة، فهو عمر شريف عظيم، أهلٌ أن يقسم به لمزيته على كل عمر من أعمار بني آدم. اهـ.

وقال القرطبي في تفسيره لآية الحجر: «كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمري؛ لأن معناه: وحياتي.

وقال النخعي: يكره للرجل أن يقول: لعمري؛ لأنه حلف بحياة نفسه».

قلت: فالأحوط إذن تركها تورعًا حتى وإن لم يكن معها حرف من حروف القسم؛ لأن الأسلوب شبيه بأسلوب القسم.

وإرادته، لا عن حاله وصفته، ولقد أحسن القائل(١):

رَضُوا بالأماني وابتُلُوا بحُظُوظِهِم ... وخاضُوا بحار الحُبِّ دعوى وما ابتلُّوا
فهم في السُّرَى لم يبرحوا من مكانهم ... وما ظعنوا في السير عَنْهُ وقد كَلُّوا

وإن كان هذا هو وصف قائلها بعينه وحاله، فإنه خاض بحار الحبّ وما ابتلّت فيه له قدم، وأخبر عن نفسه عند انكشاف غطائه، وطلب الرسلِ له لقدومه على ربّه، فقال وصَدَقَ(٢):

إن كان منزِلَتِي في الحُبِّ عندكُمُ ... ما قد لقيتُ فقد ضَيّعتُ أيّامي
أُمْنِيَّةٌ ظَفرتْ نفسي بها زمنًا ... فاليومَ أحسَبُها أضغاث أحلامِ

وهذه حال كل من أحب مع الله شيئًا سواه، فإنه إلى هذه الغاية يصير ولابد، وسيبدو له إذا انكشف الغطاء أنه إنما كان مغرورًا مخدوعًا بأمنيةٍ ظفرت نفسُهُ بها مُدّة حياته، ثم انقطعت وأعقبت الحسرة والندامة. قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]، فالأسباب التي تقطعت هي الوَصل والعلائق والمودّات التي كانت لغير الله وفي غير ذات الله، وهي التي يَقْدَمُ إليها سبحانه فيجعلها هباءً منثورًا، فكل محبة لغير الله فهي عذاب

---

(١) هو ابن الفارض.

(٢) لأنه كان حلوليًا زنديقًا، أي ابن الفارض.

على صاحبها وحسرة عليه، إلا محبته ومحبة ما يدعو إلى محبته، ويعين على طاعته ومرضاته، فهذه هي التي تبقى في القلب يوم تُبلى السرائر. كما قال:

سيبقى لكم في مُضْمَرِ القلب والحَشا سريرَةُ حُبٍّ يومَ تُبلى السرائرُ

وقال آخر:

إذا تصدَّعَ شَمْلُ الوَصْلِ بينَهُمُ فللمُحبين شملٌ غيرُ منصدعِ
وإن تقطّعَ حبْلُ الوصلِ يومئذٍ فللمحبين حبلٌ غير مُنقطع»[١]

وقال ﷺ: **«لا يجد أحدٌ حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع في الكفر، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»**[٢]. وفي لفظ: **«ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولهُ أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»**[٣] فأخبر أنه لا يجد أحد حلاوة الإيمان إلا بهذه المحبات الثلاث:

الأولى: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه من سواهما، وهذا من أصول الإيمان المفروضة التي لا يكون العبد مؤمنًا بدونها.

الثانية: أن يحب العبد لا يحبه إلا لله، وهذا من لوازم الأولى.

---

(١) روضة المحبين (٢٤٨-٢٥١).
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.

الثالثة: أن يكون إلقاؤه في النار أحب إليه من الرجوع إلى الكفر[١].

فالتنعم بالطاعة هو من براهين المحبة الصادقة، كما قال الجنيد: «علامة المحب؛ دوام النشاط بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه، ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به، فهكذا يكون حب الله تعالى، فإن كل حبٍّ صار غالبًا قَهَرَ لا محالة ما هو دونه، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل؛ ترك الكسل في طاعته، وإن كان أحب إليه من المال؛ ترك المال في حبه»[٢] ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، وبالطبع فلكل عابد شرَّة وفترة كما قال ﷺ: «**لكل عابد شِرَّةٌ، ولكل شِرَّةٍ فترةٌ، فإما إلى سُنَّة، وإما إلى بدعة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك**»[٣]، والشرّة هي النشاط والرغبة، وضدها الفترة. إذن فالفتور من جِبلّات النفس ولكن فتور الموفقين لا يخرجهم عن السنة والطاعة إلى البدعة والهلكة.

٧ـ التأسف والحزن على ما فات من طاعة الله وذكره:

فالمحب الصادق يتأسف ويشتد عليه ضياع شيء من وقته وعُمُرِه في غير مرضاة الله تعالى، فإذا فات وِرْدُهُ من الصلاة أو التلاوة أو الذكر أو التفكر أو

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٥٢).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ١٦٣٦).

(٣) أحمد من حديث عبد الله بن عمرو (١١/ ٩) (٦٤٧٧) وصححه شعيب الأرناؤوط.

العبادة وَجَدَ لفوات ذلك ألَمًا أعظم من تألُّم الحريص على ماله من فوات ماله وضياعه وتلفه، وبادر إلى قضائه في أقرب فرصة، كما كان يفعل سيد العابدين صلوات الله وسلامه عليه. قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً أثبته[(١)]، وكان إذا نام من الليل أو مرض صلّى من النهار ثنتي عشرة ركعة»[(٢)].

وبكى أحد السابقين لما فاتته صلاة الصبح مع الجماعة، وقال: لو مات ابني لعزّاني الناس، ووالله لفوت الجماعة أشد عليّ!

والله سبحانه وتعالى قد جعل الليل والنهار خلفة، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ [الفرقان: ٦٢]، قال ابن عباس والحسن وقتادة: «يعني خلفًا وعوضًا، يقوم أحدهما مقام صاحبه، فمن فاته عمله في أحدهما قضاه في الآخر»[(٣)].

٨ ـ عدم الأسف على الفائت مما سوى الله تعالى:

فمن وجد الله فماذا فقد؟! ومن فقد الله فماذا وجد؟! فالمحب لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن

---

(١) أي داوم عليه.

(٢) مسلم (٧٤٦) وانظر: أعمال القلوب، المنجد (٢٤٤).

(٣) مختصر تفسير البغوي، د/ عبد الله الزيد (٦٧٢).

ذكر الله تعالى وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغَفَلات بالاستعتاب[١] والتوبة. «قال أحد العارفين: إن لله عبادًا أحبّوه واطمأنوا إليه، فذهب عنهم التأسف على الفائت، فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم.

وحقّ المحب إذا رجع من غفلته في لحظة أن يُقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب، وتكون هفوته سببًا لتجدّد ذكره وصفاء قلبه ودمعة عينه»[٢]. وقال ذو النون: «من علامات المحب لله؛ ترك كل ما شغل عن الله عز وجل حتى يكون الشغل كله بالله وحده»[٣].

٩ـ أن يستقلّ ما يعمله لمحبوبه تعالى وتقدّس:

فيستقلّ العابد المحب لربه عز وجل جميع أعماله الصالحة، ولا يراها شيئًا، ولا يرى عمله مهما كثر وعظم وشقّ إلا بعين النقص والازدراء، فمهما بلغ عمله فهو لا يصلح قربانًا لإلهه ومعبوده، فهو دائم الاستغفار من تقصيره في أداء الحقوق، وعجزه عن الإتيان بها على الوجه الذي يليق بالله تعالى، وكلّما ازداد حبًّا لله وعلمًا به ازداد معرفة بحقه فاستقلّ عمله أكثر. كما قال تعالى في وصف هؤلاء المحبين: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]،

---

(١) الاستعتاب: طلب رفع ثمرة الذنب وهو العذاب. وهذا أحد معاني **«لك العتبى حتى ترضى»**. الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٥)، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة. ولتدليسه ضعّفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٨٢).

(٢) الإحياء (١/١٦٣٦) باختصار.

(٣) الزهد الكبير للبيهقي (١/٧٣).

قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا لرسول الله ﷺ: أَهُمُ الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ فقال رسول الله ﷺ: **«لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويُصلّون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يُقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون»**[(١)]، لهذا شُرع الاستغفار في ختام العبادات كالصلاة وصيام رمضان والحج ونحو ذلك. والله سبحانه شكور يقبل القليل ويجزي الجزيل، سبحانه وبحمده لا نحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه.

١٠ـ الهيبة والتعظيم لله تعالى:

«فالمحب يخاف ويهاب[(٢)] ويتضاءل تحت هيبة الجلال والعظمة، وقد يظنّ أن الخوف يضاد الحب، وليس كذلك، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام[(٣)] المحبة ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشد من بعض. فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب[(٤)]، وأشد منه خوف الإبعاد، وهذا المعنى في سورة هود هو

---

(١) الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٢).

(٢) الهيبة: هي نتيجة للحب مع الخشية.

(٣) المقامات على المشهور هي مراحل قلبية روحية يمر بها المرء في سيره إلى الله تعالى، وقد اصطلح بعضهم على ذلك لغرض الإيضاح للمتعلمين فقط، ومثلها القواعد الفقهية والحديثية واللغوية ونحوها، وإن كانت هذه أخص.

(٤) لأنه أبعد في الطرد، والمراد احتجاب المعارف والعلوم النافعة الخاصة بصفات الله تعالى عن قلب العبد.

الذي شيّب سيّد المحبين ﷺ إذ سمع قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨]، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥][(١)]، وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من أَلِفَ القُرْبَ وذاقه وتنعّم به، فحديث البعد في حق المُبعدين يُشيِّبُ سماعُه أهلَ القرب في القرب، ولا يحنّ إلى القرب من أَلِفَ البعد، ولا يبكي لخوف البعد من لم يُمكَّن من بساط القرب.

ثم خوف الوقوف وسلب المزيد، فدرجات القرب لا حصر لها، وحق العبد أن يجتهد في كل نَفَس حتى يزداد فيه قربًا، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**إنه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة**»[(٢)]، فينبغي للمحب أن يحذر من

---

(١) هذا اختيار الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويرى غيره أن الآية هي ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، والحديث عن أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! لقد شبت. قال: «**شيبتني هود، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت**» رواه الترمذي وغيره، وقال: حسن غريب، وقد اختلف في تصحيحه وتضعيفه، ومن ضعفه فقد حكم عليه بالاضطراب للاختلاف على أبي إسحاق السبيعي، وقد أطال الكلام فيه الدارقطني في العلل (٣/ ١٩٣-٢١١)، وقد صححه الألباني في الصحيحة (٩٥٥).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٧٥) (٧٠٣٣) والغين: الغطاء الخفيف. قال أبو عبيد: «يعني أنه يتغشى القلب ما يلبسه، قال: كأنه يعني من السهو. وكذلك كل شيء يغشاه شيء حتى يلبسه فقد غِين عليه. يقال: غينت السماء غينًا، وهو إطباق الغيم السماء، وأنشد:

كأني بين خافيتي عقاب ... أصاب حمامة في يوم غين»
=

المكر الخفي الذي يسلبه مراتب القرب من الله تعالى بسبب ركونه إلى ما سواه، ولا يقدر على ذلك - بتوفيق الله - إلا ذوو الأقدام الراسخة، ثم يخافُ المحب من السلوّ عنه، فإن المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد، والسلوّ قد يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر، فهذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، فقد يُمكر بالعبد ويُستدرج بإخفاء ما ورد عليه من السلو والغفلة فينتقل القلب من حب الله إلى حب غيره من حطام الدنيا التي لا تعين على حبه، وذلك هو المقت والسلوّ عنه مقدمة هذا المقام، والإعراض والحجاب مقدمة السلو، وضيق الصدر بالبر، وانقباضه عن دوام الذكر، وملاله لوظائف الأوراد أسباب هذه المعاني ومقدماتها.

فليحذر المؤمن من أسباب هذه الأعراض فقد توصله إلى المقت عياذًا بالله تعالى، وليلزم الخوف مما يبعده عن الله تعالى، وليحذر الركون إلى غيره بصفاء المراقبة، فإن من أحب شيئًا خاف لا محالة من فقده»(١).

كما أن عليه أن يتسم بالحكمة في رياضة نفسه وقيادة قلبه ﴿وَمَن يُؤْتَ

=

كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي (١/ ١١٤٨). وقال النووي: «الغيم والغين بمعنى - أي بمعنى واحد - والمراد هنا ما يتغشى القلب، قال القاضي - أي عياض -: قيل: المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه، فإذا فتر عنه أو غفل عَدَّ ذلك ذنبًا. صلوات الله وسلامه عليه» (المنهاج ١٧/ ٢٣).

(١) الإحياء (١/ ١٦٣٨) بتصرف.

ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] فيروّح عن نفسه بالمباحات ساعة وساعة، فالنفس تكلّ وتنصب إذا لم تُعط حظها من الراحة والانبساط، وقد نبه رسول الله ﷺ عبد الله ابن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لما أراد أن يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله بقوله: «**فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، وقم ونم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر**». قال: قلت: إني أُطيق أفضل من ذلك. قال: «**فصم صيام داود عليه السلام، وهو أفضل الصيام**» قال: فقلت: إني أُطيق أفضل من ذلك. فقال النبي ﷺ: «**لا أفضل من ذلك**» وفي رواية: «**فصم يومًا وأفطر يومين**» قال: إني أطيق أفضل من ذلك. فقال النبي ﷺ: «**فصم يومًا وأفطر يومًا، وذلك صيام داود وهو عدل الصيام**»، وفي رواية: «**فإنك إذا فعلت ذلك هجمت عينُك ونفِهَتْ نفسك**»(١). وفي رواية: «**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يومًا، ويفطر يومًا**»، وفي رواية: «**ولا يفرّ إذا لاقى**»(٢). وفي رواية: قال عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: لأن أكون قبلت الثلاثة أيام التي قال رسول الله ﷺ أحب إلي من أهلي ومالي(٣). وفي رواية: «**فاقرأه في كل سبع، ولا تزد على ذلك، فإن لزوجك عليك حقًّا،**

---

(١) نَفِهَتَ: كلَّت وتعبت. هجمت: غارت، ودخلت في موضعها، وضعف بصرها.

(٢) متفق عليه، والألفاظ للبخاري. فلا يضعفه الصيام والقيام عن الجهاد في سبيل الله تعالى.

(٣) مسلم (١١٥٩).

ولزورك(١) **عليك حقًّا، ولجسدك عليك حقًّا**» قال: فشدّدت فشُدّد علي، قال: وقال لي النبي ﷺ: «**إنك لا تدري لعلك يطول بك عُمُر**» قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ، فلمّا كبرت، وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ(٢).

قال ذلك لأنه كبر وشقّت عليه المحافظة على ما التزم ووظّفه على نفسه عند رسول الله ﷺ، فكان ربما سرد أيام الصيام ثم سرد أيام الفطر يُحصيها. ومن فقه سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه أرشد أبا الدرداء لمثل ذلك، إذ النفس كالراحلة إن غفل عنها صاحبها وترك حبلها على غاربها تركت الطريق ورتعت في الربيع، وإن شدّها وجوّعها وأتعبها أهلكها، كالمُنْبَتّ لا سفرًا قطع ولا ظهرًا أبقى(٣)، وسأل رهطٌ من الصحابة أزواج النبي ﷺ عن عبادته، فلمّا أخبروا، كأنهم تقالّوها - أي اعتبروها قليلة - ثم قالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر فلا أفطر، وقال الثاني: وأنا أقوم الليل فلا أنام، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء، فجاء رسول الله ﷺ فقال: **«أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**(٤).

وبالجملة؛ فالمؤمن خبير نفسه، وطبيب قلبه، فإن راضه بالذكر والفكر

---

(١) أي: أضيافك.

(٢) مسلم (١١٥٩).

(٣) ويروى في ذلك حديث ضعيف كما في السلسلة الضعيفة والموضوعة (٥/ ٥٠١).

(٤) متفق عليه.

والعبادة، فليجعل لنفسه فسحة على قدر بلغتها، فلا يرخي لها الزمام حتى لا تغفل ولا يشده حتى لا تنكسر وتنقطع.

وذكر أبو نعيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحلية في ترجمة عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن طلاب العلم لما ازدحموا عليه حتى ضاق بهم الطريق، رتّبهم في التقديم على حسب مطالبهم، ولم يراع في ذلك سابقًا، فنادى بالطالبين للقرآن وحروفه، فإذا فرغوا دعا من طلب تفسير القرآن فجعلهم في المرتبة الثانية، فإذا فرغوا دعا من طلب فقه الحلال والحرام فجعلهم في الثالثة، فإذا فرغوا دعا من طلب الفرائض وما أشبهها، فإذا فرغوا دعا من طلب العربية والشعر والغريب من الكلام فجعلهم في الخامسة، وكان الصحابة يروحون القلوب ساعة فساعة.

وعن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: إني لأستجم نفسي بالباطل كراهية أن أحمل عليها من الحق ما يملّها - والباطل هو اللهو المباح - وكان ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا إذا جلس مع أصحابه حدثهم ساعة وقال: حمّضونا[(١)]، فيأخذ في أحاديث العرب، ثم يعود فيفعل ذلك مرارًا.

قال الغزالي: «قال بعض العارفين: من عَبَدَ الله تعالى بمحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش، ومن عبده من طريق المحبة والخوف؛ أحبّ الله تعالى فقرّبه

(١) وربما قال: أحمضوا. كما نقله عنه ابن إسحاق. والإحماض مأخوذ من إحماض الإبل، أي ميلها إلى رعي نبات الحمض بعد أن تمتلئ من الربيع.

ومكّنه وعلّمه(١)، فالمحب لا يخلو عن خوف، والخائف لا يخلو من محبة»(٢).

وقال ابن القيم: «ومن علامات المحبة وشواهدها؛ إغضاؤه عند نظر محبوبه إليه، ورميهُ بطرْفِهِ نحو الأرض، وذلك من مهابته له، وحيائه منه، وعظمته في صدره، ولهذا يستهجن الملوك من يخاطبهم وهو يُحدّ النظر إليهم، بل يكون خافض الطرف إلى الأرض، قال تعالى مخبرًا عن كمال أدب رسوله ﷺ في ليلة الإسراء: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] وهذا غاية الأدب، فإن البصر لم يزغ يمينًا ولا شمالاً، ولا طمحَ متجاوزًا إلى ما هو رائيه ومقبلٌ عليه كالمُتشارف(٣) إلى ما وراء ذلك، ولهذا اشتد نهي النبي ﷺ للمصلي أن يزيغ بصره إلى السماء، وتوعّدهم على ذلك بخطف أبصارهم. إذ هذا من كمال الأدب مع مَنْ المصلي واقفٌ بين يديه، بل ينبغي له أن يقف ناكس الرأس، مطرقًا إلى الأرض، ولولا أن عظمة رب العالمين سبحانه فوق سماواته على عرشه، لم يكن فرق بين النظر إلى

---

(١) كما قال مكحول رحمه الله: من عَبَدَ الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبدَ الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبدَ الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبدَ الله بالخوف والرجاء والحب فهو مؤمن موحد. وسيأتي بسط ذلك في باب الرجاء بإذن الله.

(٢) الإحياء (١/ ١٦٣٩).

(٣) المتشارف: المتشوّف إلى الشيء والمتطلع إليه. ومنه قوله ﷺ لعمر رضي الله عنه: **«وما آتاك الله من هذا المال وأنت غيرُ مُشْرِفٍ له ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك»** أحمد (١/ ٤٨٩)، وأصله في الصحيحين.

فوق أو إلى أسفل[(١)]، ومتى استحكم الحب والذل صارت عبودية، فيصير قلب المحب مُعبّدًا لمحبوبه»[(٢)].

فالموفق من عبد ربه على المحبة والهيبة والتعظيم والإجلال، لا من شطح به الشوق والإدلال أو القنوط واليأس[(٣)].

١١ـ الصبر على المكاره في ذات الله تعالى:

فمن علامات محبة العبد لربه عز وجل أن يكون صابرًا على المكاره، «والصبر من آكد المنازل في طريق المحبين وألزمها للمحبة. وهم أحوج إلى منزلة الصبر من كل منزلة. فإن قيل: كيف تكون حاجة المحب إليه ضرورية مع منافاته لكمال المحبة، فإنه لا يكون إلا مع منازعات النفس لمراد المحبوب؟

قيل: هذا لبّ الموضوع والقصد والفائدة التي لأجلها كان الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة وأعلقها به، وبه يُعلم صحيح المحبة من معدومها، وصادقها من كاذبها، فإنه بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يُعلم صحة المحبة، ومن هنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة لأنهم كلهم ادّعوا محبة الله تعالى، فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن الحقيقة ولم يثبت إلا الصابرون. فلولا تحمّل المشاقّ وتجشّم المكاره بالصبر ما ثبتت صحة الدعوى، وقد تبيّن أن أعظم الناس

---

(١) وقد طَردَ الخبيث بشر المريسي قوله في نفي علو الله تعالى حتى قال في سجوده: سبحان ربي الأسفل. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

(٢) الروضة. ابن القيم (٢٣٥، ٢٥٣).

(٣) وسيأتي المزيد في باب الخشية إن شاء الله.

محبة لله أشدُّهم صبرًا، وهذا ما وصف الله به أولياءه وخاصته، فقال عن عبده أيوب عليه السلام لما ابتلاه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤]، فهذه العلاقة بين الصبر والمحبة ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحُكْمِهِ، وأخبر أن الصبر لا يكون إلا بالله، فيصبر لله، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]»(١)(٢).

«والمحب مع صبره في ذات المحبوب إلا أنه لا يصبر عنه، والصادق من ينصرف صبره إلى الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته، والصبر على أحكامه، فهذا صبر المحب، وأما الصبر عنه فصبر الفارغ عن محبته، المشغول بغيره.

والصبر يُحمد في المواطِنِ كلِّها ... وعَنِ الحَبيبِ فإنه لا يُحمدُ

فمن صبر عن محبوبه؛ أدّى به صبره إلى فوات مطلوبه، قال أحد المحبين:

ما أحسنَ الصبر! وأمَّا على ... ألا أرى وجهَكَ يومًا فلا

لو أن يومًا منك أو ساعةً ... تُباعُ بالدنيا إذن ما غلَا»(٣)

١٢ـ الذِّلَّةُ للمؤمنين:

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ

---

(١) أعمال القلوب، المنجد (٢٤٠، ٢٤١).

(٢) وللصبر باب خاص إن شاء الله تعالى.

(٣) روضة المحبين (٢٣٨).

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، فقد ذكر الله لهؤلاء المحبين الصادقين الذين يحبُّهم ويحبونه أربع علامات:

أحدها: الذل للمؤمنين. قيل: معناه: أرقّاء، رُحماء، مشفقين عليهم، عاطفين عليهم. فلمّا ضَمَّنَ «أذلة» هذا المعنى عَدَّاهُ بأداة «على»(١)، قال عطاء: للمؤمنين

(١) التضمين بابٌ شريف من أبواب علوم القرآن العظيم، فمن فصاحة القرآن أن تضمن الكلمة عدة معان في مبنى واحد، وهذا من ألطف الإيجاز وأفخم الإعجاز، فالتضمين يجمع بين المعنى الأصلي للكلمة، والمعنى الذي أفادته التعدية. ولهذا أمثلة عديدة في التنزيل، ومن ذلك ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ﴾ [طه: ١٢٠] أي أنهى إليه الوسوسة، كقوله: حدّث إليه وأسرّ إليه. كذلك ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٧٧]، فالنصر هنا مضمَّنٌ معنى الإنجاء والتخليص، كذلك ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦]، فالحفظ لا يتعدى بعلى، ولكن لما ضمنت التعدية للمعمول الثاني استقامت،. والمعنى: أنهم حافظون فروجهم عن كل شيء إلا عن أزواجهم. كذلك ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١٢] فعُدِّي بعلى لتضمينه معنى المغالبة. كذلك ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠] فجاء فعل (أتوا) مضمنًا معنى مرّوا فعُدِّي بحرف على؛ لأن الإتيان تعدى إلى القرية والمقصود منه الاعتبار بمآل أهلها. كذلك ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ [الشعراء: ١١١] فعُدِّي الإيمان باللام لتضمنه معنى الإقرار إضافة إلى التصديق. كذلك ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [آل عمران: =

كالولد لوالده، والعبد لسيّده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذه هي العلامة الثانية من علامات المحبة في آية المائدة وهي:

١٣ـ العزة على الكافرين:

كما قال جل شأنه في مدح أحبابه الذين يحبهم ويحبونه: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]؛ لأن الكافرين أعداؤه وبُغَضاؤه، فحقهم المقت والعداوة والبراءة، والعزّة عليهم بإذلالهم والترفع عليهم. أما العلامة الثالثة في وصفهم فهي:

=

١٧٦] فضمّن يساعد معنى يقعون، فعداه بفي. كذلك ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥] فضمّن حقيق معنى حريص فجاءت التعدية بعلى. وكقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] فضمّن يشرب معنى يروى فعديت الكلمة بالباء. كذلك ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤] فضُمنت خلوا معنى ذهبوا فعديت بإلى. كذلك ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [هود: ٢٣] ضُمّن معنى أنابوا فعدّي بحرفه. كذلك ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [القصص: ٨٥] أي أنزل، فعدي بعلى. كذلك ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٣٨] أي أحلّه له. كذلك ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ [فصلت: ٦] تضمن معنى الإنابة والرجوع. كذلك ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٩] ضمن معنى الزوال. كذلك ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] ضمن معنى سائل... وغير ذلك كثير في التنزيل العزيز.

١٤ـ الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد واللسان والمال:

وذلك تحقيق دعوى المحبة[١] فقد قال جل وعز: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤] ثم ذكر الوصف الرابع من أوصافهم وهو:

١٥ـ ألا تأخذه في الله لومة لائم:

كما قال رب العزة سبحانه: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ [المائدة: ٥٤] فلا تأخذهم في الله لومة لائم، وهذا علامة صحة المحبة، فكل محب يأخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة، كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقيّة   يجدُ السبيل بها إليه اللُّومُ

فالمحب يغضب لله تعالى ويغار إذا انتُهِكت محارمه، أو تركت حقوقه؛ فالجهاد كله نابع من هذه الغضبة والغيرة، فأقوى العباد لله محبة هم أعظمهم غيرة على حرمات الله، فمحبوبهم جل وعز لا يرضى بها، وفي سيرة نبي الله ﷺ وأصحابه وأتباعه آثار كثيرة من هذا الباب، فمنها أنه خرج ذات يوم والناس يتكلمون في القدر.. فكأنما يُفْقَأ في وجهه حب الرمان من الغضب[٢]، وغضب لما شُكي إليه من يطيل بالناس الصلاة[٣]، وهتك قرام عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا لما فيه

(١) المدارج (٣/ ٤٥٦)، وسيأتي الكلام عن الجهاد في أبواب الغضب لله والشجاعة إن شاء الله تعالى.

(٢) المسند (٢/ ١٧٨)، ابن ماجه (٨٥) بسند صحيح، وقال الألباني: حسن صحيح. المشكاة (٩٨).

(٣) البخاري (٩٠).

من التماثيل. قالت: فلما رآه هتكه وتلوّن وجهه(١)، وغضب لما كلّمه أسامة في شأن المخزومية(٢)، ولما رأى نخامة في قبلة المسجد شقّ عليه حتى رُئي في وجهه(٣)، وبوّب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه: باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله عز وجل، وقال الله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التحريم: ٩].

وقال أبو معمر القطيعي: لمّا أحضرنا إلى دار السلطان أيام المحنة - أي امتحان الناس بالقول بخلق القرآن - وكان أحمد بن حنبل قد أُحضر، فلمّا رأى الناس يجيبون - أي يوافقون السلطان على ضلاله وباطله - وكان رجلاً ليِّنًا فانتفخت أوداجه، واحمرت عيناه، وذهب ذلك اللين. فقلت: إنه قد غضب لله، فقلت: أبشر. وحدَّثه عن أبي سلمة قال: كان من أصحاب رسول الله ﷺ من إذا أُريد على شيء من أمر دينه رأيت حماليق عينيه في رأسه تدور كأنه مجنون(٤).

وفي الأدب المفرد بسند حسن عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزّقين(٥) ولا متماوتين(٦)، وكانوا يتناشدون الشعر

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٣٨)، والحماليق: جمع حملاق العين، وهو ما يسوّده الكحل من باطن أجفانها، وهو كناية عن فتح العينين والنظر بحدّة وغضب.

(٥) متحزقين: منقبضين ومجتمعين، من الانقباض إلى النفس وعدم الانبساط للناس.

(٦) متماوتين: يقال: تماوت الرجل: إذا أظهر من نفسه التخافت والتضاعف.

في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أُريد أحد منهم عن شيء من أمر الله، دارت حماليق عينيه كأنه مجنون(١).

وعن بكر بن عبيد الله قال: كان أصحابه - أي رسول الله ﷺ - يتبادحون(٢) بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال(٣).

وقال ابن القيم رحمه الله في شأن الغيرة للمحبوب وعليه: «ومن علامات المحبة وشواهدها، الغيرة لمحبوبه وعلى محبوبه، فالغيرة له: أن يكره ما يكره، ويغار إذا عُصي محبوبه وانتُهك حقُّه وضُيّع أمره، فهذه غيرة المحب حقًّا، والدين كله تحت هذه الغيرة. فأقوى الناس دينًا أعظمهم غيرةً، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**أتعجبون من غيرة سعد؛ لأنا أغيرُ منه، والله أغير مني**»(٤)، فمحب الله ورسوله يغار لله ورسوله على قدر محبته وإجلاله، وإذا خلا قلبه من الغيرة لله ولرسوله فهو من المحبَّة أخلى وإن زعم أنه من المحبين، فكذب من ادّعى محبة محبوب من الناس وهو يرى غيره ينتهك حُرْمةَ محبوبه، ويسعى في أذاه وسخطه، ويستهين بحقّه، ويستخفّ بأمره، وهو لا يغار لذلك. بل قلبه بارد، فكيف يصحّ لعبد أن يدّعي محبة الله وهو لا يغار لمحارمه إذا انتُهكت، ولا لحقوقه إذا ضُيّعت؟! وأقلّ الأقسام أن يغار له من نفسه وهواه وشيطانه، فيغار

(١) صحيح الأدب المفرد للألباني (١/ ٢١٩).
(٢) يتبادحون: أي يترامون.
(٣) الأدب المفرد (٤١)، وصححه الألباني في الصحيحة (١/ ٧٢١).
(٤) متفق عليه.

لمحبوبه من تفريطه في حقه وارتكابه لمعصيته.

وإذا ترحّلت هذه الغيرة من القلب ترحّلت منه المحبة، بل ترحّل منه الدين، وإن بقيت فيه آثاره، وهذه الغيرة هي أصل الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي الحاملة على ذلك، فإن خلت من القلب؛ لم يجاهد ولم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، فإنه إنما يأتي بذلك غيرة منه لربه، ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى علامة محبته ومحبوبيته الجهاد، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وأما الغيرة على المحبوب فإنما تُحمدُ حيث يُحمد الاختصاص بالمحبوب، ويُذمُّ الاشتراك فيه شرعًا وعقلاً، كغيرة الإنسان على زوجته وأمته والشيء الذي يختص به هو، فيغار من تَعَرُّضِ غيره لذكره ومشاركته له فيه، وهذه الغيرة تختص بالمخلوق ولا تُتصوَّر في حق الخالق، بل المحب لربه يحب أن الناس كلّهم يحبّونه ويذكرونه ويعبدونه ويحمدونه، ولا شيء أقر لعبده من ذلك، بل هو يدعو إلى ذلك بقوله وعمله.

ولمّا لم يميّز كثير من الصوفية بين هاتين الغيرتين وقع في كلامهم تخبيط قبيح، وأحسن أمره أن يكون من السعي المغفور لا المشكور، وكان بعض جهلتهم إذا رأى من يذكر الله أو يحبه يغار منه! وربما سكّته إن أمكنه! ويقول: غيرة الحب تحملني على هذا! وإنما ذلك حسدٌ وبغي وعدوان ونوع معاداة لله،

ومراغمة لطريق رسله، أخرجوها في قالب الغيرة، وشبّهوا محبة الله تعالى بمحبة الصور من المخلوقين »[١]!

١٦ـ الأنس بالله والرضا به[٢]:

«قال أبو تراب النخشبي:

لا تُخدعَنَّ فللحبيب دلائل ... ولديه من تُحَفِ الحبيب وسائلُ
منها تنعّمه بمرّ بلائه ... وسروره في كلِّ ما هو فاعلُ
فالمنع منه عطيةٌ مقبولةٌ ... والفقرُ إكرامٌ وبرٌّ عاجلُ
ومن الدلائل أن ترى من عزمِهِ ... طوع الحبيب وإن ألحَّ العاذلُ
ومن الدلائل أن يُرى متقشفًا ... متحفظًا من كل ما هو قائلُ

وقال يحيى بن معاذ ـ مُتمِّمًا ـ:

ومن الدلائل حُزْنُهُ ونحيبُهُ ... جوفَ الظلام فما له من عاذلِ
ومن الدلائل أن تراه مسافرًا ... نحو الجهادِ وكلّ فعلِ فاضلِ
ومن الدلائل زهدهُ فيما يرى ... من دار ذلّ والنعيمِ الزائلِ
ومن الدلائل أن تراه باكيًا ... أن قد رآه على قبيح فعائلِ

(١) روضة المحبين (٢٤٦). ثم عقد ابن القيم في هذا الكتاب بابًا ماتعًا نافعًا في الغيرة وأقسامها ومتى تحمد ومتى تذم. مع أمثلة وافرة، وهو الباب الثاني والعشرون (٢٦٤ـ٢٨٢).

(٢) ولكل منها باب مستقل إن شاء الله تعالى.

ومـن الـدلائل أن تـراه مـسلّمًا   كـل الأمـور إلى المليـك العـادل
ومـن الـدلائل أن تـراه راضـيًا   بمليكـه في كـل حكـم نـازلِ
ومن الـدلائل ضـحكُهُ بين الـورى   والقلبُ محزون كقلب الثاكلِ»[(١)]

١٧ـ محبة أحبابه، وأحبهم إليه خليله وكليمه محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه:

فمن براهين محبة الله تعالى محبة من يحب، وما يحب، وأحب الخلق إليه نبينا محمد ﷺ صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، الشاهد المبشر النذير، والداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، خير من وطئ الثرى وركب الذُّرى وتسنّم المراكب العُلى، خير خلق الله، وأكرمهم على الله، وسيد ولد آدم، وصاحب لواء الحمد الذي آدم ومن دونه تحت لوائه يوم القيامة، وهو خطيب الأنبياء إذا وفدوا على ربهم، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وهو صاحب المقام المحمود يوم القيامة الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون، وهو خاتم المرسلين، وأفضل خلق الله أجمعين، أرسله الله بأفضل شريعة إلى خير أمة أخرجت للناس، وأنزل عليه أفضل كتبه، وجعله مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، الذي هدى الله به الخلق وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وهداهم به إلى صراط العزيز الحميد، وهو الذي فرّق الله به بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، والغي والرشاد، وطريق الجنة وطريق النار، وهو الذي قسم الله به عباده إلى شقيٍّ وسعيد، فالسعيد من آمن به وأطاعه، والشقي من

=

(١) الإحياء (١/ ١٦٤١، ١٦٤٢).

كذّبه وعصاه، وعلّق بطاعته النجاة والسعادة، فلا سبب ينجو به العبد من عذاب الله وينال السعادة في الدنيا والآخرة ممن بلغته دعوته وقامت عليه الحجة برسالته إلا من آمن به واتبع النور الذي أنزل معه.

«قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، وقد بين الله تعالى ما يستحقه عبده الكريم ونبيه العظيم من الحقوق فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨، ٩]، فالإيمان بالله والرسول، والتعزير والتوقير للرسول(١) والتسبيح بكرة وأصيلاً لله وحده.

وجعل الله المحبة له ولرسوله كذلك الإرضاء فقال: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] وقال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن

---

(١) هذا قول شيخ الإسلام، ولا يمنع أن تكون كلها لله ورسوله خلا التسبيح، فالتعزيز بنصر دينه والتوقير قد ثبت في القرآن ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، ولعله أولى ما دام اللفظ يحتمل.

كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢] فالرسول علينا أن نحبه وعلينا أن نرضيه، كذلك الطاعة ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]»(١).

فمن أحب الله أحب دينه وأحب رسوله ﷺ وأحب آله وأصحابه وأتباعه. وقد استفاض في الصحاح عنه ﷺ من حديث ابن مسعود وأبي موسى وأنس أن النبي ﷺ قال: **«المرء مع من أحب»**(٢)، وفي رواية لما سُئل: الرجل يحب القوم ولمّا يلحق بهم - أي ولمّا يعمل بأعمالهم - فقال ﷺ: **«المرء مع من أحب»**(٣)، قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث، فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن يجعلني الله معهم، وإن لم أعمل عملهم.

قال شيخ الإسلام: «وهذا الحديث حقّ، فإن كون المحب معه أمر فطري لا يكون غير ذلك، وكونه معه هو على محبته إياه، فإن كانت المحبة متوسطة أو قريبًا من ذلك كان معه بحسب ذلك. وإن كانت المحبة كاملة كان معه كذلك، والمحبة الكاملة تجب معها الموافقة للمحبوب في محابّه، وإذا كان المحب قادرًا عليه، فحيث تخلّفت الموافقة مع القدرة يكون قد نقص من المحبة بقدر ذلك، وإن كانت موجودة»(٤).

(١) منهاج السنة، ابن تيمية (٢/ ٤٤٤-٤٤٧) باختصار.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.
(٤) الفتاوى (١٠/ ٧٥٢).

«فمحبة المحبوب تستلزم حب كل ما يتعلق من مراضيه، كما قال الأول:

أُحــبُّ بنــي العَــوّامِ طُـرًّا لِحُبِّهــا ... ومـن أجْلِهـا أحببتُ أخوالهـا كَلْبـا

وقال الآخر:

يــشتاقُ واديهـــا ولــولا حُـــبّكُمْ ... مـــا شـــاقَهُ وادٍ زَهَـــتْ أَزْهَـــارُهُ

وقال آخر:

فيَـا سَـاكني أَكْنَـافَ طَيْبَـةَ كُلُّكُـم ... إلى القلب مِنْ أجلِ الحَبيبِ حبيبُ

وكان أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يحب الدُّباء كثيرًا لمّا رأى النبي ﷺ يتتبعها من جوانب القصعة(١).

ومن عجيب أمر المحبة الاتفاق بين المحب والمحبوب، لاسيّما إذا كانت المحبةُ محبةَ مُشاكلةٍ ومناسبة، فكثيرًا ما يمرض المحب بمرض محبوبه، ويتحرّك بحركته ولا يشعر أحدهما بالآخر، ويتكلم المحبوب بكلام فيتكلم المحب بعينه اتفاقًا، فانظر إلى قول النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يوم الحديبية لما قال له: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**» قال: فعلام نعطي الدنيّة(٢) في ديننا؟ فقال: «**إني رسول الله، وهو ناصري، ولستُ أعصيه**» فقال: ألم تكن تحدّثنا أنا نأتي البيت فنطَوّفُ به؟ فقال: «**قلت لك إنك تأتيه العام؟**» قال: لا. قال: «**فإنك**

---

(١) متفق عليه، والدُّبَّاء: القَرَع.

(٢) الدنيّة: النقيصة والخضوع.

آتيه ومُطَوِّفٌ به»، ثم جاء أبا بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال له: يا أبا بكر ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال له: إنه رسول الله، وهو ناصره، وليس يعصيه. قال: ألم يكن يحدّثنا أنا نأتي البيت فنطوِّفُ به؟ قال: أقال لك إنك تأتيه العام؟ قال: لا. قال: فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به(١).

---

(١) البخاري (١٦٩٤) وانظر: جامع الأصول (٦١٠٨) ثم قال ابن القيم: «هكذا وقع في صحيح البخاري، ووقع في بعض المغازي أنه أتى أبا بكر أولاً فقال له ذلك، ثم أتى رسول الله ﷺ بعده فقال له مثل ما قال أبو بكر. قال السهيلي: وهذا هو الأولى، ويُشبه أن يكون المحفوظ، فإنه لا يُظن بعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يكون رسول الله يقول له قولاً فلا يرضى به، حتى يأتي أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعد ذلك والشبهة عنده لم تزل فيعيدها عليه، ولا يُظن ذلك بعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قال ابن القيم: ولعمري لقد نزع أبو القاسم - أي السهيلي - بِذَنُوب صحيح - أي دلو سليم - ولكن المحفوظ هو الذي وقع في البخاري. وعليه عامّة أهل السير والمسانيد والسنن. وأما ما نسب إلى عمر فقد أُجيب عنه بأنه كان يرجو النسخ وموافقة ربه في ذلك كما تقدم له أمثالها، فإنه كان يقول القول فينزل به القرآن. والثاني أن المقام كان مقام محنة وابتلاء عَجِزَ عنه صبرُ أكثر الصحابة ولم يتسع له بطانهم، والثاني هو الحق. وهو من السعي المغفور لا المشكور لعمر والصحابة الذين أغضبوا رسول الله بتأخرهم عن حلق رؤوسهم، فغفره الله لهم بكمال إيمانهم ونصحهم لله ورسوله، وعَذَرَهم الله سبحانه لقوّة الوارد وضعفهم عن حمله، حتى لم يحمله عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قوته وشدّته، واحتمله رسول الله ﷺ وأبو بكر، وكان جوابهما من مشكاة واحدة. ولما احتمل رسول الله ﷺ هذا الحكم الكوني الأمري الذي حكم له به، =

فأجاب على جواب رسول الله ﷺ حرفًا بحرف، من غير تواطُؤٍ ولا تشاعر، بل موافقة محبٍّ لمحبوب، وهذا الذي قد جرى للصديق من أحسن الموافقة[١]، وتقوى هذه الموافقة حتى يعلم المحب بكثير من أحوال محبوبه وهو غائب عنه[٢]، وهذا بحسب تعلّق الهمّة به، وتوجه القلب إليه، واتحاد مراده بمراده، وربما اقتضى ذلك اتفاقهما في المرض والصحة، والفرح والحزن والخُلُق، فإن كانت بينهما تشابه في الخَلْق الظاهر فهو الغاية في الاتفاق»[٣].

وقال ذو النون المصري مبيّنًا ضرورة محبة النبي ﷺ ومتابعته لمن ادعى محبة الله تعالى: «من علامات المحبة متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه»[٤].

=

ورضي به، وأقر به، ودخل تحته طوعًا وانقيادًا ـ وهو الفتح الذي فتح الله له ـ أثابه عليه بأربعة أشياء: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإتمام نعمته عليه، وهدايته صراطًا مستقيمًا، ونصر الله له نصرًا عزيزًا». روضة المحبين (٢٥٥ـ ٢٥٧) باختصار.

(١) وقد كتب شيخ الإسلام طائفة حسنة من أخبار أبي بكر الصديق وحبه وفدائه للنبي ﷺ في منهاج أهل السنة، وخاصة في المجلد الخامس منه.

(٢) وقد عاينت من ذلك شواهد بين من أعرفهم ـ رحمهم الله ـ.

(٣) روضة المحبين (٢٥٧).

(٤) تاريخ دمشق (١٧/ ٤٢٧)، وانظر: الرسالة القشيرية (١/ ٧) كذلك: جلاء العينين بمحاكمة الأحمدين (١/ ١٦٦).

وحبّ النبي ﷺ من معاقد الشهادتين، فشهادة أن محمدًا رسول الله متضمنة لمحبته صلوات الله وسلامه عليه.

قال النووي رحمه الله ملخصًا كلام القاضي عياض رحمه الله: «وبالجملة فأصل المحبة: الميل إلى ما يوافق المحب، ثم الميل قد يكون لما يستلذه الإنسان ويستحسنه، كحسن الصورة والصوت والطعام ونحوها، وقد يستلذه بعقله للمعاني الباطنة كحب الصالحين والعلماء، وأهل الفضل مطلقًا، وقد يكون لإحسانه إليه ودفع المضار والمكاره عنه.

وهذه المعاني كلها موجودة في النبي ﷺ لما جمع من جمال الظاهر والباطن، وكمال خلال الجلال وأنواع الفضائل، وإحسانه إلى جميع المسلمين بهدايته إياهم إلى الصراط المستقيم ودوام النعم والإبعاد عن الجحيم»[١].

قال شيخ الإسلام: «وليس للخلق محبة أعظم ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم، وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى، وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه، فإن الرسول ﷺ إنما يُحب لأجل الله، ويُطاع لأجل الله، ويُتبع لأجل الله كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي (٢/ ٢١٤) عن محبة الرسول ﷺ بين الاتباع والابتداع، عبد الرءوف محمد عثمان (٣٨) وهو كتاب قيّم في هذا الباب، وقد نقلت عنه بعضًا مما يأتي.

﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]»(١).

«وعلى ذلك فلا تنفك إحدى المحبتين عن الأخرى، فمن أحب الله أحب رسوله ﷺ، وكذلك سائر رسله، ومحبة الرسول تبع لمحبة من أرسله.

ولأجل هذا جاء حب الرسول ﷺ مقترنًا بحب الله عز وجل في أكثر النصوص الشرعية، كقوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما**»(٢). وهذا الارتباط بين المحبتين ارتباط شرعي لا ينفك، فمن زعم أنه يحب الله ولم يحب رسوله ﷺ أو العكس فكلامه باطل واعتقاده فاسد»(٣).

قال القاضي عياض في كلامه على آية التوبة: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]: «فكفى بهذا حضًّا وتنبيهًا ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، استحقاقه لها ﷺ، إذ قرّعَ الله من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وتوعدهم بقوله: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٦٤٩).

(٢) البخاري (١/ ١٠).

(٣) محبة الرسول ﷺ، عبد الرءوف محمد عثمان (٤١).

ثم فسّقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضلّ ولم يهده الله»(١).

وتأمل حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وما فيه من غزير العلم والإيمان؛ فقد أخرج البخاري بسنده عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر ابن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: **«لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك»** فقال له عمر: فإنه الآن والله، لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: **«الآن يا عمر»**(٢). فهذا الحديث يبيّن أنه لا يبلغ المسلم حقيقة الإيمان حتى يكون الرسول ﷺ أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه.

قال الخطابي: «حب الإنسان نفسه طبع، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد عليه الصلاة والسلام حب الاختيار إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جُبلت عليه». وعلق على ذلك الحافظ ابن حجر بقوله: فعلى هذا؛ فجواب عمر أولاً كان بحسب الطبع، ثم تأمّل فعرف بالاستدلال أن النبي ﷺ أحب إليه من نفسه لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرى، فأخبر بما اقتضاه الاختيار، ولذلك حصل الجواب بقوله: **«الآن يا عمر»** أي: الآن عرفت فنطقت بما يجب»(٣).

---

(١) الشفا، القاضي عياض (٢/ ١٨)، وانظر: تفسير المنار (١٠/ ٢٢٥-٢٤٢) ففيه كلام متين في هذا الباب.

(٢) البخاري (٨/ ١٦١).

(٣) الفتح (١١/ ٥٢٨).

إذن فلم يكن حصول تقديم محبته ﷺ عند عمر على نفسه أمرًا جديدًا، وإنما الجديد لديه هو إدراكه لتلك المحبة والتفاته إليها، وفي هذا الحديث إشارة إلى فضيلة التفكّر. فالتفكر سبيل للوصول إلى هذه المحبة التامة، فإذا تفكر المسلم في النفع الحاصل له من جهة الرسول ﷺ، وأنه سبب نجاته في الدنيا والآخرة، وأيقن قلبه بذلك عظمت في قلبه محبة الحبيب ﷺ وقدّمه على ما سواه من المخلوقين»(١).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «محبة رسول الله على درجتين:

إحداهما فرض: وهي المحبة التي تقتضي قبول ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله، وتلقيه بالمحبة والرضا والتعظيم والتسليم، وعدم طلب الهدى من غير طريقه بالكلية، ثم حسن الاتباع له فيما بلّغه عن ربه، من تصديقه في كل ما أخبر به، وطاعته فيما أمر به من الواجبات، والانتهاء عما نهى عنه من المحرمات، ونصرة دينه، والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة. فهذا القدر لابد منه، ولا يتم الإيمان بدونه.

الدرجة الثانية: فضل: وهي المحبة التي تقتضي حسن التأسي به، وتحقيق الاقتداء بسنته، في أخلاقه وآدابه ونوافله وتطوعاته وأكله وشربه ولباسه وحسن معاشرته لأهله، وغير ذلك من آدابه الكاملة وأخلاقه الطاهرة، والاعتناء بسيرته وأيامه، واهتزاز القلب من محبته، وتعظيمه وتوقيره، ومحبة استماع كلامه وإيثاره

(١) محبة الرسول ﷺ، عبد الرءوف عثمان (٤٧-٤٩) باختصار.

على كلام غيره من المخلوقين. ومن أعظم ذلك الاقتداء به في زهده في الدنيا والاجتزاء منها باليسير منها، ورغبته في الآخرة»[١].

دواعي محبة النبي ﷺ:

فإن قلت: ما الدواعي لمحبته ﷺ؟ فالجواب: إنها كثيرة، ومنها[٢]:

١. أن حب المسلم للرسول ﷺ تابع لحبه لله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** ﴾ [آل عمران: ٣١] وهل الاتباع إلا محبة؟ ولو لم يرد في فضله إلا هذه الآية لكفاه صلوات ربي وسلامه عليه.

٢ـ أن الله تعالى أحبه واختاره من خلقه واصطفاه، فحب ما يحبه الله من لوازم محبته عز وجل.

كما في حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن الله اصطفى كِنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[٣]. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: «**مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانًا فأحسنه وأجمله، إلا**

(١) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، ابن رجب (٣٤، ٣٥) عن السابق (٤٩).

(٢) محبة الرسول ﷺ (٥٢ـ ٦١) بتصرف وزيادة واختصار.

(٣) مسلم (٤/ ١٧٨٢).

موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون به ويقولون: هلّا وضعت هذه اللبنة! قال: فأنا اللبنة[(١)] وأنا خاتم النبيين»[(٢)]. وعنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع**»[(٣)].

وشواهد حب الله تعالى لنبيه محمد ﷺ كثيرة جدًا ومنها:

أ ـ اختياره واصطفاؤه لمقام النبوة والرسالة، والله لن يختار لهذا الأمر إلا أحبهم وأرضاهم. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ب ـ تشريفه بإنزال القرآن عليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

جـ ـ إكرامه ﷺ بشرح صدره، ووضع وزره، ورفع ذكره، وغفران ما تقدم وما تأخر من ذنبه، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ١ ـ ٤]، وقال تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

---

(١) وانظر سلسلة ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾ ففيها شواهد كثيرة من كتب أهل الكتاب على هذا الحديث العظيم، واصطفاء الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بختم الأنبياء والرسل.

(٢) متفق عليه.

(٣) مسلم (٤/ ١٧٨٢).

وفي حديث الشفاعة يحيل عيسى عليه السلام الخلق على نبينا ﷺ فيأتونه ويقولون: «**يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم النبيين، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك...**»(١).

قال حسان بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

أَغَرّ عليه لِلنُّبُوَّةِ خاتَمٌ ... من الله من نورٍ يلوحُ ويشهدُ
وضَمَّ الإلهُ اسم النبي إلى اسمِهِ ... إذا قالَ في الخمسِ المؤذنُ أشهدُ
وشَقَّ له من اسمِّه لِيُجلَّهُ ... فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمدٌ(٢)

د. تكريمه بصلاة الله وملائكته عليه في الملأ الأعلى:

قال جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قال أبو العالية: «صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء»(٣).

والذي نفسي بيده لو أفنى أحدنا عمره من حين تمييزه إلى وفاته مصليًا مسَلِّمًا على نبيه ما وفّى عشر معشار حقه، صلوات ربي وسلامه وبركاته عليه بأبي هو وأمي ونفسي وولدي.

---

(١) متفق عليه.
(٢) معالم التنزيل، البغوي (٨/ ٤٦٤)، وانظر: ديوان حسان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (٤٧).
(٣) البخاري (٤٧٩٦).

هـ- تشريفه بمقامي الخلة والكلام، فقد جمعهما له سبحانه وتعالى:

كما في حديث جندب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً...**»[(١)]. وكلمه سبحانه في المعراج حينما فرض عليه الصلوات الخمس كما في حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في حديث الإسراء والمعراج الطويل وفيه: «**فأوحى إليّ ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة... فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد إنهنّ خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة...**»[(٢)].

٣- كمال رأفته ورحمته وشفقته على أمته، وحرصه على هدايتها وإنقاذها من الهلكة. حتى كادت نفسه أن تذهب أسفًا على قومه ألا يكونوا مؤمنين. قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] فقد كان يريد هداية الخلق من الثقلين، وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[(٣)] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال عز وجل: ﴿وَمَآ

(١) مسلم (١/ ٣٧٥، ٣٧٦).

(٢) متفق عليه. والإسراء والمعراج كان يقظة لا منامًا، بروحه وجسده ﷺ كما قرره أئمة السنة. انظر: زاد المعاد (١/ ٩٩).

(٣) أي يشق عليه ويؤلمه ما يشق عليكم لكمال شفقته بكم.

أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآية. وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: **«اللَّهم أمتي أمتي، وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله، فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءُك»**(١).

فلا إله إلا الله ما أكمل شفقته ورحمته ورأفته بأمته! وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا»**(٢). كذلك حديث الشفاعة العظيم وفيه: **«فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربي، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يُقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تُشفّع. فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب. فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء**

---

(١) مسلم (١/ ١٩١).

(٢) متفق عليه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الناس فيما سوى ذلك من الأبواب»[(١)]. فصلوات الله وسلامه وبركاته على هذا النبي الكريم والرسول العظيم ما دام الزمان.

وإذا قرأت سيرته تبين لك مدى حرصه ورأفته ورحمته بهذه الأمة المرحومة فلك الحمد يا ربنا على أن جعلتنا من أتباعه، اللّهم ارزقنا التوفيق لما تحب وترضى والاستنان بسنته والتأسي بهديه، وأعذنا من كل ما يزيغنا عن صراطه أو يعيقنا عن سنته يا حي قيوم يا ذا الجلال والإكرام.

وفي رواية: يذكر شفاعته فيمن كان في قلبه شعيرة من إيمان، فيشفّع، ثم يعود فيشفع لمن كان في قلبه مثقال ذرّة أو خردل من إيمان فيشفّع، ثم يعود فيشفع فيمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حب خردل من إيمان فيشفع ويخرجهم من النار - وفي كل مرة يسجد ويحمد - ثم يعود فيشفع ويقول: «**يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله**»[(٢)]، وفي رواية: «**حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن**»[(٣)].

٤- كمال نصحه لأمته وهدايته لها وإحسانه إليها:

وقد زكّاه ربه وشهد له بذلك فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ

(١) متفق عليه، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) متفق عليه، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وأخبر أن الاستجابة لرسوله حياة، فقال سبحانه وبحمده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. ولم يمت حتى تركنا على البيضاء وقال: «**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»(١). ولم يمت حتى أكمل الله تعالى به الدين فأنزل عليه في عرفة في حجة الوداع آية المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

٥ـ ما خصه الله تعالى به من كريم السجايا وجميل الخصال خَلْقًا وخُلُقًا دون غيره من البشر.

ويكفيه وصف ربه تعالى له بقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وعن سعد بن هشام بن عامر قال: أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين، أخبريني بخلق رسول الله ﷺ، قالت: كان خُلُقُهُ القرآن، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤](٢).

---

(١) أحمد (٤/ ١٢٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٦٩) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو حديث عظيم جليل، وقد أطال النفس في شرحه الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ في جامع العلوم والحكم.

(٢) أحمد (٤١/ ١٤٨) (٢٥٣٤١) وهو حديث صحيح، وفيه المبارك بن فضالة، يدلس تدليس التسوية، إلا أن ما رواه عن الحسن يحتج به على ما قال أحمد. وهذا منها، =

أسباب زيادة محبة النبي ﷺ:

بكل تأكيد هي تزيد مع زيادة الإيمان في القلب، فالقلب المملوء بالتقوى واليقين والإخبات لرب العالمين هو مملوء كذلك بحبه وحب من يحبه وبخاصة نبيه الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، وكلما تذكر القلب ذلك النبي العظيم أو ورد به طيف من ذكراه لهج مباشرة بالصلاة والسلام عليه، وربما فزّ القلب ورعشت العين فأباحت دمعها.

وإني لتعروني لذكراك هزة ... كما انتفض العصفور بَلَّلَهُ القطرُ(١)

بل ربما اضطرب عند سماع اسمه فجأة كما قيل:

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منى ... فَهَيَّج أشجان الفؤاد وما يدري

دعا باسم ليلى غيرها فكأنّما ... أطار بليلي طائرًا كان في صدري

مع الفارق الشاهق!

فمن الأسباب:

١ـ تذكر الرسول ﷺ وأحواله وأخباره وكل شأنه:

فللمعرفة ارتباط وثيق بالحب، «ودواعي الحب من المحبوب جمالُهُ، إما

=

وبقية رجاله من رجال الشيخين، وانظر: الحاكم (٢/ ٤٩٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨١١). وقد أفاض أهل العلم في التصنيف في شمائله الجميلة وأخلاقه الجليلة ودلائل نبوته الباهرة كالترمذي والبيهقي وغيرهما.

(١) لأبي صخر الهذلي، وقيل: لغيره.

الظاهر أو الباطن أو هما معًا، وقد اجتمعا في الحبيب صلوات الله وسلامه عليه، فأول دواعي الحب: النظر إما بالعين أو بالقلب، والثاني: الاستحسان، والثالث: الفكر في المنظور وحديث النفس به»(١).

فمن أراد غرس حب النبي ﷺ في أعماق قلبه كي تنمو شجرة المحبة حتى يكون أصلها ثابتًا وفرعها في السماء فليقرأ سيرته، وليبحث فيها عما يلائم طبعه من جوانب الجمال البشري الكامل في رسول الهدى ﷺ، فقد أكمل الله تعالى خَلْقَهُ وخُلُقَهُ، وعلى قدر نبل المطالع لسيرته يرتفع معه الإعجاب والحب، فلا تكتف بقراءة كتاب ولا كتابين في السيرة النبوية الشريفة، بل إن استطعت أن تلخص أحد المطولات فيها فافعل، فذلك عقار مجرب لترسيخ أحواله وأخباره في خلفية الذاكرة وأعماق الوجدان والمشاعر.

يـــزور فتـــنجلي عنـــي هُمُـــومي	لأن جِـــلَاءَ حُـــزني في يديـــه
ويمـــضي بالمـــسرَّةِ حـــين يمـــضي	لأن حـــوالتي فيهـــا عليـــهِ

قال ابن القيم: «وحدثني شيخُنا(٢) قال: ابتدأني مرضٌ، فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض. فقلت له: لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك؛ أليست النفس إذا فرحت وسُرَّت قويت الطبيعةُ فدفعت المرض؟ قال: بلى، فقلت له: فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم، فتقوى به الطبيعة، فأجد

---

(١) روضة المحبين (٨٦).

(٢) إذا أطلق شيخه فالمراد ابن تيمية رحمهما الله.

راحة. فقال: هذا خارج عن علاجنا، أو كما قال.

فمحبة صفات الكمال من أنفع المحبة وأعلاها، وإنما يكون بالمناسبة التي بين الروح وتلك الصفات، ولهذا كان أعلى الأرواح وأشرفها أعلاها وأشرفها محبوبًا، كما قيل:

أنت القتيلُ بكل من أَحْببتَهُ ... فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي»[١]

ومحبة رسول الله ﷺ أجلّ من الهوى ومراتبه، ولكن من باب ضرب المثال للحب الجامع.

٢. كثرة الصلاة والسلام عليه:

ولهذه أثر عجيب في سقي شجرة المحبة، يعرفه من ذاقه، وقد سمعت الشيخ أبا بكر الجزائري رحمه الله ليلة يقول: إني لأصلي على رسول الله ﷺ في اليوم والليلة ثلاثة آلاف مرة، فإذا كان ليلة الجمعة ويومها صليت عليه سبعة آلاف مرة.

ويروى أن محمد الحامد الحموي رحمه الله أنه كان يصلي على رسول الله ﷺ في اليوم ألف مرة لا تفوت أبدًا، وفاتته مرة حينما كان مريضًا فقضاها في الليل، ثم لفظ أنفاسه مع آخر واحدة منها، رحمه الله تعالى. ومراد العلماء من هذه الأعداد التنظيم وضبط النفس بالذكر لا التعبد بالعدد المذكور، لذا فالأفضل أن يزيد أحيانًا عن ورده حتى لا تشوبه شائبة التعبد بالعدد.

---

(١) روضة المحبين (٦٨، ٦٩).

ويكفي في فضل ذلك أمر الله تعالى عباده به في محكم التنزيل فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وهذا أمر بدأ الله تعالى فيه بنفسه وثنى بملائكته المسبحة بقدسه، ثم أَيَّهَ بعباده المحظيين بأُنسِه وأمرهم بالصلاة عليه والتسليم. وقال عليه الصلاة والبركات والتسليم: «**من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرًا**»(١)، وقال ﷺ: «**والبخيل من ذُكرتُ عندَهُ فلم يصلّ عليّ**»(٢)، وعن أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قلت: يا رسول الله، إني أُكثِر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «**ما شئت**»، قلت: الربع؟ قال: «**ما شئت، وإن زدت فهو خير لك**»، قلت: النصف؟ قال: «**ما شئت، وإن زدت فهو خير لك**»، قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «**إذن تكفي همك ويغفر ذنبك**»(٣).

ومعنى كم أجعل لك من صلاتي؟ قال ابن القيم: «وسئل شيخنا أبو العباس ابن تيمية رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن تفسير هذا الحديث فقال: كان لأُبيّ دعاء يدعو به لنفسه، فسأل النبي ﷺ: هل يجعل له منه ربعه صلاة عليه ﷺ - فذكر الحديث - إلى أن قال: أجعل لك صلاتي كلها؟ أي: أجعل دعائي كله صلاة عليك؟ قال: «**إذن تكفي همك ويغفر لك ذنبك**» لأنه من صلى على النبي ﷺ صلاة، صلى الله عليه بها

---

(١) رواه مسلم (١/ ٢٨٨).

(٢) الترمذي (٣٥٤٦) وقال: حسن صحيح غريب.

(٣) أحمد (٥/ ١٣٦)، الترمذي (٢٤٥٧) ويميل ابن باز إلى تضعيفه (مجموع فتاوى ابن باز ٨/٣١٣).

عشرًا، ومن صلّى الله عليه كفاه همّه، وغفر له ذنبه. هذا معنى كلامه»[١] والصلاة هي الدعاء.

وفي كيفيات الصلاة عليه قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من ذلك قوله ﷺ لما سُئل عن كيفية الصلاة عليه، قال: «**قولوا: اللّٰهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد**»[٢]. وفي لفظ آخر قال: «**قولوا: اللّٰهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد**»[٣]، وفي لفظ عنه أنه قال لهم لمّا أخبرهم بكيفية الصلاة قال: «**والسلام كما عُلِّمْتُمْ**»[٤]، يشير بذلك إلى ما علّمهم إياه في التحيات، وهو قوله: «**السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**» وفي آخر عنه ﷺ أنه قال لهم: «**قولوا: اللّٰهم صلّ على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد**»[٥].

وهذه الكيفيّات المذكورة هي أصحّ ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام في

---

(١) جلاء الأفهام، ابن القيم (٣٤) وهذا من نفيس الفقه.

(٢) مسلم (٤٠٥).

(٣) متفق عليه، وتمامه: «**اللّٰهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد**» واللفظ لمسلم (١/ ٣٠٦).

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

كيفية الصلاة عليه، وهي كافية عمّا أحدثه الناس من أنواع الصلاة والسلام عليه ﷺ، وهي أفضل مما أحدثوا»[١].

وقال ﷺ: «**أكثروا علي من الصلاة ليلة الجمعة ويوم الجمعة، فإن صلاتكم معروضة عليّ**» قالوا: كيف تُعرض عليك صلاتنا وقد أَرِمْتَ. أي بليت؟ قال: «**إن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[٢]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة**»[٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**رَغِمَ أنف رجل ذُكِرْتُ عنده فلم يُصل عليّ**»[٤]، وقال ﷺ: «**ما من أحد يسلّم علي إلا ردّ الله علي روحي حتى أَرُدَّ عليه السلام**»[٥]، وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يُمجِّدِ الله تعالى، ولم يصلّ على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**عَجِلَ هذا**» ثم دعاه فقال له ـ أو لغيره ـ: «**إذا صلى أحدُكم فليبدأ بتحميد ربِّه سبحانه، والثناء عليه، ثم يصلّي على النبي ﷺ ثم يدعو بعدُ بما**

---

(١) فتاوى ابن باز (٨/ ٣١٣، ٣١٤).

(٢) أحمد (٤/ ٨) (١٦٢٦٢)، وأبو داود (١٠٤٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢١٢)، وشعيب الأرناؤوط.

(٣) الترمذي وحسّنه (٤٨٤).

(٤) الترمذي وحسّنه (٣٥٤٥)، والمعنى: دعاء عليه بأن يوضع أنفه في الرّغام وهو التراب.

(٥) أبو داود (٢٠٤١).

شاء»[١].

٣. الاشتغال بهديه وسنته قولاً وعملاً، باطنًا وظاهرًا:

لذلك كان أهل الحديث لهم حظ وافر من محبته لاشتغالهم بسنته قولاً وعملاً، وكلما ازدادت المحبة دقّ الاتفاق طردًا وعكسًا.

٤. تأمل عظيم نعمة الله تعالى ببعثته ورسالته صلوات الله وسلامه عليه:

قال شوقي[٢]:

وُلِدَ الهُدَى فالكائناتُ ضياءُ ... وَفَمُ الزمان تبسُّمٌ وثناءُ
وعليه من نور النبوَّة رونقٌ ... ومن الخليلِ وهديِهِ سيماءُ
يومٌ يتيهُ على الزمانِ صَبَاحهُ ... ومساؤُهُ بمحمدٍ وَضَّاءُ
زانتكَ في الخلقِ العظيم شمائلٌ ... يُغرى بهنّ ويُولعُ الكرماءُ
فإذا عفوت فقادرًا ومقدّرًا ... لا يستهين بعفوك الجهلاءُ
وإذا رحمتَ فأنت أمٌّ أو أبٌ ... هذان في الدنيا هما الرحماءُ
وإذا غضبت فإنما هي غضبةٌ ... في الحقِّ لا ضغنٌ ولا بغضاءُ
وإذا رضيتَ فذاك في مرضاتِهِ ... ورضى الكثيرِ تَحَلُّمٌ ورياءُ

---

(١) أبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٣٤٧٧)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني والأرنؤوط والأعظمي.

(٢) مع احتواء القصيدة الأصلية على ما لا يجوز من الغلوّ فيه ﷺ، لذا لم أورد منها إلا ما سلم من المحاذير شرعًا.

وإذا خطبت فللمنابرِ هزةٌ ... تَعْرُو النديَ وللقلوب بكاءُ
وإذا حميتَ الماءَ لم يورد ولو ... أنَّ القياصر والملوك ظماءُ
وإذا ملكتَ النَّفس قمتَ بِبِرِّهَا ... ولو أنَّ ما ملكت يداكَ الشاءُ
وإذا صحبتَ رَأى الوفاءَ مُجَسَّمًا ... في بُرْدِكَ الأصحاب والخُلَطَاءُ
وإذا أخذتَ العهد أو أعطيتَهُ ... فجميع عهدكَ ذِمَّةٌ ووَفَاءُ
الذِّكْرُ آيةُ ربّكَ الكبرى التي ... فيها لباغي المعجزات غناءُ
صَدْرُ البيانِ له إذا التقتِ اللُّغَى ... وتقدَّم البلغاءُ والفصحاءُ
لمّا تمشَّى في الحجاز حكيمُهُ ... فُضَّتْ عكاظُ به وقام حراءُ
أزرى بمنطقِ أهلِهِ وبيانهمْ ... وَحْيٌ يقصر دونَهُ البُلَغاءُ
حَسَدُوا فقالوا شاعرٌ أو ساحرٌ ... ومن الحسودِ يكونُ الاستهزاءُ
أما حديثُكَ في العقول فمشرع ... والعلمُ والحكمُ الغوالي الماءُ
لمّا دعوتَ الناسَ لبَّى عاقلٌ ... وأصمَّ منك الجاهلينَ نداءُ
أبَوُا الخروج إليكَ من أوهامهم ... والناس في أوهامهم سجناءُ
ومن العقول جَداولٌ وجَلَامِدٌ ... ومن النفوس حرائرٌ وإماءُ
صلّى عليك الله ما صَحِبَ الدُّجَى ... حَادٍ وحَنَّتَ بالفلا وجناءُ

مظاهر محبة الرسول ﷺ:

١. طاعته ﷺ واتباعه(١).

٢. تعظيمه وتوقيره والأدب معه بلا غلو ولا جفاء. كما قال تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال ابن جرير في آية الفتح: «معنى التعزير في هذا الموضع: التقوية بالنصرة والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال»(٢).

وقال شيخ الإسلام: «التعزير: اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه. والتوقير: اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من التشريف والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حدّ الوقار»(٣).

«وقد أجمع العلماء على وجوب قتل من سبّ الرسول ﷺ، أو عابه، أو ألحق به نقصًا في نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله، أو عرّض به، أو شبّهه بشيء على

---

(١) انظر: محبة الرسول ﷺ (٦٥-٩٠).

(٢) جامع البيان، الطبري (٢٦/ ٧٥).

(٣) الصارم المسلول على شاتم الرسول، ابن تيمية (٤٢٢).

طريق السب له، والإزراء عليه، أو التحقير لشأنه.

فحكم من أتى بذلك أن يُقتل بلا استتابة؛ لأنه آذى رسول الله ﷺ بما يستوجب إهدار دمه إن كان مسلمًا، ونقض عهده وقتله إن كان ذِمِّيًا»[(١)].

ومن نصر الرسول ﷺ: نصرُ دينه، والذب عن شريعته، ودفع كيد الكائدين وطعن الطاعنين في سنته وشريعته وسيرته، وإظهار دينه وإشهاره والدعوة إليه والجهاد لإظهاره وإعلائه على ما سواه.

ومن نصر الرسول ﷺ: نصر الداعين إلى شريعته وتكثير سوادهم وإعانتهم والتواصي معهم بالحق والصبر.

٣- كثرة تذكره وتمنّي رؤيته والشوق إلى لقائه والاجتماع به:

فمن أحب شيئًا أكثر من ذكره، ولا يكون ذلك إلا إذا شغلت المحبة قلب المحب وفكره.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أشد أمتي لي حُبًّا؛ ناسٌ يكونون بعدي، يودُّ أحدُهم لو رآني بأهلِهِ وماله»**[(٢)].

ولما قدم الأشعريون المدينة كانوا يرتجزون:

---

(١) ينظر: الشفا، القاضي عياض (٢/ ٢١٤)، الصارم المسلول، ابن تيمية (٤١٨، ٤١٩) عن محبة الرسول ﷺ (٨٢).

(٢) مسلم (٤/ ٢١٧٨).

غدًا نلقى الأحبة، محمدًا وصحبه[(١)]

ولما احتضر بلال نادته امرأته: واويلاه. وهو يقول: وافرحاه، غدًا نلقى الأحبة، محمدًا وحزبه[(٢)]، فمزج مرارة الموت بحلاوة الشوق إلى رسول الله ﷺ ومن تقدم من أصحابه رضوان الله عليهم.

وكان خالد بن معدان الكلاعي ـ وهو من أعلام التابعين وخيار الصالحين وقد أدرك سبعين صحابيًّا ـ لا يأوي إلى فراشه إلا وهو يذكر شوقه إلى رسول الله ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار، ثم يسميهم ويقول: هم أصلي وفصلي، وإليهم يحنّ قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل ربي قبضي إليك. حتى يغلبه النوم[(٣)].

٤ـ محبة آل بيته وزوجاته وقرابته وصحابته ﷺ:

وقد أوصانا في أهل بيته خيرًا، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أذكركم الله في أهل بيتي**»[(٤)]، وقال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ارقبوا محمدًا ﷺ في أهل بيته[(٥)].

---

(١) أحمد (٤/ ١٠٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢/ ٥٠).

(٢) تهذيب تاريخ دمشق (٣/ ٣١٧).

(٣) تهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٩٠). فالنهي عن تمني الموت خاص بمن أصابه الضر، لا بمن اشتاق للآخرة، والله أعلم.

(٤) مسلم (٤/ ١٨٧٣).

(٥) البخاري (٥/ ٢٦).

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل مسلم في قلبه محبة لله ورسوله، لا يدخل في الإسلام إلا بها، والناس متفاوتون في درجات هذه المحبة تفاوتًا لا يحصيه إلا الله، فبين محبة الخليلين ومحبة غيرهما ما بينهما.

فهذه المحبة التي تُلطّف الروح، وتُخفّف أثقال التكاليف، وتُسخّي البخيل، وتشجّع الجبان، وتصفّي الذهن، وتروّض النفس، وتطيّب الحياة على الحقيقة، لا محبة الصور المحرمة. وإذا بُليت السرائر يوم اللقاء، كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد، كما قيل:

سيبقى لكم في مضمرِ القلبِ والحشا　　　سريرةُ حُبٍّ يوم تُبلَى السرائرُ(١)

وهذه هي المحبة التي تنوّر الوجه، وتشرح الصدر، وتحيي القلب.

وكذلك محبة كلام الله، فإنه من علامة محبة الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله؛ فانظر إلى محبة القرآن من قلبك، والتذاذِك بسماعه

(١) للأحوص الأنصاري.

أعظم من التذاذِ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أن من أحب محبوبًا كان كلامه وحديثه أحبَّ شيءٍ إليه، قال عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لو طهرتْ قلوبنا لما شبعَتْ من كلام الله»(١).

فلمحبّي القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعافُ ما لمحبّي السماع الشيطاني، فإذا رأيت الرجل ذوقهُ ووجْدَهُ وطربَهُ ونشوتَهُ في سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن، فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه(٢)، وتعلّقه بمحبة سماع الشيطان. والمغرور يعتقد أنه على شيء!

ففي محبة الله وكلامه ورسوله أضعاف أضعاف الفوائد والمنافع، بل لا حُبَّ على الحقيقة أنفع منه، وكل حب سوى ذلك باطل إن لم يُعِنْ عليه ويشوِّق المحب إليه»(٣).

وقال شيخ الإسلام: «ومحبة الرسول ﷺ وجبت لمحبة الله كما في قوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، وكذلك محبة صحابته

(١) عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد (٦٧٨)، والحلية لأبي نعيم (٧/ ٢٧٢).

(٢) أي المحبة الواجبة دون أصل المحبة، فالعصيان لا ينافي أصل المحبة. كما في حديث نهيه ﷺ عن لعن شارب الخمر، وعلل ذلك بقوله: **«لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»** البخاري (٦٧٨٠)، فأصل المحبة موجود لكنها ناقصة بدليل تخلف لازمها وهو كمال الاتباع والاستقامة.

(٣) الداء والدواء، ابن القيم (٥٤٨، ٥٤٩) باختصار.

وقرابته، كما في الصحيح عن النبي ﷺ قال: **«آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»**[(١)]، وقال: **«لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر»**[(٢)]، وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنه لعهد النبي الأمي إلي أنه لا يُحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق»[(٣)]، وفي السنن أن النبي ﷺ قال للعباس: **«والذي نفسي بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرابتي»**[(٤)] يعني بني هاشم»[(٥)].

---

(١) متفق عليه.

(٢) مسلم (١/ ٨٦).

(٣) مسلم (١/ ٦٠) (١٥٢) وهو مما أعلها الدارقطني في التتبع (ص٤٢٧) لأنه من طريق عدي بن ثابت وهو شيعي، وهذا الحديث مما يوافق بدعته، لذلك لم يخرجه البخاري. وقد صححه الألباني في المشكاة (٦٠٧٩) والأرناؤوط.

(٤) الحاكم (٤/ ٧٥) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦١٢٥).

(٥) الفتاوى (١٠/ ٦٥) باختصار.

عوارض وآفات في طريق المحبة الحقّ

المحبة الحقيقية الصادقة هي المبنية على تصوّر سليم واعتقاد صحيح، وهي التي تثمر التعبد المستقيم والقلب السليم والقول الزكي والفعل القويم، لذا فلابد من مراعاة المنهج الصحيح والصراط المستقيم في السير والرحلة إلى الله والدار الآخرة، وهو طريق مزدحم بالتحديات و العراقيل الحائلة بين المسافر وغايته وهذه بعض الآفات التي قد تعترض المؤمن، فمن الخير له أن يعلمها ويلمّ بها كي يكون على حيطة وحذر ومراقبة وانتباه، فالحازم الفَطِن والكيّس اللقن هو من أعدّ العدة وجهّز الزاد ووفقه ربّه وأسبل عليه ألطافه وأسبغ عليه نعمه الدينية من التوفيق والهداية والتثبت والتيسير حتى يلقاه وهو عنه راضٍ. نسأل الله الكريم من فضله ونعوذ به من سخطه. فمن الآفات:

١ـ الإعراض عن مصدر التلقي السليم المستقيم وهو الوحي الرباني كتابًا وسنة:

وهذا السبب هو أصل الضلالة ومنه انبثقت السُّبُل الشيطانية التي تنكبت جادة الحق[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أولاً أن كل حال وذوق ووجد وشهود لا

(١) الكلام عن مصادر التلقي عند أهل السنة والجماعة كثير، وسنقصر الكلام حول موضوع السلوك لعلاقته المباشرة مع المحبة، وليعتبر النبيه به على ما شابهه.

يشرق عليه نور العلم المؤيد بالدليل؛ فهو من عبث النفس وحظوظها... وليس من الإنصاف ردّ العلم الصحيح بمجرد الذوق والحال، وهذا أصل الضلالة، ومنه دخل الداخل على كثير من السالكين في تحكيم أذواقهم ومواجيدهم على العلم، فكانت فتنة في الأرض وفساد كبير، وكم قد ضل وأضل مُحَكِّمُ الحال على العلم! بل الواجب تحكيم العلم على الحال، ورد الحال إليه، فما زكّاه شاهد العلم فهو المقبول، وما جرحه شاهد العلم فهو المردود. وهذه وصية أرباب الاستقامة من مشايخ الطريق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، كُلَّهم يوصون بذلك، ويخبرون أن كل ذوق ووجد لا يقوم عليه شاهدان اثنان من العلم فهو باطل»[١].

وقال أيضًا: «كل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب وما جاء به الرسول ﷺ فهو شيطاني كائنًا من كان»[٢].

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى معلقًا على كلام رويم «كل الخلق قعدوا على الرسوم، وقعدت هذه الطائفة على الحقائق، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع، وطالبوا هم أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق»... قال: «وعلى هذا كان أوائل القوم، فلبّس إبليس عليهم في أشياء، ثم لبّس على من بعدهم من تابعيهم، وكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني، فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكّن من المتأخرين غاية التمكّن.

وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم، وأراهم أن المقصود العمل،

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم (٢/ ٧٠٦)، وانظر (٢/ ٥٤٧)، والمدارج (٢/ ٢٨٨).
(٢) الروح (٢/ ٧٧٣).

فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات، فمنهم من أراه أن المقصود ترك الدنيا في الجملة؛ فرفضوا ما يصلح أبدانهم، وشبّهوا المال بالعقارب، ونسوا أنه خُلق للمصالح، وبالغوا في الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع. وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة. وفيهم من كان لقلّة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري.

ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات، وصنّفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي. وجاء آخرون[١] فهذّبوا مذهب التصوّف، وأفردوه بصفات ميزوه بها من الاختصاص بالمرقعة[٢] والسماع[٣] والوجد، والرقص، والتصفيق، وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة. ثم مازال الأمر ينمي والأشياخ يضعون لهم أوضاعًا ويتكلمون بواقعاتهم، ويتفق بُعْدُهم عن العلماء، لا بل رؤيتهم ما هم فيه أو في العلوم حتى سموه العلم الباطن، وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر.

ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة، فادّعى عشقَ الحقِّ والهَيَمَان فيه، فكأنهم تخايلوا شخصًا مستحسن الصورة فهاموا به، وهؤلاء بين الكفر

---

(١) تتبع الدكتور عمر فرّوخ أطوار التصوف وقسمها إلى نهاية القرن العاشر إلى خمسة أدوار. التصوف في الإسلام، عمر فرّوخ (٥٩-٩٣) مع التنبه إلى بعض الأخطاء العقدية في الكتاب، فلعل الدكتور يراجعها على مذهب السلف لأنه كتاب رائد في مجاله، هدانا الله جميعًا سبيل الموفقين.

(٢) وهي الخرقة، ولها قانون واجب ومستحب عند أهل الطريقة.

(٣) أي سماع الأبيات المرققة أو المطربة.

والبدعة.

ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق، ففسدت عقائدهم، فمنهم من قال بالحُلول، ومنهم من قال بالاتحاد!

ومازال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سُننًا. وجاء أبو عبد الرحمن السُّلمي فصنّف لهم (كتاب السنن) وجمع لهم (حقائق التفسير)، فذكر عنهم فيه العجب من تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم، وإنما حملوه على مذاهبهم، فالعجب من ورعهم في الطعام وانبساطهم[١] في القرآن!

وقال محمد بن يوسف القطان: كان أبو عبد الرحمن السلمي غير ثقة، وكان يضع للصوفية الأحاديث.

وصنّف لهم أبو نصر السَّرَّاج (لُمَع الصوفية) ذكر فيه من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول ما سنذكرُ منه جملة إن شاء الله.

وصنف لهم أبو طالب المكي (قوت القلوب) فذكر فيه الأحاديث الباطلة والاعتقاد الفاسد.

وجاء أبو نعيم الأصبهاني فصنف لهم (الحلية) وذكر في حدود التصوّف أشياء قبيحة.

وصنّف لهم القشيري (الرسالة) فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء

(١) أي تساهلهم في تفسيره بلا قواعد شرعية مرعية إنما هي الأذواق ومستحسنات التجارب والنظر الذي لا يخلو من قصور وجهالة.

والبقاء والقبض والبسط، ونحو ذلك من التخليط الذي ليس بشيء، وتفسيره أعجبُ منه!

وجاء محمد بن طاهر المقدسي فصنف لهم (صفوة التصوف) فذكر لهم فيه أشياء يستحي العاقل من ذكرها.

وجاء أبو حامد الغزالي فصنّف لهم (الإحياء) على طريقة القوم، وملأه بالأحاديث الباطلة، وهو لا يعلم بطلانها، وتكلّم في علم المكاشفة(١)، وخرج عن قانون الفقه.

وجمهور هذه التصانيف التي صنفت لهم لا تستند إلى أصل، وإنما هي واقعات تلقفها بعضهم عن بعض ودوّنوها، وقد سمّوها بالعلم الباطن(٢).

وقد سئل أحمد بن حنبل عن الوساوس والخطرات، فقال: ما تكلم فيها الصحابة ولا التابعون. وحينما سمع كلام الحارث المحاسبي قال لصاحب له: لا أرى لك أن تجالسهم.

---

(١) قال شيخ الإسلام في رده على تقرير الغزالي للمكاشفة وتقديمها على السمع الذي قرره في: (الإحياء ١/ ١٠٤): هذا لا يُستفاد من خبر الرسول ﷺ شيء من الأمور العلمية، بل إنما يدرك ذلك كل إنسان بما حصل له من المشاهدة والنور والمكاشفة، وهذان أصلان للإلحاد، فإن كل ذي مكاشفة؛ إن لم يزنها بالكتاب والسنة وإلا دخل في الضلالات» درء التعارض (٥/ ٣٤٨) عن هامش تحقيق تلبيس إبليس، د/أحمد المزيد (٣/ ٩٦٥).

(٢) انظر مناقشة ذلك: من قضايا التصوف، د/الجليند (٤٧)، مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، إدريس إدريس (١/٨٩- ٩٨).

وقال أبو زرعة وسئل عن الحارث المحاسبي وكتبه: إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب. فقيل له: في هذه الكتب عبرة. قال: من لم يكن له في كتاب الله عز وجل عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة.

وقد كان أوائل الصوفية يقرّون بأن التعويل على الكتاب والسنة، وإنما لبّس الشيطان عليهم لقلّة العلم.

فقد قال الجنيد: قال أبو سليمان الداراني: ربما تقع في قلبي النكتة من نُكَتِ القوم أيامًا، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين؛ الكتاب والسنة.

وقال أبو يزيد البسطامي: لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى يُرفع في الهواء؛ فلا تغترّوا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود.

وقال سريّ السقطي: من ادّعى باطن علم ينقض ظاهر حكم فهو غالط.

وقال الجنيد ـ شيخ الطائفة ـ: مذهبنا هذا مُقيّدٌ بالأصول: الكتاب والسنة، وقال أيضًا: علمُنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقّه. لا يُقتدى به.

وقال أبو بكر الشقّاق: من ضيّع حدود الأمر والنهي في الظاهر؛ حُرم مشاهدة القلب في الباطن.

وقال أبو الحسين النوري لبعض أصحابه: من رأيته يدّعي مع الله حالةً تُخرجه عن حدِّ علم شرعي فلا تقربنّه، ومن رأيته مدّعيًا حالة لا يدل عليها دليل ولا يشهد لها حفظٌ ظاهر فاتهمه على دينه.

وقال الجريري: أمرنا هذا كله مجموع على فضلٍ واحد، وهو أن تُلزِمَ قلبك المراقبة، ويكون العلم على ظاهرك قائمًا.

وقال أبو حفص النيسابوري: من لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا تعدّه في ديوان الرجال»[١][٢].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: المهتدون من مشايخ العُبّاد والزهاد يوصون باتباع العلم المشروع، كما أن أهل الاستقامة من العلماء يوصون بعلمهم الذي يسلكه أهل الاستقامة من العبّاد والزهاد[٣].

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن العقل، وهات الذوق والوجد، فاعلم أن إبليس قد ظهر بصورة بشر، أو قد حلّ فيه، فإن جَبُنْتَ منه فاهرب، وإلا فاصرعه، وابرك على صدره، واقرأ عليه آية الكرسي، واخنقه»[٤].

وقال يونس بن عبد الأعلى الصوفي: «قلت للشافعي: كان الليث بن سعد يقول: لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء ما قبلته. قال: قصّر، لو رأيته يمشي

(١) تلبيس إبليس، ابن الجوزي (٩٤٢-٩٩٦) باختصار.

(٢) وانظر موقف ابن الجوزي من الصوفية، صالح المقوشي (٢٦٩-٣١٥) في بيان جهود بعض شيوخ الصوفية في رد أتباعهم إلى الكتاب والسنة.

(٣) الاستقامة، ابن تيمية (١/ ١٠٠).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٧٢).

في الهواء لما قبلته»[(١)]. وقال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء، فلا تصدّقوه حتى تعلموا متابعته لرسول الله ﷺ.

قلت: وفي الدجال الأكبر أعظم العبر، فمهما أُعطي المخرقون فلن يأتوا بمثل مخاريقه، فهل نصدق الدجال؟! اللّهم غُفّر!

وقد قال أبو يزيد البسْطَاميّ: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يُرفع في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وآداب الشريعة[(٢)].

ويُحكى أن الجنيد لما قام يصلي من الليل انشق بين يديه الجدار عن سحابة فوقها كرسي عليه رجل وضيء وقال: يا أحمد أنا ربك قد أسقطت عنك الصلاة! فبصق عليه، وقال: اخسأ يا شيطان أعوذ بالله منك، إنا لن نرى ربنا حتى نموت، فذهب الشيطان، فلو لم يكن عنده علم لهلك.

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٠/ ٢٣)، وانظر: تلبيس إبليس (٣٤).

(٢) الحلية، أبو نعيم (١٠/ ٤٠)، وعلى ذلك جرى المتقدمون من أرباب الزهد والتعبد كالفضيل، وإبراهيم بن أدهم، والجنيد، وسهل بن عبد الله، والدارامي، وحاتم الأصم وغيرهم، ولهم كلام وافر في التحذير من الزيغ عن طريق الكتاب والسنة، وأنه مهما زيّن الذوق فلا قبول له ما لم تقبله الشريعة. وانظر شواهد من ذلك في الاستقامة لشيخ الإسلام (٢/ ٨١، ٥٩٥، ٦٥٠)، والمدارج لابن القيم (٢/ ٣٤٨). ومجلد السلوك من الفتاوى لشيخ الإسلام وهو العاشر، وكذلك التصوف وهو المجلد الحادي عشر.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتجد كثيرًا من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه وليًّا لله؛ أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة، مثل أن يشير إلى شخص فيموت، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها، أو يمشي على الماء أحيانًا، أو يملأ إبريقًا من الهواء، أو يُنفق بعض الأوقات من الغيب، أو أن يختفي أحيانًا عن أعين الناس، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت، فرآه قد جاءه وقضى حاجته، أو يُخبر الناس بما سُرق لهم، أو بحال غائب لهم، أو مريض أو نحو ذلك من الأمور، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدلّ على أن صاحبها وليٌّ لله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء؛ لم يُغْتَرَّ به حتى تُنظر متابعته لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموافقته لأمره ونهيه.

وكرامات أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور، وهذه الأمور الخارقة للعادة وإن كان قد يكون صاحبها وليًا لله، فقد يكون عدوًا لله، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يظنَّ أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه وليٌّ لله! بل يُعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة، ويُعرفون بنور الإيمان والقرآن، وبحقائق الإيمان الباطنة، وشرائع الإسلام الظاهرة»[1].

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية (١٦٨، ١٦٩).

وقال أيضًا في ردّه على البكري[(١)]: «وحجتهم أن طائفة من الناس استغاثوا بحي أو ميت، فرأوه قد أتى في الهواء، وقضى بعض تلك الحوائج، وأخبر ببعض ما سئل عنه، وهذا كثير واقع في المشركين الذين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين والكواكب والأوثان، فإن الشياطين كثيرًا ما تتمثل لهم فيرونها قد تخاطب أحدهم ولا يراها. ولو ذكرت ما أعلم من الوقائع الموجودة في زماننا هذا لطال المقام، وكلما كان القوم أعظم جهلاً وضلالًا، كانت هذه الأحوال الشيطانية عندهم أكثر»[(٢)].

إن تحرير مصدر التلقي للمؤمن في باب المحبة وغيرها من أمور الدين كافة ضرورة لا غنى له عنها، وبحمد الله فلم يتركنا الله هَمَلاً، بل هدانا بكتاب مبين ونبي كريم، لم يمت حتى تركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك. قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤]، وقال جل ذكره: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال عز وجل: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى

---

(١) ويسمى كتابه كذلك (الاستغاثة) وهو نفيس جدًّا، وموضوعه هدم صروح المشركين وهتك شبههم بتزيينهم أنواعًا من الشرك في اتخاذ الوسائط والشفعاء مما لم يأذن به الله، وفي نفس الباب كتاب تلميذه ابن عبد الهادي في الصارم المنكي، وللألباني كتاب كذلك في التوسل، رحم الله الجميع.

(٢) الاستغاثة (الرد على البكري) ابن تيمية (٢/ ٤٨٠) عن مجانبة أهل الثبور، عبد الغني الراجحي (١/ ٢١٠)، وانظر: الفتاوى (١١/ ٢٩٩ وما بعدها).

ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. وقال أبو ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرّك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علمًا»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «وتزكية النفوس مسلّم إلى الرسل وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليمًا وبيانًا، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢].

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشدّ، فمن زكّى نفسه بالرياضة والمشاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرسل، فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرف الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم، والله المستعان»(٢).

وإذا كان عامة من ضل في باب الاعتقاد بسبب الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ، فكذلك الضلال في باب السلوك، إنما كان ناشئًا في الجملة بسبب

---

(١) أحمد (٥/ ١٥٣).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣١٥) عن رسالة معالم في السلوك وتزكية النفوس، د/عبدالعزيز آل عبد اللطيف. وسألخص بعض مهماتها في هذه الصفحات.

الإعراض عن نصوص الوحيين، كما هو ظاهر في متأخري الصوفية وأرباب الطرق المحدثة(١)، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل به؛ ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة... ثم تلا هذه الآية(٢).

بل إن البدع في باب السلوك أكثر من البدع الاعتقادية(٣). ثم زاد الأمر بأرباب الطرق الصوفية(٤) فسمّوا ما أحدثوه من البدع «حقيقة»، فطريق الحقيقة

---

(١) انظر: العقل والنقل، ابن تيمية (١/ ٥٤، ١٦٦، ٢٠٩)، الفتاوى (٣/ ٣١٤)، شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (١/ ٨ وما بعدها).

(٢) المستدرك (٢/ ٣٨١) ووافقه الذهبي.

(٣) انظر: الفتاوى (١٩/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٤) يتميز شيخ الإسلام بتوخي الإنصاف مع كل من حاورهم أو ناكفهم أو نقدهم، وممن أكثر من نقدهم المتصوفة، وقد قال في شأنهم منصفًا: «قد تنازع الناس في الصوفية والتصوف، فطائفة ذموا وقالوا: إنهم مبتدعون، خارجون عن السنة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام. وطائفة غلت فيهم، وادعوا أنهم أفضل الخلق، وأكملهم =

عندهم هو السلوك الذي لا يتقيّد صاحبه بأمر الشارع ونهيه، بل قدّموا أذواقهم ومواجيدهم وكشوفاتهم الباطلة على نصوص الوحيين[(١)]. قال شيخ الإسلام: «من عارض كتاب الله وجادل فيه بما يسميه معقولات وبراهين وأقيسة، أو ما يسميه مكاشفات ومواجيد وأذواق، من غير أن يأتي على ما يقوله بكتاب منزل فقد جادل في آيات الله بغير سلطان، وهذا حال الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، فهذه حال من يجادل في آيات الله مطلقًا»[(٢)].

وقال ابن القيم: «وعامّة من تزندق من السالكين فلإعراضه عن دواعي

=

بعد الأنبياء، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد ويخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاصٍ لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم، كالحلاج مثلاً؛ فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق، مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره. كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبدالرحمن السلمي في طبقات الصوفية». الفتاوى (١١/ ١٨، ١٩).

(١) معالم في السلوك، آل عبد اللطيف (١٨، ١٩).

(٢) الاستقامة (١/ ٢).

العلم، وسيره على جادة الذوق والوجد، ذاهبة به الطريق كل مذهب. فهذه فتنته، والفتنة به شديدة»[١].

وليس هذا فحسب، بل أوغلوا في الانحراف والإعراض عن هدي الله تعالى، حتى قال قائلهم: حدثني قلبي عن ربي. وقال الآخر: أنتم تأخذون علمكم من حي يموت (أي نصوص الوحي)، ونحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت (أي عن طريق الإلهام والذوق والكشف الزائف)! وقال آخر: العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل! وقال الآخر: إذا رأيت الصوفي يشتغل بأَخْبَرَنَا وحَدَّثَنا فاغسل يدك منه!

فلما أعرض هؤلاء عن الطريقة النبوية السلفية[٢] تلاعب بهم الشيطان، فأوقعهم في الإفراط والتفريط، فتراهم أصحاب تشدد وتنطع، وغلو في التعبد، ورهبانية محدثة، ثم في المقابل تجدهم أهل سماع بدعي وطرب ورقص وتصفيق وغناء، ومصاحبة للأحداث والمردان وعشق الصور المحرمة!

قال شيخ الإسلام: «ولقد حدثني بعض المشايخ أن بعض ملوك فارس قال لشيخ رآه قد جمع الناس على مثل هذا الاجتماع (رقص وغناء): يا شيخ! إن كان

---

(١) المدارج (١/ ١٥٨).

(٢) نعم، فكل مسلم سلفي، بمعنى أن يعبد الله على ما كان عليه السلف، وقدوتهم وإمامهم هو النبي ﷺ، فيصلي كما يصلي نبيه ويحج كما يحج ويدور مع أمره ونهيه حيث دار امتثالاً ومع خبره مصدقًا، فهذا هو السلفي المستقيم والمسلم القويم. وقد بسطت ذلك في كتاب: (ولا تنازعوا فتفشلوا).

هذا هو طريق الجنة، فأين طريق النار»[(١)]!

وقد يبتلى المؤمن ببيئة منحلّة ومجتمع فاسد، وليس عنده من العلم والعزم والقدرة ما يؤهله للطريقة السنيّة المرضية والإسلام الخالص الصافي من أكدار البدع ولوثات الإحداث وغلبة الجهل، فهنا يُقال له كما قال شيخ الإسلام: «وقد يتعذر أو يتعسّر على السالك سلوك الطريق المشروعة المحضة إلا بنوع من المحدث لعدم القائم بالطريق المشروعة علمًا وعملاً، فإذا لم يحصل النور الصافي، بأن لم يوجد إلا النور الذي ليس بصافٍ وإلا بقي الإنسان في الظلمة؛ فلا ينبغي أن يعيب الرجل وينهى عن نور فيه ظلمة إلا إذا حصل نور لا ظلمة فيه، وإلا فكم ممن عدل عن ذلك يخرج عن النور بالكليّة»[(٢)].

٢ـ الاضطراب بين الإفراط والغُلُوِّ وبين التفريط والتقصير مع الزهد في الوسطية[(٣)]:

فالتقوى وسط بين الغلو والجفاء، والمحبة ليست بمعزل عن ذلك.

وأهل الإسلام وسط بين الأمم وكذلك أهل السنة وسط بين الفرق الغالية والمقصرة، وكما أنهم وسط في باب الاعتقاد فهم كذلك وسط في باب السلوك بين

---

(١) الاستقامة (١/ ٣١٧)؛ لأنه رأى مجتمع شهوة ونشوة وطرب وغفلة، فنطقت فطرته وأعرب عقله ومنطقه.

(٢) الفتاوى (١٠/ ٣٦٤)، وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦١٦ـ ٦١٩).

(٣) معالم في السلوك (٢٣ـ ٤٥) باختصار وتصرف.

طـرفي الإفـراط والتفـريط، فـدين الله وسـط بـين الغـالي فيـه والجـافي عنـه. قـال الشاطبي: «فإذا نظرت إلى كليّة شرعية فتأمّلها، تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف، فذلك في مقابلة أمر واقع أو متوقع في الطرف الآخر. فطرفُ التشديد وعامّة ما يكون في التخويف والترهيب والزهد، يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين، وطرف التخفيف وعامّةُ ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص، يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد. فإذا لم يكن هذا ولا ذاك؛ رأيت التوسط لائحًا، ومسلك الاعتدال واضحًا، وهو الأصل الذي يُرجع إليه»[(١)].

وهاك بعض أمثلة توسط أهل السنة في السلوك:

أ ـ أهل السنة والجماعة وسط في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الوعيدية مـن الخـوارج والمعتزلـة، والمرجئـة كالأشـاعرة والماتريديـة وعمـوم الكلابية.

ب ـ أهل السنة والجماعة وسط في باب الإخلاص بين المرائين والملامية.

فالمراءون يعملون لأجل رؤية الناس، والملامية يفعلون ما يلامون عليه في الظاهر حتى يتحقق لهم الإخلاص والمحبة في الباطن[(٢)].

---

(١) انظر: الموافقات، الشاطبي (٢/ ١٦٣ـ١٦٨).

(٢) ويقال لهم كذلك الملامتية، وأهل الملامة، ومن أقطابهم الغزالي، فقد ذكر في الإحياء تـزيين ذلـك وحـض عليـه. وانظـر: تلبيس إبلـيس (٤١٠)، الفتـاوى (٣٥/ ١٦٤)، =

جـ- أهل السنة والجماعة وسط بين المشتغلين بالعبادات القلبية فقط - كبعض المتصوفة - وبين المشتغلين بالعبادات الظاهرة فحسب، مثل بعض الفقهاء، فقام أهل السنة بالعبادة ظاهرًا وباطنًا. وهذه هي الاستقامة.

د- أهل السنة وسط بين من يريد من الله ولا يريد الله، وبين من يريد الله ولا يريد منه.

فأهل السنة يريدون الله تعالى ويريدون ثوابه، فهم خواص خلقه، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٩]، وأما الذين يريدون من الله ولا يريدون الله، فهؤلاء ليس في قلوبهم غير إرادة نعيم الجنة المخلوق، كحال أكثر المتكلمين المنكرين رؤية الله تعالى وكلامه والتلذذ بالنظر إلى وجهه في الآخرة، وهم عبيد الأجرة المحضة، فهؤلاء لا يريدون الله تعالى وتقدس، ومنهم من يصرّح بأن إرادة الله تعالى محال(١)! وأما الذين يريدون الله ولا يريدون منه كحال كثير من الصوفية.

ومنشأ اشتباه واضطراب كلا الفريقين أنهم ظنوا أن الجنة هي التنعم بالنعيم المخلوق من أكل وشرب ونكاح ولباس(٢)، ثم صاروا فريقين؛ أحدهما: أنكروا

= المدارج (٣/ ١٧٧).

(١) ينظر: مدارج السالكين (٢/ ٨٢).

(٢) وقد ردد هذا كثيرًا الغزالي في الإحياء، وبنى عليه أمورًا عديدة غريبة.

رؤية المؤمنين لربهم كالمتكلمين من المعتزلة والجهمية ونحوهم. والفريق الثاني: أثبتوا الرؤية، لكن أخطأوا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجًا عن الجنة[(١)]، فأسقطوا حرمة اسم الجنة[(٢)(٣)].

هـ ـ أهل السنة وسط بين أهل الفجور والفواحش، وبين أصحاب الرهبانية والحرج.

و ـ أهل السنة وفّقوا لهداية النصوص لفظًا ومعنىً، دون من يتكلم في المعاني الشرعية الصحيحة بألفاظ غير شرعية ككثير من المتكلمة والمتصوّفة، ودون من يوافق النصوص في اللفظ دون المعنى كالباطنية، ودون من يخالف النصوص الشرعية لفظًا ومعنىً كالملاحدة والكفار[(٤)].

قال ابن تيمية: «الألفاظ الشرعية لها حُرمة، ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبته، وينفي ما نفاه من المعاني، فإنه يجب علينا أن نصدّقه في كل ما أخبر به، ونطيعه في كل ما أوجب وأمر»[(٥)].

---

(١) ولا شك أن خطأهم أهون من خطأ من أنكر الرؤية أصلاً.

(٢) وهذا ما فتح الباب على مصراعيه عليهم حتى سقط كثير منهم في سوء الأدب مع الله تعالى والقول بالعشق الإلهي و عدم إرادة الجنة والإدلال الممجوج مع الله تعالى ونحو ذلك.

(٣) الفتاوى (١٠/ ٦٩٤ـ ٧٠٠)، المدارج (٢/ ٨٢، ٨٣).

(٤) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، عثمان حسن (٢/ ٦٩٢).

(٥) الفتاوى (١١/ ٢٥).

«والموقف الصحيح من الألفاظ المحدثة المجملة التي تحتمل حقّاً أو باطلاً: التفصيل، فلابد من الاستفسار عن مراد المتكلم بها، فإن أراد بها معنى يوافق خبر الرسول ﷺ أقرّ به، وإلا أُنكر»[(١)]، مع مراعاة التعبير عنه بألفاظ النصوص الشرعية.

«والمؤمن الكيّسُ يُوافق كل قوم فيما وافقوا فيه الكتاب والسنة، وأطاعوا فيه الله ورسوله، ولا يوافقهم فيما خالفوا فيه الكتاب والسنة، أو عصوا فيه الله ورسوله»[(٢)].

ز ـ أهل السنة يراعون أحوال المكلفين بدون مثالية لا تُنال أو سلبية غير مرضية:

كما قال ﷺ: **«سدّدوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا»**[(٣)]، قال ابن حجر رحمه الله: «قوله: «**سدّدوا**» معناه: اقصدوا السداد، أي الصواب، وقوله: «**وقاربوا**» أي: لا تُفْرِطُوا فتُجهِدُوا أنفسكم في العبادة، لئلا يفضي بكم ذلك إلى الهلاك فتتركوا العمل فتُفَرِّطُوا»[(٤)].

ولقد كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يسوس الناس بهذه الحكمة والواقعية

---

(١) الفتاوى (١٢/ ١١٤).

(٢) الفتاوى (١١/ ٢٩).

(٣) البخاري (٦٤٦٣).

(٤) الفتح (١١/ ٢٩٧).

والعملية، فقد قال لابنه عبد الملك الذي ألحّ عليه بتطبيق كل ما يراه من العدل فورًا: «يا بني، إنما أنا أُروض الناس رياضة الصعب، إني لأريد أن أُحيي الأمر من العدل فأوخِّره حتى أُخرج معه طمعًا من الدنيا، فإذا نفروا من هذه سكنوا لهذه»(١).

وقال معاصره الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إن هذا الدين واصب، وإنه من لا يصبر عليه يدعه، وإن الحق ثقيل، وإن الإنسان ضعيف، وكان يقال: ليأخذ أحدكم من العمل ما يطيق، فإنه لا يدري ما قدر أجله، وإن العبد إذا ركب بنفسه العنف، وكلّف نفسه ما لا يطيق، أوشك أن يُسيِّبَ ذلك كله، حتى لعله لا يقيم الفريضة، وإذا ركب نفسه التيسير والتخفيف، وكلّف نفسه ما تطيق(٣) كان أكيس، وأمنعها من هذا العدو. وكان يقال: شر السير الحقحقة»(٤).

ومن حكمة أبي حازم ـ سلمة بن دينار ـ رحمه الله أنه أوصى رجلاً شكى له

---

(١) الزهد للإمام أحمد (٣٠٠).

(٢) قال ابن الجوزي: «ولقد سبرت السلف كلهم، فأردت أن أستخرج منهم من جمع بين العلم حتى صار من المجتهدين، وبين العمل حتى صار قدوة للعابدين، فلم أر أكثر من ثلاثة: أولهم الحسن البصري، وثانيهم سفيان الثوري، وثالثهم أحمد بن حنبل، وما أنكر على من ربّعهم بسعيد بن المسيب» صيد الخاطر (٧١).

(٣) لاحظ فقهه رَحِمَهُ اللَّهُ، فليس التيسير المطلق، ولكن سياسة النفس على قدر طاقتها وجهدها دون الغاية حتى لا تمل وتكل.

(٤) الزهد لابن المبارك (٤٦٨) والحقحقة: المتعب من السير.

حب الدنيا: «اعلم يا ابن أخي أن هذا الشيء ما أعاتب نفسي على حبّ شيء حبّبه الله تعالى إلي؛ لأن الله عز وجل قد حبّب هذه الدنيا إلينا[١]، ولكن لتكن معاتبتنا أنفسنا في غير هذا، ألا يدعونا حبها إلى أن نأخذ شيئًا من شيء يكرهه الله، ولا أن نمنع شيئًا من شيء أحبه الله، فإذا نحن فعلنا ذلك؛ لا يضرنا حبنا إياها»[٢].

وسئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن طلب العلم فقال: «حسن جميل، لكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى أن تمسي فالزمه»[٣]، أي ابدأ بتعلمه والزم العمل به.

وهٰهنا أمر مهم لكل سالك ناسك، وهو ألا يوغل في ملاحظة الخطرات والوساوس، فقد يكون مردود ذلك إحباطًا وقنوطًا ونكولاً عن العمل. قال ابن القيم: «فلا إله إلا الله، كم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه!!

فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قُطّاع تمنع وصول العمل إلى القلب... ثم بين القلب وبين الرب مسافة، وعليها قُطّاع تمنع وصول العمل إليه، من كبر، وإعجاب، ورؤية العمل، ونسيان المنّة، وعلل خفية لو استقصى في

---

(١) قال عليه الصلاة والسلام: **«حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة»** رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٢) الحلية، أبو نعيم (٣/ ٢٤٤).

(٣) حلية الأولياء (٦/ ٣١٩).

طلبها لرأى العجب. ومن رحمة الله تعالى سترها على أكثر العمال، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسان، وترك العمل، وخمود العزم، وفتور الهمة، ولهذا لما ظهرت «رعاية»(١) أبي عبد الله الحارث المحاسبي، واشتغل بها العبّاد؛ عُطّلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة، والطبيب الحاذق يعلم كيف يطبّ النفوس، فلا يعمر قصرًا ويهدم مصرًا»(٢)(٣).

وقال أيضًا: «وسألت يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه المسألة ـ تهذيب الأخلاق وترويضها، وقطع الآفات، والاشتغال بتنقية الطريق وبتنظيفها، فقال ـ في جملة كلامه ـ: النفس مثل الباطوس ـ وهو جُبُّ القذر ـ كلّما نبشته ظهر وخرج، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه، وتعبره وتجوزه فافعل، ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلى قراره، وكلّما نبشت شيئًا ظهر غيره(٤).

---

(١) يعني كتاب (الرعاية لحقوق الله).

(٢) المدارج (١/ ٤٣٩) باختصار.

(٣) فقد يضعف المتعبد الجاهل أمام الخوف من الرياء حتى ينكل عن العمل! ويشهد لهذا ما ذكره أبو حامد الغزالي في الإحياء (٣/ ٣١٩) أن الإنسان كان يجتاز البصرة عند الصبح ـ أي قُبَيْله وهو وقت السَّحَر ـ فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت، فصنف بعضهم كتابًا في دقائق الرياء، فتركوا ذلك، وترك الناس الرغبة فيه. فكانوا يقولون: ليت ذلك الكتاب لم يصنّف!

(٤) بل ربما قتله، فقد تختلجه شبهة أو تحكمه حيرة أو يكسر ظهره قنوط.

فقلت: سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ، فقال لي: مَثَلُ آفات النفس مثل الحيّات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يمكنه السفر قط. ولتكن همتك المسير والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امضِ على سيرك.. فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدًّا، وأثنى على قائله»(١).

ولا يعني هذا التزهيد في مراقبة الخَطَرات وحراستها، بل هي من الأهمية بمكان، ولكن المقصود عدم المبالغة في دقائقها ووساوسها لأن أعمال النفس كأعماق البحار لا يُلحق قعره، وإنما يكفي ما قرب تناوله. ومن لطيف كلام ابن القيم في ذلك في معرض كلامه على النظر: «والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولابد، ما لم يمنع منه مانع»(٢)، لذا فحراسة الخطرات مطلب شرعي نفيس لأنها تفضي إلى ما بعدها.

كذلك فقدرات الناس تتفاوت في تحمّل العلم أو العمل، وقد يسر الله كلًّا لما خلق له، وحينما كتب أحد العُبَّاد إلى الإمام مالك يحضّه على الانفراد والعمل، كتب له مالك: «إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فَرُبَّ رجل فُتح له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الصدقة ولم يُفتح له في الصوم،

---

(١) المدارج (٢/ ٣١٣، ٣١٤).

(٢) الجواب الكافي (١/ ١٠٦).

وآخر فُتح له في الجهاد. فنشرُ العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبرّ»(١).

ولما سُئل شيخ الإسلام عن الأسباب التي يقوى بها الإيمان إلى أن يكمل، هل يبدأ بالزهد أو بالعلم؟ أم يجمع بين ذلك حسب طاقته؟ أجاب إجابة منهجية جامعة مانعة فقال: «الناس يتفاضلون في هذا الباب، فمنهم من يكون العلم أيسر عليه من الزهد، ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه، ومنهم من تكون العبادة أيسر عليه منهما، فالمشروع لكل إنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، وإذا ازدحمت شعب الإيمان قدّم ما كان أرضى لله وهو عليه أقدر(٢)، فقد يكون على المفضول أقدر منه على الفاضل(٣)، ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل، فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له، وهو في حقه أفضل، ولا يطلب ما هو أفضل مطلقًا إذا كان متعذرًا في حقه أو متعسرًا يفوته ما هو أفضل له وأنفع، كمن يقرأ القرآن فيتدبره وينتفع بتلاوته والصلاة تثقل عليه، ولا ينتفع منها بعمل، أو ينتفع بالذكر أعظم مما ينتفع بالقراءة، فأي عمل كان له أنفع ولله أطوع فهو أفضل في حقه من تكلّف عمل لا

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ١١٤).

(٢) وهذا قيد مهم.

(٣) أي من الإيمان والأجر والرضوان.

يأتي به على وجهه، بل على وجه ناقص، ويفوته ما هو أنفع له»[(١)].

وقال أيضًا في توضيح ذلك: «الأفضل يتنوّع تارة بحسب أجناس العبادات، كما أن جنس الصلاة أفضل من جنس القراءة، وجنس القراءة أفضل من جنس الذِكر، وجنس الذِكر أفضل من جنس الدعاء.

وتارة يختلف باختلاف الأوقات، كما أن القراءة والذِكر والدعاء بعد الفجر والعصر هو المشروع دون الصلاة.

وتارة باختلاف عمل الإنسان الظاهر، كما أن الذِكر والدعاء في الركوع والسجود هو المشروع دون القراءة، وكذلك الذِكر والدعاء في الطواف مشروع بالاتفاق، وأما القراءة في الطواف ففيها نزاع معروف.

وتارة باختلاف الأمكنة، كما أن المشروع بعرفة ومزدلفة وعند الجمار وعند الصفا والمروة هو الذِكر والدعاء دون الصلاة ونحوها، والطواف بالبيت للوارد أفضل من الصلاة، والصلاة للمقيمين بمكة أفضل.

وتارة باختلاف مرتبة جنس العبادة، فالجهاد للرجال أفضل من الحج، وأما النساء فجهادهن الحج، والمرأة المتزوجة طاعتها لزوجها أفضل من طاعتها لأبويها، بخلاف الأيمة فإنها مأمورة بطاعة أبويها.

---

(١) الفتاوى (٧/ ٦٥١، ٦٥٢)، وانظر (٢٤/ ٢٤٦)، وطريق الهجرتين (١٧٨)، والمدارج (٣/ ١٧)، والفوائد (٣٨)، والمجموع للنووي (١/ ٣٨). وستأتي بعض المسائل المتعلقة بذلك في باب الحكمة إن شاء الله.

وتارة يختلف باختلاف قدرة العبد وعجزه، فما يقدر عليه من العبادات أفضل في حقه مما يعجز عنه، وإن كان جنس المعجوز عنه أفضل، وهذا باب واسع يغلو فيه كثير من الناس، ويتبعون أهواءهم.

فإن من الناس مَن يرى أن العمل إذا كان أفضل في حقه لمناسبته له، ولكونه أنفع لقلبه، وأطوع لربه، يريد أن يجعله أفضل لجميع الناس، ويأمرهم بمثل ذلك[(١)] والله بعث محمدًا ﷺ بالكتاب والحكمة، وجعله رحمة للعباد، وهديًا لهم، يأمر كل إنسان بما هو أصلح له، فعلى المسلم أن يكون ناصحًا للمسلمين يقصد لكل إنسان ما هو أصلح له.

وبهذا يتبين أن من الناس من يكون تطوعه بالعلم أفضل له، ومنهم من يكون تطوعه بالجهاد أفضل، ومنهم من يكون تطوعه بالعبادات البدنية كالصلاة والصيام أفضل له.

والأفضل المطلق ما كان أشبه بحال النبي ﷺ باطنًا وظاهرًا، فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ»[(٢)].

٣ـ القول بالفناء والاتحاد:

ولا يكاد يخلو مصنف في التصوف من ذكر الفناء في باب المحبة والترغيب

---

(١) ومن أمثلة ذلك من يأمر كل من استقام بطلب العلم، أو مداومة الصيام أو القيام، أو الصدقة، أو الجهاد ونحو ذلك.

(٢) الفتاوى (١٠/٤٢٧- ٤٢٩).

فيه وأنه من الغايات للصوفي، ثم يجملون الخطاب، ويبهمون الإشارة، ويُلغزون المراد، وبعضهم يصرح بعقيدة وحدة الوجود وهي وثنية خالصة وإلحادية صرفة، وقد وفدت للأمة المسلمة من ديانات الهند الوثنية. وأكثرهم يصرّح بإنكار هذه الضلالة وهي النوع الثالث للفناء لكنهم يجعلون الغاية النوع الثاني وهذا باطل. فللفناء أنواع ثلاثة كما قرره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ـ مع إنكاره لهذا اللفظ المجمل البدعي ـ:

«الأول: هو الفناء عن إرادة ما سوى الله، بحيث لا يحب إلا الله، ولا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يطلب غيره، وهو المراد بالإرادة الدينية، أي المراد المحبوب المرضي، وكمال العبد ألا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه، ولا يحب إلا ما أحبه الله كالملائكة والأنبياء والصالحين، وهذا معنى قولهم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، قالوا: هو السليم مما سوى الله، أو مما سوى عبادة الله، أو مما سوى إرادة الله، أو مما سوى محبة الله، فالمعنى واحد، وهذا المعنى وإن سُمّي فناء أو لم يسمّ، هو أول الإسلام وآخره، وباطن الدين وظاهره.

الثاني: الفناء عن شهود السّوى، وهذا يحصل لكثير من السالكين، فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته، وضعف قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد، وترى غير ما تقصد، لا يخطر بقلوبهم غير الله، بحيث يكون الواحد منهم عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره. فإذا قوي على صاحب الفناء هذا؛ فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، حتى

يفنى عن ذكر المخلوقات ويشهد ربه تعالى. وإذا قوي هذا الوارد ضَعُفَ المحب حتى يضطرب في تمييزه، فقد يظن أنه هو محبوبه!

وأكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لم يقعوا في هذا الفناء، فضلًا عمن فوقهم من الأنبياء، وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة. وكذلك كل ما كان من هذا النمط مما فيه غيبة العقل والتمييز لما يرد على القلب من أحوال الإيمان، فإن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم، أو أن يحصل لهم غشي أو صعق أو سكر أو فناء أو وله أو جنون. وإنما كان مبادئ هذه في التابعين من عبّاد البصرة، فإنه كان فيهم من يُغشى عليه إذا سمع القرآن، ومنهم من يموت كأبي جهير الضرير، وزرارة بن أوفى قاضي البصرة.

وكذلك صار في شيوخ الصوفية من يعرض له الفناء والسكر ما يضعف معه تمييزه، حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه[(١)]، كما يُحكى نحو ذلك عن مثل أبي زيد البسطامي، وأبي الحسن النوري، وأبي بكر الشبلي بخلاف أبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والفضيل بن عياض، بل وبخلاف الجنيد وأمثالهم ممن كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم في أحوالهم فلا يقعون في هذا الفناء والسكر ونحوه، بل الكُمَّلُ تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون الأمور

---

(١) كقول بعضهم: سبحاني، أو أنا الحق، أو ما في الجبة إلا الله، ونحو ذلك. تعالى الله وتقدَّس.

على ما هي عليه، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله، مُدَبَّرَة بمشيئته، بل مستجيبة له قانتة له، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيدًا ومُمِدًّا لما في قلوبهم من إخلاص الدين، وتجريد التوحيد له، والعبادة وحده لا شريك له.

وهذه هي الحقيقة التي دعا إليها القرآن، وقام بها أهل تحقيق الإيمان والكُمَّل من أهل العرفان، ونبينا ﷺ إمام هؤلاء وأكملهم، ولهذا لما عرج به إلى السموات، وعاين ما هنالك من الآيات، وأُوحي إليه ما أُوحي من أنواع المناجاة، أصبح فيهم وهو لم يتغير حاله، ولا ظهر عليه ذلك، بخلاف ما كان يظهر على موسى من التغشي صلى الله عليهما وسلم.

النوع الثالث مما قد يُسمّى فناء: هو أن يشهد أن لا موجود إلا الله، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، فلا فرق بين الرب والعبد، فهذا فناء أهل الضلال والإلحاد، الواقعين في الحلول والاتحاد(١).

(١) الفتاوى (١٠/ ٢١٨-٢٢٢) باختصار. وانظر (١٠/ ٥٩، ٦٠). وقال كذلك في التفريق بين الفناء الأول والثاني: «الفناء الأول: فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب، والتوكل عليه وعبادته وما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص. الثاني: فناء القلب عن شهود ما سوى الرب. فالأول فناء عن الإرادة، والثاني فناء عن الشهادة، والأول فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه، والثاني فناء عن العلم بالغير والنظر إليه. والفناء الثاني فيه نقص، فإن شهود الحقائق على ما هي عليه، وهو شهود الرب مدبرًا لعباده، آمرًا بشرائعه أكمل من شهود وجوده، أو صفة من صفاته، أو اسم من أسمائه، والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك.
=

وقال ابن القيم: «وكان سيد المحبين وإمامهم وأعظمهم حبًّا ﷺ في الذروة العليا من المحبة، وهو مراع لجزئيات الأمر وجزئيات الأمة، مثل سماعه بكاء الصبي في الصلاة فيخففها لأجله[1]، ومثل التفاته في صلاته إلى الشِّعْبِ الذي بعث منه العين يتعرَّف له أمر العدو[2]، هذا وهو في أعلى درجات المحبة.

ولهذا رأى ما رأى ليلة الإسراء، وهو ثابت الجأش، حاضر القلب، لم يفن عن تلقّي خطاب ربه وأوامره، ومراجعته في أمر الصلاة مرارًا، ولا ريب أن هذا الحال أكمل من حال موسى الكليم صلوات الله وسلامه عليهما وعلى جميع النبيين، فإن موسى خرَّ صَعِقًا وهو في مقامه في الأرض لما تجلّى ربّه للجبل[3]، والنبي ﷺ قطع تلك المسافات، وخرق تلك الحجب، ورأى ما رأى، وما زاغ بصره وما طغى، ولا اضطرب فؤاده ولا صعق، فصلوات الله وسلامه عليه، ولا

=

أما الثالث: فهو الفناء عن وجود السوى، بمعنى: أنه يرى أن الله هو الوجود، وأنه لا وجود لسواه، لا به ولا بغيره، وهذا القول والحال للاتحادية الزنادقة من المتأخرين كالبلياني والتلمساني والقونوي ونحوهم الذين يجعلون الحقيقة أنه عين الموجودات وحقيقة الكائنات، وهذا كفر وضلال. فتدبر هذا التقسيم، فإنه بيان الصراط المستقيم (الفتاوى ١٠/ ٣٣٧ـ ٣٤٣) باختصار. وانظر: منهاج السنة، ابن تيمية (٥/ ٣٥٥ـ ٣٥٩)، وانظر: مدارج السالكين، ابن القيم (٢/ ٦١٨ـ ٦٢٠).

(١) متفق عليه.

(٢) أبو داود (٢٥٠١) وابن خزيمة (٤٨٧) وصححه.

(٣) وبعد ذلك لم يُصعق فيما هو ظاهر القرآن من كلام الله تعالى له وإعطائه الألواح.

ريب أن الوراثة المحمدية أكمل من الوراثة الموسوية»[١].

٤ـ عدم التفريق بين محبة مراد المحبوب الكوني القدري وبين مراده الشرعي الديني:

فالإرادة الدينية الشرعية يلزم من المحب أن يحبها كالأمر بالصلاة والذكر ونحو ذلك. بخلاف الإرادة الكونية القدرية، فقد تكون بغيضة إلى الله تعالى كالكفر والظلم والفسق ـ مع أن له حكمًا إيجادها ـ مع ذلك فالمحب الصادق هو من يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه، ويكون هذا ميزانه.

وللتوضيح نضرب أربعة أمثلة توضح المراد:

١ـ إسلام أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

٢ـ كفر أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ وحاشاه ..

٣ـ إسلام أبي جهل.

٤ـ كفر أبي جهل.

فالمثال الأول وهو إسلام الصديق قد قدّره الله خلقًا وكونًا ورضيه شرعًا ودينًا، فأراد ذلك كونًا وأراد ذلك دينًا.

والمثال الثاني ـ وهو العكس ـ لم يرده الله كونًا وقدرًا ولم يرده دينًا وشرعًا.

والمثال الثالث وهو إسلام أبي جهل، فالله تعالى لم يرده قدرًا وكونًا وخلقًا

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم (٢/ ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٣٤ـ٧٣٩).

وإن كان قد أراده دينًا وشرعًا، فأبو جهل داخل في عموم المخاطبين بالإسلام لكن غلبت عليه الشقوة.

والمثال الرابع وهو العكس، فقد أراده الله كونًا ولم يرده شرعًا ودينًا.

وعليه فالإرادة الدينية الشرعية مستلزمة لرضا الله تعالى ومحبته، وعليه فالمؤمن يحبها دومًا سواءً وافقت القدر والخلق أم لم توافقه.

أما الإرادة الكونية القدرية ـ وتسمى المشيئة ـ فغير مستلزمة للمحبة، فقد يحبها الله تعالى إن وافقت الإرادة الشرعية الدينية، وقد لا يحبها ـ إن خالفتها ـ والعبد المؤمن يدور مع حب الله حيث دار.

قال ابن القيم: «وإنما كانت موافقة المحبوب دليلاً على محبته لأن من أحب حبيبًا فلابد أن يحب ما يحبه ويبغض ما يبغضه، وإلا لم يكن محبًّا له محبة صادقة.

ولكن هٰهنا مسألة يغلط فيها كثير من المدعين للحب، وهي أن موافقة المحبوب في مراده ليس المعنيُّ بها مراده الخَلقي الكوني، فإن كل الكون مراده، وكل ما يفعله الخلائق فهو موجب مشيئته وإرادته الكونية. فلو كانت موافقته في هذا المراد هي محبته لم يكن له عدوّ أصلاً[1]، وكانت الشياطين والكفار والمشركون عبّاد الأوثان والشمس والقمر أولياءه وأحبابه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

قال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ

---

(١) وبهذا يظهر ضلال الجبرية.

نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، فأنكر سبحانه على من سوّى بين المسلمين والمجرمين، وبين المطيعين والمفسدين، مع أن الكلّ تحت المراد الكوني والمشيئة العامّة.

وسمعت شيخ الإسلام قدس الله روحه يقول: «قال لي بعض شيوخ هؤلاء: المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، والكون كله مراده، فأي شيء أُبْغِضُ منه؟ قال: فقلت له: فإذا كان المحبوب قد أبغض بعض ما في الكون، فأبغض قومًا ولعنهم ومقتهم وعاداهم، فأحببتهم أنت وواليتهم، تكون مواليًا للمحبوب موافقًا له، أو مخالفًا معاديًا له؟ قال: فكأنما أُلقم حجرًا»(١).

ويبلغ الجهل والكفر ببعض هؤلاء إلى حد بحيث إذا فعل محظورًا يزعم أنه مطيع لله فيه(٢)، ويقول: أنا مطيع لإرادته»(٣).

وقال أيضًا في بيان فساد من ظن أن المحبة يلزم منها الموافقة في الإرادة الكونية مثل الشرعية: «وصعد رجلٌ يومًا على سطح دار له، فأشرف على غلام له

---

(١) وانظر: الفتاوى (١٠/ ٢١٠، ٤٨٦).

(٢) وهذه المسألة تواردها الرضا والمحبة وبينهما تقارب وتشابه، وسأذكر هنا ما يخص المحبة، وأترك ما يخص الرضا في بابه إن شاء الله.

(٣) طريق الهجرتين (٢/ ٦٥٧، ٦٥٨).

يَفْجُرُ بجارية، فنزل وأخذهما ليعاقبهما، فقال الغلام: إن القضاء والقدر لم يدعنا حتى فعلنا ذلك. فقال: لَعِلْمُكَ بالقضاء والقدر أحب إلي من كل شيء، أنت حرّ لوجه الله!

ورأى آخرُ رجلاً آخر يفجر بامرأته، فبادر ليأخذه فهرب، فأقبل يضرب المرأة، وهي تقول: القضاءُ والقدر. فقال: يا عدوّة الله أتزنين وتعتذرين بمثل هذا؟ فقالت: أَوّه تركت السنة وأخذت بمذهب ابن عباد! فتنبّه ورمى السوط من يده، واعتذر إليها، وقال: لولاك لضللت!

ورأى آخرُ رجلاً يفجر بامرأته، فقال: ما هذا؟ فقالت: هذا قضاءُ الله وقدره. فقال: الخيرةُ فيما قضى الله! فلُقِّب بـ«الخيرة فيما قضى الله» وكان إذا دُعي به غضب!

وقيل لبعض هؤلاء: أليس الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] فقال: دعنا من هذا، رضيهُ وأحبّهُ وأراده، وما أفسدنا غيرُه[١]!

وجرى عند بعض هؤلاء ذكرُ إبليس وإبائه وامتناعه من السجود لآدم، فأخذ الجماعة يلعنونه ويذمّونه[٢] فقال: إلى متى هذا اللوم؟ ولو خُلِّي لسجد، ولكن مُنع. وأخذ يقيم عذره، فقال له بعض الحاضرين: تبًّا لك سائر اليوم،

---

(١) تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، وتأمل جناية هذا المذهب الخبيث على الأمة.

(٢) أي إبليس، والسنة الاستعاذة منه لا لعنه.

أتذُبُّ عن الشيطان، وتلوم الرحمن؟

ثم ذكر أمثلة أخرى شنيعة لهؤلاء الضلال ثم قال:

فيقال: الله أكبر على هؤلاء الملاحدة أعداء الله حقًّا، الذين ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته، ولا عظّموه حق تعظيمه، ولا نزّهوه عما يليق به، وبغّضوه إلى عباده، وبغّضوهم إليه سبحانه، وأساءوا الثناء عليه جهدهم وطاقتهم.

وهؤلاء خصماءُ الله حقًّا الذين جاء فيهم الحديث: «**يُقال يوم القيامة: أين خصماء الله؟ فيُؤمر بهم إلى النار**»(١).

قال شيخ الإسلام في تائيته:

ويُدعى خصومُ الله يومَ معادهم ... إلى النار طُرًّا معشر القدرية
سواءٌ نفَوه أو سعوا ليخاصِمُوا ... به الله أو مارَوا به للشريعة(٢)

وسمعته يقول: القدرية المذمومون في السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاث: الأولى: نفاته، وهم القدرية المجوسية(٣).

والثانية: المعارضون به للشريعة الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾

---

(١) اللالكائي (١٢٣٢) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: الفتاوى (٨/ ٢٤٦) وهي طويلة وكتبها ردًا على مشكّك في القدر.

(٣) لأنهم اعتقدوا أن العباد يخلقون أفعالهم ، فبذلك يكون للكون خالِقين، فأشبهوا المجوس. تعالى الله عن قولهم.

[الأنعام: ١٤٨] وهم القدرية المشركية(١).

والثالثة: المخاصمون به للرب، وهم أعداء الله وخصومه، وهم القدرية الإبليسية(٢) وشيخهم إبليس، وهو أول من احتج على الله بالقدر، فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦] ولم يعترف بالذنب ويَبُوءُ به كما اعترف به آدم. فمن أقرّ بالذنب، وباء به، ونزّه ربَّه، فقد أشبه أباه آدم، ومن أشبه أباه فما ظلم. ومن برّأ نفسه، واحتج على ربّه بالقدر، فقد أشبه إبليس»(٣).

نعوذ بالله من عقائد الضلال، ونسأله سبحانه التوفيق للهدى والاستقامة.

والشاهد مما مضى أن على المؤمن أن يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله تعالى، ويفرّق بين الإرادة الشرعية الدينية المستلزمة للمحبة، وبين الإرادة الكونية القدرية غير المستلزمة لها.

٥ـ المحبة المجردة من الخوف والرجاء:

إذا تجردت المحبة من الخوف والرجاء دخلها الإدلال والانبساط الزائد، ودَحَضَ الحال في مزالق سوء الأدب مع الجناب الإلهي والهيبة الربانية.

---

(١) مشركية لأن حجتهم هي حجة المشركين حينما يلقون في جهنم عياذًا بالله.

(٢) لشبههم إبليس في خصومته لرب العالمين في قصة امتناعه عن السجود لآدم عليه السلام.

(٣) طريق الهجرتين (١/ ١٨٠ـ ١٨٦) باختصار. وانظر: الفتاوى (٨/ ٢٥٦ـ ٢٦١، ٣٨٧، ٤٤٤، ٤٤٧).

والمحبة والخوف والرجاء لابد من اجتماعها في القلب، فكلٌّ منها مكملٌ، ومُكَمَّلٌ، ولكلٍّ منها منزلة في القلب، فإما عامرٌ أو خراب، وقد شبه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ القلب في سيره إلى الله تعالى بالطائر الذي رأسه المحبة وجناحاه الخوف والرجاء، فإن قطع الرأس هلك الطائر، وإن كسر أحد الجناحين سقط الطائر وكان عرضة لكل صائد وكاسر. و قال قبله مكحول رَحِمَهُ اللَّهُ: من عَبَدَ الله بالحب وحده فهو زنديق(١)، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ(٢)، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري(٣)، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد.

قال شيخ الإسلام: «وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني، فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب، قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ

(١) لأن غايتهم الانحلال من الشريعة والقول بالاتحاد.

(٢) والإرجاء تأخير العمل عن مسمى الإيمان والقول بأن الإيمان هو التصديق فقط، وهو مذهب خبيث ودعاية فسق للناس، وانظر كتاب (ويكون الدين كله لله) ففيه بيان لخبث مذهبي الإرجاء والخروج.

(٣) نسبة إلى الخوارج أهل حروراء، وهم يكفِّرون مرتكب الكبيرة، ويقولون إن :الإيمان كتلة واحدة لا يزيد ولا ينقص، وهو مذهب رديء مدمر.

﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، ورحمته اسم جامع لكل خير. وعذابه: اسم جامع لكل شر. ودار الرحمة الخالصة هي الجنة، ودار العذاب الخالص هي النار، وأما الدنيا فدار امتزاج.

فالرجاء وإن تعلّق بدخول الجنة فالجنة اسم جامع لكل نعيم، وأعلاه النظر إلى وجه الله، كما في صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيّض وجوهنا؟ ألم يثقّل موازيننا، ويُدخلنا الجنة وينجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه**»(١) وهو الزيادة.

ومن هنا يتبيّن زوال الاشتباه في قول من قال: ما عبدتك شوقًا إلى جنتك، ولا خوفًا من نارك، وإنما عبدتك شوقًا إلى رؤيتك، فإن هذا القائل ظنّ هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماع ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات، كما يوافقه على ذلك من ينكر رؤية الله من الجهمية، أو من يقر بها، ويزعم أنه لا تمتع بنفس رؤية الله، وهذا باطل.

والتحقيق: أن الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم، وأعلى ما فيها النظر إلى وجه الله، وهو من النعيم الذي ينالونه في الجنة، كما أخبرت به النصوص، وكذلك فأهل النار محجوبون عن ربهم.

---

(١) مسلم (١/ ١٦٣).

وأما عمل الحي بغير حب ولا إرادة أصلاً فهذا ممتنع، وإن تخيّله بعض الغالطين من النساك، وظنّ أن كمال العبد ألا تبقى له إرادة أصلاً! فذاك لأنه تكلّم في حال الفناء[(١)]، والفاني ـ الذي يشتغل بمحبوبه ـ له إرادة ومحبة ولكن لا يشعر بها، فوجود المحبة والإرادة شيء، والشعور بها شيء آخر. فلمّا لم يشعروا بها[(٢)] ظنّوا انتفاءها وهو غلط، فالعبد لا يُتصور أن يتحرّك قط إلا عند حب وبغض وإرادة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**أصدق الأسماء حارث وهمام**»[(٣)]، فكل إنسان له حرث وهو العمل، وله همٌّ وهو أصل الإرادة، ولكن تارة يقوم بالقلب من محبة ما يدعوه إلى طاعته، ومن إجلاله، والحياء منه ما ينهاه عن معصيته، كما قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، أي هو لم يعصه ولو لم يخفه، فكيف إذا خافه، فإن إجلاله وإكرامه يمنعه من معصيته.

فالراجي الخائف إذا تعلّق خوفه ورجاؤه بالتعذب باحتجاب الرب عنه، والتنعّم بتجلّيه له، فمعلوم أن هذا من توابع محبته له، فالمحبة هي التي أوجبت محبة التجلّي والخوف من الاحتجاب.

ومن وجد حلاوة محبة الله؛ وجدها أحلى من كل محبة، ولهذا يكون اشتغال أهل الجنة بذلك أعظم من كل شيء، كما في الحديث: «**إن أهل الجنة يُلهمون**

---

(١) وتقدم قريبًا الكلام عليه.

(٢) أي الإرادة.

(٣) أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٤٣٥).

التسبيح كما يُلهمون النفس»[(١)]، وهو يبين غاية تنعّمهم بذكر الله ومحبته»[(٢)].

وقال أيضًا: «كل ما أعده الله لأوليائه فهو من الجنة، والنظر إليه هو من الجنة، ولهذا كان أفضل الخلق يسأل الله الجنة ويستعيذ من النار، ولما سأله بعض أصحابه عما يقول في صلاته قال: إني أسأل الله الجنة وأعوذ بالله من النار، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال: **«حولها نُدندِن»**[(٣)].

وأما التألم بالنار فهو أمر ضروري، ومن قال: لو أدخلني النار لكنت راضيًا، فهو عزم منه على الرضا، والعزائم قد تنفسخ عند وجود الحقائق، ومثل هذا يقع في كلام طائفة مثل سمنون الذي قال:

وليس لي في سواك حظٌّ ... فكيفما شئت فامتحنّي

فابتُلِيَ بعسر البول، فجعل يطوف على صبيان المكاتب ويقول: ادعوا لعمّكم الكذاب[(٤)]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ

---

(١) مسلم (٤/ ٢١٨٠).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٦١-٦٤) باختصار. وانظر: درء التعارض (٦/ ٦٨، ٦٩).

(٣) أبو داود (٧٩٢)، ابن ماجه (٩١)، وقال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات (٩١٠).

(٤) وقد احتبس بوله أربعة عشر يومًا، فكان يتلوى كما تتلوى الحية يمينًا وشمالاً، فلما أطلق بوله قال: رب قد تبت إليك. ويأتي بسط ذلك في باب الرضا إن شاء الله. وانظر: الفتاوى (١٠/ ٦٩٠-٧٠٠).

وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٤٣]»(١).

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٢٤١)، وقال بعد ذلك: «وبعض من تكلم في علل المقامات جعل الحب والرضا والخوف والرجاء من مقامات العامة بناء على مشاهدة القدر، وأنّ من شَهِدَ القَدَر فشهد توحيد الأفعال حتى فني من لم يكن (المخلوق)، وبقي من لم يزل (الخالق) يخرج عن هذه الأمور، وهذا كلام مستدرك حقيقة وشرعًا؛ أما الحقيقة فإن الحي لا يتصور ألا يكون حساسًا محبًّا لما يلائمه، مبغضًا لما ينافره، ومن قال إن الحي يستوي عنده جميع المقدورات؛ فهو أحد رجلين؛ إما أنه لا يتصوّر ما يقول، بل هو جاهل، وإما أنه مكابر معاند. ولو قدّر أن الإنسان حصل له حال أزال عقله ـ سواء سمّي اصطلامًا أو محوًا أو فناءً أو غشيًا أو ضعفًا ـ فهذا لم يسقط إحساس نفسه بالكلية، بل له إحساس بما يلائمه وما ينافره، وإن سقط إحساسه ببعض الأشياء فإنه لم يسقط بجميعها.
فمن زعم أن المشاهد لتوحيد الربوبية يدخل في مقام الجمع والفناء، فلا يشهد فرقًا؛ فإنه غالط، بل لابد من الفرق فإنه أمر ضروري. لكن إذا خرج عن الفرق الشرعي بقي في الفرق الطبيعي، فيبقى متبعًا لهواه لا مطيعًا لمولاه.
ولهذا لما وقعت هذه المسألة (أي الجمع والفرق وشهود القدر) بين الجنيد وأصحابه؛ ذكر لهم «الفرق الثاني» وهو: أن يفرّق بين المأمور والمحظور، وبين ما يحبه الله وما يكرهه، مع شهوده للقدر الجامع. فيشهد الفرق في القدر الجامع. ومن لم يفرق بين المأمور والمحظور خرج عن دين الإسلام.
وهؤلاء الذين يتكلمون في الجمع لا يخرجون عن الفرق الشرعي بالكلية، وإن خرجوا عنه، كانوا كفارًا من شر الكفار، وهم الذين يخرجون إلى التسوية بين الرسل وغيرهم، ثم يخرجون إلى القول بوحدة الوجود، فلا يفرقون بين الخالق والمخلوق.
ولكن ليس كل هؤلاء ينتهون إلى هذا الإلحاد، بل يفرّقون من وجه دون وجه،
=

٦ـ الأذكار البدعية بزعم المحبة:

ولنأخذ في ذلك مثالاً يُعبّر عما سواه، فعند بعضهم أن «لا إله إلا الله» هو ذكر العامة، و«الله، الله» هو ذكر الخاصة، و«هو، هو» ذكر خاصة الخاصة!

أما العامة والعوام في اصطلاح هؤلاء فهم كل الأمة من العلماء والعامة الذين لم يصلوا إلى «الحقيقة»[(١)] ـ والتي هي في حقيقتها تمرّد على الشريعة ومروق من الإسلام ـ فوصل الحال بمن استجرتهم الشياطين إلى أن جعلوا أعظم وأجلّ الأذكار على الإطلاق ذكراً للعامة دون الخاصة! وهو الذكر الذي قال فيه سيد خاصة الخاصة وصفوة الصفوة رسول الله ﷺ: «**أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**قال موسى: يا رب علّمني شيئًا أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى، لو أن السموات السبع وعامِرَهُنَّ غيري والأرضين السبعَ في كفّة، ولا إله إلا الله**

=

فيطيعون الله ورسوله تارة، ويعصون الله ورسوله تارة، كالعصاة من أهل القبلة». الفتاوى (١٠/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(١) بل أسقط بعضهم التكاليف الشرعية لمن زعم أنه وصلها، ويشبّهون بقوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]، وما علموا أن اليقين هنا هو الموت، وسيد العُبّاد صلوات الله وسلامه عليه قد عبد ربه حقّ العبادة حتى توفاه الله تعالى.

(٢) الترمذي (٣٥٨٥) بسند صحيح.

في كفة لَمَالَتْ بهنَّ لا إله إلا الله»[١]. وفي حديث وصية نوح عليه السلام لابنه: **«ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لقصمتهنّ لا إله إلا الله»**[٢]. فالكلمة التي من أجل تحقيقها خلق الله الخلق، وقام سوق الجنة والنار، ونُشرت دواوين التكليف، وأنزلت الكتب، وأرسلت الرسل، وجردت سيوف الجهاد لإقامتها؛ هي عند هؤلاء ذكر عامة. وهذا أسلوب تزهيد فيها، وما أعدى الجهل على أصحابه!

إذن فهذا الذكر العظيم والتوحيد الخالص هو عند هؤلاء من أذكار العوام، أما الخاصة، وخاصة الخاصة عندهم كابن عربي وابن سبعين والتلمساني فيترفّعون عن هذا الذكر وهذه الصيغة!

أما ذكر الخاصة عندهم فهو تكرار اسم الله مفردًا «الله، الله»[٣]، وأما ذكر خاصة الخاصة عندهم، فهو تكرار ضمير الغيبة «هو، هو» فيستغني عن التهليل العظيم بتقليد نباح الكلاب! وربما اقتصر بعضهم على الآهات (آه، آه) بكيفية خاصة، بأن يتمايل مع الذكر ـ العابث ـ يمنة ويسرة.

وأما العامي منهم فعندما يذكر الله بالتهليل «لا إله إلا الله» فإن له قانونًا ودستورًا يلتزمه، فيتمايل يمينًا وشمالاً بـ«لا» يمينًا، ويرجع بـ«إله»، فيتوسط. ثم

---

(١) ابن حبان (٢٣٢٤)، والحاكم وصحّحه (١/ ٥٢٨) ووافقه الذهبي.

(٢) أحمد، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (١/ ٢١٩) وصحيح الترغيب والترهيب (١٥٣٠).

(٣) وللأسف فقد شاطت هذه البدعة في الأمة، فما أعظم أمانة المصلحين!

يختم بـ«إلا الله» على اليسار. يبدأ بالتمايل بعد الاستئذان من الشيخ ـ الميت ـ أولاً، ويستمد منه المدد قائلاً: دستور يا أستاذ! مدد يا سيدي! ثم يستأذن سلسلة الطريقة التي ينتسب إليها من قادرية أو تيجانية أو رفاعية أو نقشبندية أو ميرغنية ونحوها فيقول: دستور يا أصحاب الطريق والقدم[(١)].

وبعد أن يجأر بأسمائهم هكذا معتقدًا أنهم يسمعونه، ويأذنون له بقلوبهم، وبعد أن يتلطخ بهذه الوثنية يستقبل هذا الذكر[(٢)]، والله تعالى يقول: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

فهذا مثال على تخبط من يزعم المحبة بلا برهان، فالمحبة عبادة والعبادة لابد فيها من شرطين؛ الإخلاص والمتابعة، والذكر قسمان: مأثور وغير مأثور، فالمأثور هو خير الأذكار على الإطلاق، أما غير المأثور مما اخترعه الناس ففيه الجائز الذي يتفق مع أصول الشريعة والمدائح الربانية، وفيه المحرم، وهو ما

(١) هذا قانون لدى كثير منهم، ولا يلزم منه التزام جميع المتصوّفة به. وكم من صوفي حريص على السنّة هارب من البدعة حتى وإن راج عليه الانتساب لطريقة مبتدعة.

(٢) انظر: مجلة البحوث الإسلامية (مفهوم الذكر عند الصوفية) (١٢/ ٢٨٠).

خالف ذلك. ومن عَظُمَ الوحي في قلبه لم يلتفت لسواه مما زينته النفوس.

٧ـ سوء الأدب مع الله جل جلاله:

هناك فرق بين الإدلال[1] والتملق في الداعي المحب، وبين سوء الأدب، وخرق حجاب الهيبة والجلال للملك العلّام. وبعض المتعبّدة سلكوا طريق الحب دون إجلال وخشية ورهبة فوقعوا في شناعات، والله تعالى يقول: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

قال شيخ الإسلام: «وكثير من السالكين سلكوا في دعوى حب الله أنواعًا

(١) هناك فرق بين الإدلال والتألي:
فالإدلال: انبساط في الحب مع رفع شيء من حجاب الهيبة، كقول موسى الكليم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فطلب منه ما لا يُطلب في العادة، وكقول بعض الصالحين: اللّهم إن كان لي عندك في الجنة منزلة فأرينها في الدنيا، وكالإقسام على الله لمن وثق بعمله وأحسن الظن بربه كفعل البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونحو ذلك، فالمحبة لها سلطانها على القلوب والأحوال بشرط أن لا تخرج عن الأدب.
أما التألّي فهو التحكّم، أو الحكم على عباد الله من دون الله، وهذا هلكة وأمنٌ من مكر الله، كقول ذلك الرجل لما عصاه أخوه وأصر على المنكر: «**والله لا يغفر الله لك**» فقال الله تعالى: «**من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك**» (مسلم ٤/ ٢٠٢٤)، قال أبو هريرة بعد ما روى هذا الحديث: قال كلمة أوبقت دنياه وآخرته. والتألي: الحلف. والأُلْية على وزن غُنية: اليمين. فهي يمين خاصة.

من أمور الجهل بالدين؛ إما من تعدِّي حدود الله، وإما من تضييع حقوق الله، وإما من ادعاء الدعاوى الباطلة التي لا حقيقة لها، كقول بعضهم: أي مريد لي ترك في النار أحدًا فأنا منه بريء! فقال الآخر: أي مريد لي ترك أحدًا من المؤمنين يدخل النار فأنا منه بريء! وقال بعضهم: إذا كان يوم القيامة نصبتُ خيمتي على جهنم حتى لا يدخلها أحد! وأمثال ذلك من الأقوال التي تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين، وهي إما كذب عليهم، وإما غلط منهم.

ومثل هذا قد يصدر في حال سكر(١) وغلبة وفناء يسقط فيها تمييز الإنسان، أو يضعف حتى لا يدري ما يقول. والسكر هو لذة مع عدم تمييز، ولهذا كان بين هؤلاء إذا صحا استغفر من ذلك الكلام.

والذين توسعوا من الشيوخ في سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام كان هذا أصل مقصدهم، ولهذا أنزل الله للمحبة محنة يمتحن بها المحب فقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] فلا يكون محبًّا لله إلا من يتبع رسوله، وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية.

وكثير ممن يدعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته ويدّعي من الخيالات ما لا يتسع هذا الموضع لذكره، حتى قد يظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له، وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول ﷺ وسنته وطاعته، بل قد جعل محبة الله

(١) سكر السماع البدعي وليس الخمر. والغناء يعصف بالأرواح ما لا تفعله الراح!

ومحبة رسوله الجهاد في سبيله، والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به، وكمال بغض ما نهى الله عنه، ولهذا قال في صفة من يحبهم ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم، وأكمل هذه الأمة في ذلك أصحاب محمد ﷺ، ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل، فأين هذا من قوم يدّعون المحبة»[(١)]؟!

وقال أيضًا: «ومما ينبغي التفطن له؛ أنه لا يجوز أن يُظن في باب محبة الله تعالى ما يُظن في محبة غيره مما هو من جنس التجني والهجر والقطيعة لغير سبب ونحو ذلك، مما قد يغلط فيه طوائف من الناس حتى يتمثلوا في حبه بجنس ما يتمثلون في حب من يصدُّ ويقطع بغير ذنب، أو يبعد من يتقرب إليه»[(٢)].

«ولا يجوز وصف الله تعالى بالعشق لا منه ولا به؛ لأن العشق حب مع شهوة، بل يُقرن العشق كثيرًا بالفعل المحرم؛ إما بمحبة امرأة أجنبية أو صبي، ويقترن به النظر المحرم واللمس المحرم وغير ذلك من الأفعال المحرمة»[(٣)].

ومن سوء الأدب مع الله تعالى الغيرة على الله، كما تفعله الملامتية، الذين يكتمون حب الله تعالى ويظهرون أشياء تدل على خلاف ذلك طلبًا للإخلاص

(١) الفتاوى (١٠/ ٢٠٩، ٢١٠).

(٢) الفتاوى (١٠/ ٨٦).

(٣) انظر: الفتاوى (١٠/ ١٣١).

من جهة وغيرة على الله تعالى حتى لا يعلم الناس بحبهم له، بل وبعضهم لا يرضى بأن يحبه أحد سواه، وهذا من أسوأ الجهل(١). قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه الآفة قد ابتلي بها كثير من السالكين الذين هم في الحقيقة قُطّاع الطريق على السالكين إلى الله، وسوّلت لهم أنفسهم أن هذه غيرة منهم على محبوبهم أن يُحبّه مثل هذه النفوس المتلوّنة بحب الدنيا. وغرّتهم أنفسهم ومنّتهم أنهم يغارون على الله، ويحولون بين تلك النفوس وبين محبته؛ فغاروا وأغاروا، ونهبوا، واستلبوا!

وهذه الطريقة عند المحبين المخلصين أولياء الله الداعين إلى الله عداوةٌ لله في الحقيقة، ومعاونة للشيطان، وقعود على طريق الله المستقيم الذي خلق عباده لأجله، وأمرهم به، فالحذر من هؤلاء القُطَّاع اللصوص، حَمَلَ أهلَ المحبة على المبالغة في كتمانها، وإظهار التخلّي منها بأسباب يُلامون عليها ظاهرًا، وقلوبهم معمورة بالمحبة، مأهولة بها.

وهذا الذي ظنّوه غيرةً هو من تلبيس الشيطان، وخداعه لهم، ومكره بهم، وإنما هو حسد حَمَلَهم على أن تعدّوه، وصالوا به، وسمّوه غيرة!

وإنما غيرة المحبين لله أن يغار أحدهم لمحارم الله إذا انتهكت، فيغار لله لا على الله، كما قال النبي ﷺ: «**إن الله يغارُ، وإن المؤمن يغارُ، وغيرةُ الله أن يأتي العبدُ ما حرّم عليه**»(٢)، فغيرة المحب هي الموافقة لغيرة محبوبه، وهي أن يغار مما

(١) وقد تقدم الكلام على شيء من تفاصيل الغيرة.

(٢) متفق عليه.

يغار منه المحبوب، وأما إذا كان المحبوب يحب من يحبه، وهذا يغار ممن يحبه؛ فهو في الحقيقة ساع في خلاف مراد محبوبه. وفي إعدام ما يحبه محبوبُه، فأين هذا من الغيرة المحبوبة لله؟! وإنما هذه غيرة من أخيه المسلم كيف خصّهُ الله بعطائه، وألبسه ثوب نعمائه، فهي غيرة منه لا غيرة على الله، فإن الله لا يُغار عليه، بل يُغار له»[1].

٨ـ السماع البدعي «سماع المكاء والتصدية»:

وهو الاجتماع على الغناء وقد يصحبه دف وموسيقى بقصد ترقيق القلوب، وقد فصّل شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ذلك، كذلك ابن القيم وابن رجب رحمهما الله تعالى .

قال ابن تيمية: «أصل هذه المسألة ـ مسألة السماع ـ أن يفرق بين السماع الذي يُنتفع به في الدين، وبين ما يُرخص فيه رفعًا للحرج، بين سماع المتقربين وبين سماع المتلعبين.

فأما السماع الذي شرعه الله تعالى لعباده، وكان سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم، وزكاة نفوسهم؛ فهو سماع آيات الله تعالى، وهو سماع النبيين والمؤمنين وأهل العلم وأهل المعرفة. قال تعالى

---

(١) طريق الهجرتين (٢/ ٦٧٧، ٦٧٨)، وانظر لتفصيل الغيرة المحمودة من المذمومة وأقسام كل منهما: روضة المحبين (٢٦٤ وما بعدها)، مدارج السالكين (٣/ ٥ـ ١٤).

لما ذكر من ذكره من الأنبياء في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وبهذا السماع أمر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وعلى أهله أثنى كما قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، وكما أثنى على هذا السماع، ذم المعرضين عن هذا السماع، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وهذا هو السماع الذي شرعه الله لعباده في صلاة الفجر، والعشاءين وغير ذلك. وعلى هذا السماع كان أصحاب رسول الله ﷺ يجتمعون، وكانوا إذا اجتمعوا أمروا واحدًا منهم أن يقرأ والباقون يستمعون، وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى: يا أبا موسى، ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون. وكما في قراءة ابن مسعود على رسول الله ﷺ.

وهذا السماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية، والأحوال الزكية، يطول شرحها ووصفها، وله في الجسد آثار محمودة من خشوع القلب، ودموع العين، واقشعرار الجلد، وهذا مذكور في القرآن. وهذه الصفات موجودة في الصحابة، ثم وجدت بعدهم آثار ثلاثة: الاضطراب والصراخ، والإغماء، والموت في التابعين.

وبالجملة؛ فهذا السماع هو أصل الإيمان، فإن الله بعث محمدًا ﷺ إلى الخلق أجمعين ليبلغهم رسالات ربهم، فمن سمع ما بلّغه الرسول فآمن به واتبعه اهتدى وأفلح، ومن أعرض عن ذلك ضل وشقي.

وأما سماع المكاء والتصدية، وهو التصفيق بالأيدي، والمكاء مثل الصفير ونحوه؛ فهذا هو سماع المشركين الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] فأخبر عن المشركين أنهم كانوا يتخذون التصفيق باليد، والتصويت بالفم قربة ودينًا، ولم يكن النبي ﷺ وأصحابه يجتمعون على مثل هذا السماع ولا حضروه قط، ومن قال إن النبي ﷺ حضر ذلك فقد كذب عليه باتفاق أهل المعرفة بحديثه

وسنته[١].

(١) ثم قال: «والحديث الذي ذكره محمد بن طاهر المقدسي في «مسألة السماع» وفي «صفة التصوف» أن النبي ﷺ أنشده أعرابي:

قد لسعت حيّةُ الهوى كبدي ... فلا طبيب لها ولا راقي
إلا الحبيب الذي شغفت به ... فعنده رُقيتي وترياقي

وأنه تواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه، فقال له معاوية: ما أحسن لهوكم! فقال له: مهلاً يا معاوية! ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر الحبيب. فهو حديث مكذوب موضوع باتفاق أهل العلم بهذا الشأن.

وأظهر منه كذبًا حديث آخر يذكرون فيه أنه لما بشّر الفقراء بسبقهم الأغنياء إلى الجنة تواجدوا، وخرقوا ثيابهم، وأن جبرائيل نزل من السماء فقال: يا محمد، إن ربك ليطلب نصيبه من هذه الخرق! فأخذ منها خرقة وعلقها بالعرش، وأن ذلك هو زي الفقراء.

وهذا وأمثاله إنما يرويه مَن هو مِن أجهل الناس بحال النبي ﷺ وأصحابه ومن بعدهم ومعرفة الإسلام والإيمان، وهو يشبه رواية من روى أن أهل الصفّة قاتلوا مع الكفار لما انكسر المسلمون يوم حنين، وأنهم قالوا: نحن مع الله، من كان الله معه كنا معه، وأن الله أخبر أهل الصفة بسرّ وكان قد أمر رسول الله ﷺ بكتمانه، ونحو هذه الأحاديث التي يرويها طوائف منتسبون إلى الدين مع فرط جهلهم بدين الإسلام، فيبنون عليها من النفاق والبدع ما يناسبها، تارة يسقطون التوسط بالرسول، وأنهم يصلون إلى الله تعالى من غير طريق الرسل مطلقًا، فهذا أعظم من كفر اليهود والنصارى، فإن أولئك أسقطوا وساطة رسول واحد، ولم يسقطوا وساطة الرسل مطلقًا».

=

وبالجملة؛ فقد عرف بالاضطرار من دين الإسلام أن النبي ﷺ لم يشرع لصالحي أمته وعبَّادهم وزهَّادهم أن يجتمعوا على استماع الأبيات الملحَّنة، مع ضرب بالكف، أو ضرب بالقضيب، أو الدف. كما لم يُبح لأحد أن يخرج عن متابعته واتباع ما جاء به من الكتاب والحكمة، لا في باطن الأمر، ولا في ظاهره، ولا لعامّي ولا لخاصّي، ولكن رخّص النبي ﷺ في أنواع من اللهو في العرس ونحوه، كما رخص للنساء أن يضربن بالدف في الأعراس والأفراح. وأما الرجال في عهده فلم يكن أحد منهم يضرب بدف، ولا يصفق بكف، بل قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «**التصفيق للنساء والتسبيح للرجال**»(١)، كذلك «**لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء**»»(٢).

ولما كان الغناء والضرب بالدف والكف من عمل النساء، كان السلف يسمّون من يفعل ذلك من الرجال مخنثًا، ويسمّون الرجال المغنّين مخانيث، وهذا مشهور من كلامهم.

وبالجملة؛ فمسألة السماع قد تكلم فيها كثير من المتأخرين، هل هو محظور؟ أو مكروه؟ أو مباح؟ وليس المقصود بذلك مجرد رفع الحرج، بل مقصودهم بذلك أن يتخذ طريقًا إلى الله يجتمع عليه أهل الديانات لصلاح القلوب، والتشويق إلى المحبوب، والتخويف من المرهوب، والتحزين على فوات

= الفتاوى (١١/ ٥٦٣، ٥٦٤).

(١) متفق عليه.

(٢) البخاري (٥٨٨٥).

المطلوب، فتستنزل به الرحمة، وتستجلب به النعمة، وتحرك به مواجيد أهل الإيمان، وتستجلى به مشاهد أهل العرفان، حتى يقول بعضهم: إنه أفضل لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن!

ولهذا يوجد في من اعتاده واغتذى به أنه لا يحن إلى القرآن، ولا يفرح به، ولا يجد في سماع الآيات كما يجد في سماع الأبيات، بل إذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية، وألسن لاغية، وإذا سمعوا سماع المكاء والتصدية خشعت الأصوات، وسكنت الحركات، وأصغت القلوب، وتعاطت المشروب.

فإذا عُرف هذا؛ فاعلم أنه لم يكن في عنفوان القرون الثلاثة المفضلة، لا بالحجاز، ولا بالشام، ولا باليمن، ولا مصر، ولا المغرب، ولا العراق، ولا خراسان، من أهل الدين والصلاة والزهد والعبادة من يجتمع على مثل سماع المكاء والتصدية، وإنما أحدث هذا بعد ذلك في أواخر المئة الثانية، فلما رآه الأئمة أنكروه.

فقال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خلّفت ببغداد شيئًا أحدثته الزنادقة، يسمّونه التغبير، ويصدّون به الناس عن القرآن. وقال يزيد بن هارون: ما يُغبّر إلا الفاسق، ومتى كان التغبير؟! وسئل عنه الإمام أحمد، فقال: أكرهه، هو محدث. قيل: أنجلس معهم؟ قال: لا. وكذلك سائر أئمة الدين كرهوه، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه، فلم يحضره إبراهيم بن أدهم، ولا الفضيل بن عياض، ولا معروف الكرخي، ولا أبو سليمان الداراني، ولا أحمد بن أبي الحواري، والسري السقطي وأمثالهم، والذين حضروه من الشيوخ المحمودين تركوه في آخر أمرهم،

وأعيان المشايخ عابوا أهله، كما فعل ذلك عبد القادر، والشيخ أبو البيان، وغيرهما من المشايخ(١).

وما ذكره الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أنه من إحداث الزنادقة، كلام إمام خبير بأصول الإسلام، فإن هذا السماع لم يرغب فيه ويدعو إليه في الأصل إلا من هو متهم بالزندقة؛ كابن الراوندي، والفارابي، وابن سينا وأمثالهم. وأما الحنفاء أهل ملة إبراهيم الخليل، الذي جعله الله إمامًا، وأهل دين الإسلام، الذي لا يقبل الله

---

(١) وقال: «وأكثر الذين حضروه من المشايخ الموثوق بهم رجعوا عنه في آخر أعمارهم، كالجنيد فإنه حضره وهو شاب، وتركه في آخر عمره، وكان يقول: من تكلف السماع فُتن به، ومن صادفه السماع استراح به. فقد ذم من يجتمع له، ورخص فيمن يصادفه من غير قصد، ولا اعتماد للجلوس له.

وسبب ذلك أنه مجمل ليس فيه تفصيل، فإن الأبيات التي فيها ذكر الحب والوصل والهجر والقطيعة والشوق والتتيم والصبر على العذل واللوم ونحو ذلك، هو قول مجمل، يشترك فيه محب الرحمن، ومحب الأوثان، ومحب الإخوان، ومحب الأوطان، ومحب السنوان، ومحب المردان، فقد يكون فيه منفعة إذا هيّج القاطن، وأثار الساكن، وكان ذلك مما يحبه الله ورسوله، لكن فيه مضرّة راجحة على منفعته كما في الخمر والميسر، فلهذا لم تأت به الشريعة، فالشريعة لم تأت إلا بالمصلحة الخالصة أو الراجحة، وأما ما تكون مفسدته غالبة على مصلحته؛ فهو بمنزلة من يأخذ درهمًا بدينار، أو يسرق خمسة دراهم ويتصدق منها بدرهمين، وذلك أنه يهيّج الوجد المشترك، فيثير من النفس كوامن تضرّه آثارها، ويفتن النفس ويغذيها فتعتاض به عن سماع القرآن». (الفتاوى: ١١/٥٩٣- ٥٩٤) باختصار.

من أحد دينًا غيره، المتبعون لشريعة خاتم الرسل محمد ﷺ، فهؤلاء ليس فيهم من يُرغّب في ذلك، ولا يدعو إليه، وهؤلاء هم أهل القرآن، والإيمان، والهدى، والصدق والرشاد، والنور، والفلاح، وأهل المعرفة والعلم، واليقين والإخلاص، والمحبة لله، والتوكل عليه، والخشية له، والإنابة إليه.

ولكن حضره أقوام من أهل الإرادة، وممن له نصيب من المحبة، لما فيه من التحريك لهم، ولم يعلموا غائلته، ولا عرفوا مغبته، كما دخل قوم من الفقهاء أهل الإيمان بما جاء به الرسول في أنواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام، ظنًا منهم أنه حق موافق، ولم يعلموا غائلته، ولا عرفوا مغبته، فإن القيام بحقائق الدين علمًا وحالاً، وقولاً وعملاً، ومعرفة وذوقًا وخبرة، لا يستقل بها أكثر الناس، ولكن الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة، فإن الله بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا.

وقد قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، قال عبدالله بن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ خطًا، وخطّ خطوطًا عن يمينه وشماله، ثم قال: «**هذا سبيل الله، وهذه سُبُل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ

بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣][(١)].

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فقد رضي الله عن السابقين رضا مطلقًا، ورضي عمن اتبعهم بإحسان، قال عبد الله بن مسعود: إن الله نظر في قلب محمد، فوجد قلبه خير قلوب العباد، فاصطفاه لرسالته، ثم نظر في قلوب الناس بعد قلبه، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد[(٢)]، فما رآه المؤمنون حسنًا، فهو عند الله حسن، وما رأوه قبيحًا فهو عند الله قبيح.

وقال عبد الله بن مسعود: من كان منكم مستنًّا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، أبرّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلّها تكلّفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم[(٣)].

---

(١) أحمد (١/ ٤٣٥)، وصححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٨٤٨).

(٢) أي بعد النبيين، أو أنه عنى هذه الأمة، وقد ترك القيد لوضوحه عند السامع فكان هذا إيجازًا محمودًا.

(٣) مما تميز به ابن أم عبد (عبد الله بن مسعود) رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كلماته المنهجية ووصاياه العميقة، في قالب جزل رصين، وقد كان يدافع الفتن عن الأمة قدر طاقته، وقد نفذ بعلمه الغزير وبركة اتباعه وحسن نيته معدن الحكمة بفراسة لا تكاد تخطئ واستقرائه لمستقبل لم ولن يشهده، ومن تأمل وصاياه، وخاصة ما كان منها تحذيرا أو =

ومن كان له خبرة بحقائق الدين، وأحوال القلوب ومعارفها، وأذواقها، ومواجيدها؛ عَرَفَ أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب للقلوب منفعة ولا مصلحة إلا وفي ضمن ذلك من الضرر والمفسدة ما هو أعظم منه، فهو للروح كالخمر للجسد، يفعل بالنفوس فعل حميا الكؤوس.

ولهذا يورث أصحابه سكرًا أعظم من سكر الخمر، فيجدون لذة بلا تمييز، كما يجد شارب الخمر، بل يحصل لهم أكثر وأكبر مما يحصل لشارب الخمر، ويصدّهم ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة أعظم مما يصدّهم الخمر! ويوقع بينهم العداوة والبغضاء أعظم من الخمر! حتى يقتل بعضهم بعضًا من غير مسّ يد، بل بما يقترن بهم من الشياطين، فإنه يحصل لهم أحوال شيطانية، بحيث تتنزل عليهم الشياطين في تلك الحال، ويتكلمون على ألسنتهم كما يتكلم الجني على لسان المصروع، إما بكلام من جنس كلام الأعاجم الذين لا يفقه كلامهم، كلسان الترك أو الفرس أو غيرهم، ويكون الإنسان الذي لبسه الشيطان عربيًّا لا يحسن أن يتكلم بذلك(١)، بل يكون الكلام من جنس كلام من تكون تلك الشياطين من إخوانهم. وإما بكلام لا يعقل ولا يُفهم له معنى.

= تفجعًا وجد صدقية ذلك، كيف لا، وقد أخذ سبعين سورة من فم النبي ﷺ مباشرة؟! رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

(١) وقد جيء للشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ بفتاة من البادية قد تلبسها جني، فإذا قرأ عليها الشيخ نطق الجني على لسانها بلغة الهنود ولا يحسن العربية، كما أن الفتاة لا تحسن من الهندية شيئًا!

وهؤلاء الذين يدخلون النار مع خروجهم عن الشريعة هم من هذا النمط، فإن الشياطين تلابس أحدهم بحيث يسقط إحساس بدنه، حتى إن المصروع يضرب ضربًا عظيمًا، وهو لا يحسّ بذلك، ولا يؤثر في جلده، فكذلك هؤلاء تتلبسهم الشياطين، وتدخل بهم النار، وقد تطير بهم في الهواء، وإنما يلبس أحدهم الشيطان مع تغيب عقله كما يلبس الشيطان المصروع. وقد باشرنا من هذه الأمور ما يطول وصفه، وكذلك يفعل هؤلاء المتولهون والمتنسبون إلى بعض المشايخ إذا حصل له وجد سماعي، وعند سماع المكاء والتصدية، منهم من يصعد في الهواء، ويقف على زج الرمح، ويدخل النار، ويأخذ الحديد المحمي بالنار ثم يضعه على بدنه، وأنواع من هذا الجنس.

ولا تحصل له هذه الحال عند الصلاة، ولا عند الذكر، ولا عند قراءة القرآن؛ لأن هذه عبادات شرعية إيمانية إسلامية نبوية محمدية، تطرد الشياطين، وتلك عبادات بدعية شركية شيطانية فلسفية تستجلب الشياطين.

قال النبي ﷺ: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا غشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**»(١). وقد ثبت أن أسيد بن حضير لما قرأ سورة الكهف تنزلت الملائكة لسماعها كالظلة فيها السرج(٢).

---

(١) مسلم (٣٨).

(٢) متفق عليه. والظلة: السحابة.

ولهذا كان المكاء والتصدية يدعو إلى الفواحش والظلم، ويصد عن حقيقة ذكر الله تعالى والصلاة كما يفعل الخمر، والسلف يسمّونه «تغبيرًا» لأن التغبير هو الضرب بالقضيب[(١)] على جلد من الجلود، وهو ما يغبر صوت الإنسان على التلحين، فقد يضم إلى صوت الإنسان، إما بالتصفيق بإحدى اليدين على الأخرى، وإما بالضرب بقضيب على فخذ وجلد، وإما بالضرب باليد على أختها، أو غيرها على دف وطبل، كناقوس النصارى، والنفخ في صفارة كبوق اليهود، فمن فعل هذه الملاهي على وجه الديانة والتقرب فلا ريب في ضلالته وجهالته[(٢)].

وأما إذا فعلها على وجه التمتع والتلعّب فمذهب الأئمة الأربعة أن آلات اللهو كلها حرام، فقد ثبت في صحيح البخاري وغيره «أن النبي ﷺ أخبر أنه سيكون في أمته من يستحل الحِرَ والحرير والخمر والمعازف، وذكر أنهم يمسخون قردة وخنازير»[(٣)]. والمعازف: هي الملاهي كما ذكر ذلك أهل اللغة، جمع معزفة، وهي الآلة التي يعزف بها أي يصوت بها[(٤)].

وقال أيضًا: «القلب إذا تعوّد سماع القصائد والأبيات والتذ بها؛ حصل له

(١) القضيب: عود قوي مرن مستوٍ يُضرب به على الجلد أو الطبل ونحو ذلك.

(٢) وقال: «أما السماع المشتمل على منكرات الدين، فمن عدّه من القربات استتيب فإن تاب وإلا قتل، وإن كان متأولاً جاهلاً بيّن له خطأ تأويله». الفتاوى (١١/ ٥٣٥).

(٣) البخاري (٥٥٩٠).

(٤) الفتاوى (١١/ ٥٥٧ـ٥٨٦) باختصار، وانظر (١٠/ ٧٦ـ٨١).

نفور عن سماع القرآن والآيات، فيستغني بسماع الشيطان عن سماع القرآن»[١].

وقال: «النفس لابد لها من شيء في الغالب ترنم به، فمن لم يترنّم بالقرآن ترنّم بالشعر»[٢].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى [٣]: «حصول السمع الحقيقي مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم، فإن بها يحصل غذاء القلب ويعتدل، فتتم قوّته وحياته وسروره ونعيمه وبهجته، وإذا فقد غذاءه الصالح؛ احتاج إلى أن يعتاظ عنه بغذاء قبيح خبيث، وإذا فسد غذاؤه وخبث نقص من حياته وقوته وسروره بحسب ما فسد من غذائه، كالبدن إذا فسد غذاؤه نقص.

فلذا كان تعلّق السمع الظاهر الحسّي بالقلب أشد والمسافة بينهما أقرب من المسافة بين البصر وبينه، ولذلك يؤدي آثار ما يتعلّق بالسمع الظاهر إلى القلب أسرع مما يؤدي إليه آثار البصر الظاهر، ولهذا ربّما غُشي على الإنسان إذا سمع كلامًا يسرُّه أو يسوءُه، أو صوتًا لذيذًا طيبًا مُطربًا مناسبًا، ولا يكاد يحصل له ذلك من رؤية الأشياء المستحسنة بالبصر الظاهر، وقد يكون هذا المسموع شديد التأثير في القلب ولا يشعر به صاحبه باشتغاله بغيره ولمباينة ظاهره لباطنه في ذلك

(١) الفتاوى (١١/ ٥٣٢).
(٢) السابق (١١/ ٥٣٣).
(٣) في معرض مقارنته بين نعمة السمع ونعمة البصر.

الوقت ، فإذا حصل له نوع تجرّد ورياضة ظهرت قوة ذلك التأثير والتأثّر، فكلّما تجرّدت الروح والقلب وانقطعتا عن علائق البدن كان حظّهما من ذلك السماع أوفى وتأثرهما به أقوى.

فإذا كان المسموع معنىً شريفًا بصوت لذيذ؛ حصل للقلب حظّه ونصيبه من إدراك المعنى، وابتهج به أتمّ ابتهاج على حسب إدراكه له، وللروح حظها ونصيبها من لذة الصوت ونغمته وحسنه فابتهجت به فتضاعف اللذة، ويتم الابتهاج، ويحصل الارتياح، حتى ربما فاض على البدن والجوارح وعلى الجليس.

وهذا لا يحصل على الكمال في هذا العالم إلا عند سماع كلام الله، فإذا تجرّدت الروح وكانت مستعدة، وباشر القلب روح المعنى، وأقبل بكليته على المسموع، فألقى السمع وهو شهيد، وساعده طيب صوت القارئ، كاد القلب يُفارق هذا العالم ويلجُ عالمًا آخر، ويجد له لذة وحالة لا يعهدها في شيء غيره البتة، وذلك رقيقة من حال أهل الجنة في الجنة.

فيا له من غذاء ما أصلحه وما أنفعه! وحرام على قلب قد تربى على غذاء السماع الشيطاني أن يجد شيئًا من ذلك في سماع القرآن، بل إن حصل له نوع لذة فهي من قبل الصوت المشترك لا من قبل المعنى الخاص، وليس في نعيم أهل الجنة أعلى من رؤيتهم وجه الله محبوبهم سبحانه وتعالى عيانًا وسماع كلامه منه.

والقلب يتأثر بالسماع بحسب ما فيه من المحبة، فمن امتلأ قلبه من محبة الله وسمع كلام محبوبه فله من سماعه هذا شأن ولغيره شأن آخر.

والناس على ثلاثة أقسام:

الأول: من اتصفت نفسه بصفات قلبه فصارت نفسه قلبًا محضًا[(١)]، فغلبت عليه المعرفة والمحبة والعقل فاستنارت نفسه بنور القلب، واطمأنت إلى ربها وقرّت عينها بعبوديته، وصار نعيمها في حبه وقربه، فهذا حظّه من السماع مثل أو قريب من حظ الملائكة، وسماعه غذاء قلبه وروحه، وقرة عينه، ونعيمه من الدنيا، ورياضه التي يسرح فيها، وحياته التي بها قوامه.

وإلى هذا المعنى قصد أرباب سماع القصائد والأبيات ولكن أخطأوا الطريق وأخذوا عن الدرب شمالاً ووراء.

الثاني: من اتصف قلبه بصفات نفسه بحيث صار قلبه نفسًا محضة[(٢)] فغلبت عليه آفات الشهوات ، فهذا حظه من السماع كحظّ البهائم ولا يسمع إلا دعاءً ونداءً.

الثالث: من له منزلة بين المنزلتين، وقلب باق على فطرته الأولى[(٣)] ولكن ما تصرّف في نفسه تصرفًا أحالها إليه وأزال به رسومها، وجلا عنه ظلمتها، ولا قويت النفس على القلب بإحالته إليها، ولا تصرّفت فيه تصرفًا أزالت عنه نوره وصحته وفطرته، فبين القلب والنفس منازلات ووقائع، والحرب بينهما دُوَلٌ وسجال، تدال النفس عليه تارة، ويدال عليها تارة.

---

(١) وهي النفس المطمئنة.

(٢) وهي النفس الأمارة.

(٣) وهي النفس اللوامة. وكثيرًا ما يذكر شيخي الإسلام ابن تيمية وابن القيم النفوس الثلاث في قوالب شتى وسياقات متعددة.

فهذا حظّه من السماع، حظّه بين الحظّين، ونصيبه منه بين النصيبين، فإن صادفه وقت دولة القلب؛ كان حظه منه قويًّا، وإن صادفه وقت دولة النفس؛ كان ضعيفًا[(١)]، ومن هٰهنا يقع التفاوت بين الناس في الفقه عن الله والفهم عنه والابتهاج والنعيم بسماع كلامه.

وصاحب هذا الحال عند سماعه يشتغل القلب بالحرب بينه وبين النفس، فيفوته من روح المسموع ونعيمه ولذته بحسب اشتغاله عنه بالمحاربة، ولا سبيل له إلى حصول ذلك بتمامه حتى تضع الحرب أوزارها، وربما صادفه في حال السماع واردُ حقّ، أو ظفر بمعنى بديع لا يقدر فكره على صيده في كل وقت، فيغيب به، ويستغرق فيه عما يأتي بعده، فيعجز عن صيد تلك المعاني، ويدهشه ازدحامها فيبقى قلبه باهتًا[(٢)]، كما يُحكى أن بعض العرب أرسل صائدًا له على صيد، فخرج الصيد عليه من أمامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله فوقف باهتًا ينظر يمينًا وشمالاً ولم يصطد شيئًا فقال:

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيدُ

فوظيفته في مثل هذا الحال، أن يفنى عن وارده[(٣)] ويعلّق قلبه بالمتكلم وكأنه يسمع كلامه منه، ويجعل قلبه نهرًا لجريان معانيه ويفرّغه من سوى فهم المراد،

(١) وانظر مقدمة أعمال القلوب من هذا الكتاب.

(٢) أي مبهوتًا منبهرًا مشتتًا لقوة الوارد وضعفه عن حمله جُملةً.

(٣) أي لا يشتغل بالمعاني المبهرة الطارئة على فهمه ولُبّه كلاً على حِدَة، بل يعطي كل وارد حظه مع إتمام حظ غيره، وهذا عزيز جدًّا، والله المستعان.

وينصبّ إليه انصبابًا يتلقى فيه معانيه كتلقّي المحب للأحباب القادمين عليه، لا يشغله حبيب منهم عن حبيب، بل يعطي كل قادم حقه، وكتلقي الضيوف والزوار، وهذا إنما يكون مع سعة القلب، وقوة الاستعداد، وكمال الحضور، فإذا سمع خطاب الترغيب والتشويق واللطف والإحسان لا يغنى عما يجيء بعده من خطاب التخويف والترهيب والعدل، بل يسمع الخطاب الثاني مستصحبًا لحكم الخطاب الأول، ويمزج هذا بهذا ويسير بهما ومعهما جميعًا، عاكفًا بقلبه على المتكلم وصفاته سبحانه.

وهذا سيْرٌ في الله(١)، وهو نوع أعلى وأرفع من مجرد المسير إليه، ولا ينقطع بذلك سيره إليه بل يُدرج سيره، فإن سير القلب في معاني أسمائه وتوحيده ومعرفته، ومتى بقيت للقلب في ذلك ملكة(٢) واشتد تعلقه به؛ لم تحجبه معاني المسموع وصفات المتكلم بعضها عن بعض، ولكن في الابتداء يعسر عليه ذلك، وفي التوسط يهون عليه، ولا انتهاء ههنا البتة(٣) والله المستعان»(٤).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في كشف مكيدة الشيطان ومصيدته التي صاد بها بعض الناس

---

(١) أي العكوف بالقلب وتأمل معاني صفات الله و تدبر كلامه أثناء قراءته أو سماعه للقرآن.

(٢) وهي العلم مع الدُّربة إذا تمكنا في الفؤاد.

(٣) كما في مسند الترمذي عن علي ـ والأظهر وقفه ـ في القرآن «**ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه**» المسند (١٠٢٥٦)، الترمذي (١/ ١٨٨).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٣٠٦ـ٣١١) تحقيق الفقي، باختصار.

عن طريق السماع الشيطاني: «ومن مكايد عدو الله ومصايده التي كاد بها من قلّ نصيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين؛ سماع المكاء والتصدية والغناء بالآلات المحرمة التي يصد القلوب عن القرآن ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو الذي كاد به الشيطان النفوس المبطلة وحسنه لها مكرًا منه وغرورًا، وأوحى إليها الشُّبَهَ الباطلة على حسنه؛ فقبلت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجورًا، فلو رأيتهم عند ذياك السماع، وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا ولا كتمايل النشوان وتكسروا في حركاتهم ورقصهم أرأيت تكسّر المخانيث والنسوان؟ وقد خالط خمارُهُ النفوسَ ففعل فيها أعظم ما يفعله حميا الكؤوس[(١)].

فلغير الله بل للشيطان قلوب هناك تمزّق، وأثواب تشقّق، وأموال في غير طاعة الله تنفق، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله، واستفزّهم بصوته وحيله، وأجلب عليهم برَجِلِه وخيله، وَخَزَ في صدورهم وخْزًا، وأزَّهُم إلى ضرب الأرض بالأقدام، فطورًا يجعلهم كالحمير حول المدار، وتارة كالذباب ترقص وسيط الديار، فيا رحمة للسقوف والأرض من دكّ تلك الأقدام، ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام، ويا شماتة أعداء الإسلام بالدين، يزعمون أنهم خواصُّ الإسلام وقد قضوا حياتهم لذةً وطربًا،

(١) أي الخمر الصرفة.

واتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، مزامير الشيطان أحب إليهم من استماع سور القرآن.

لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرّك له ساكنًا، ولا أزعج له قاطنًا، ولا أثار فيه وجدًا، ولا قدح فيه من لواعج الشوق زندًا، حتى إذا تُلي عليه قرآن الشيطان، وولج مزموره سمعه؛ تفجرّت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فَجَرَت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى يديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزّت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران شوقه فاشتعلت.

فيا أيها المفْتُونُ والبائعُ حظّه من الله بنصيبه من الشيطان، صفقة خاسر مغبون؛ هلّا كانت هذه الأشجان عند سماع القرآن؟ وهذه الأذواق والمواجيد عند قراءة القرآن المجيد؟ وهذه الأحوال السنيّات عند قراءة السور والآيات؟ ولكن كل امرئ يصبو إلى ما يناسبه، ويميل إلى ما يُشاكله، والجنسيّةُ عِلَّةُ الضَّمِّ قدرًا وشرعًا، والمشاكلةُ سببُ الميل عقلاً وطبعًا، فمن أين هذا الإخاء والنسب لولا التعلّق من الشيطان بأقوى سبب؟ ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عقد الإيمان وعهد الرحمن خللاً؟ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾ [الكهف: ٥٠].

ولقد أحسن القائل:

تُلِيَ الكتابُ فأطرقوا لا خيفةً	لكنه إطراقُ ساهٍ لاهي
وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا	والله ما رقصوا لأجل اللهِ
دفٌّ ومزمارٌ ونغمةُ شادنٍ	فمتى رأيت عبادة بملاهي؟

ثَقُـلَ الكتـابُ علـيهمُ لمـا رأَوا ... تقييـــده بـــأوامرٍ ونـــواهي
سـمعوا لـه رعـدًا وبرقًـا إذ حـوى ... زجـرًا وتخويفًـا بفعـل مناهي
ورأوهُ أعظـم قـاطعٍ للـنفس عـن ... شـهواتها يـا ذبحهـا المتنـاهي!
وأتـى الـسماعُ موافقًـا أغراضـها ... فلأجـل ذاك غـدا عظـيم الجاهِ
أيـن المـساعدُ للهـوى مـن قـاطع ... أسـبابه عنـد الجهـول الـساهي
إن لم يكـن خمـر الجـسوم فإنـه ... خمـرُ العقـول مماثـلٌ ومـضاهي
فـانظر إلى النـشوان عنـد شرابـه ... وانظـر إلى النـشوان عنـد ملاهـي
وانظـــر إلى تمزيـــق ذا أثوابـــه ... مـن بعـد تمزيـق الفـؤاد اللاهـي
واحكــم فــأي الخمــرتين أحــق ... بــالتحريم والتــأثيم عنـد الله»[١]

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أدلة تحريم الغناء وكذلك المزامير من القرآن والسنة وأقوال الصحابة وأئمة المسلمين[٢]، وقد أفرد رَحِمَهُ اللَّهُ مصنفًا مستقلاً في السماع.

٩- ظنّ أنه لا يضر مع المحبة ذنب:

قال شيخ الإسلام: «وُجد في المستأخرين من انبسط في دعوى المحبة حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونة والدعوى التي تنافي العبودية، وتدخل العبد في نوع من الربوبية التي لا تصلح إلا لله، ويدّعي أحدهم دعاوى تتجاوز حدود

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم (١/ ٢٢٤-٢٢٦) باختصار، وانظر: المدارج (١/ ٤٨٧-٥٠٧).
(٢) السابق (١/ ٢٢٧ وما بعدها).

الأنبياء والمرسلين، أو يطلبون من الله ما لا يصلح بكل وجه إلا لله، لا يصلح للأنبياء والمرسلين. وهذا باب وقع فيه كثير من الشيوخ.

وسببه ضعف تحقيق العبودية التي بينتها الرسل، وحررها الأمر والنهي الذي جاءوا به، بل ضعف العقل الذي به يعرف العبد حقيقته، وإذا ضعف العقل، وقلّ العلم بالدين، وفي النفس محبة؛ انبسطت النفس بحمقها في ذلك كما ينبسط الإنسان في محبة الإنسان مع حمقه وجهله، ويقول: أنا مُحِبٌّ فلا أؤاخذ بما أفعله من أنواع يكون فيها عدوان وجهل، فهذا عين الضلال، وهو شبيه بقول اليهود والنصارى: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨]، فإن تعذيبه لهم بذنوبهم يقتضي أنهم غير محبوبين ولا منسوبين إليه بنسبة البنوة، بل يقتضي أنهم مربوبون مخلوقون.

فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه محبوبه، لا يفعل ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان، ومن فعل الكبائر وأصرّ عليها، ولم يتب منها؛ فإن الله يبغض منه ذلك، كما يحب منه ما يفعله من الخير؛ إذ حبه للعبد بحسب إيمانه وتقواه، ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون الله يحبه مع إصراره عليها؛ كان بمنزلة من زعم أن تناول السمّ لا يضره مع مداومته عليه، وعدم تداويه منه بصحة مزاجه.

ولو تدبّر الأحمقُ ما قصّ الله في كتابه من قصص أنبيائه، وما جرى لهم من التوبة والاستغفار، وما أصيبوا به من أنواع البلاء الذي فيه تمحيص لهم وتطهير

بحسب أحوالهم؛ عَلِمَ بعضَ ضرر الذنوب بأصحابها ولو كان أرفع الناس مقامًا، فإن المحب للمخلوق إذا لم يكن عارفًا بمصلحته ولا مريدًا لها، بل يعمل بمقتضى الحب - وإن كان جهلاً وظلمًا - كان ذلك سببًا لبغض المحبوب له، ونفوره عنه، بل لعقوبته»(١).

١٠- عدم التفريق بين محبة الله، والمحبة لله، والمحبة مع الله:

محبة الله تعالى أجلى من أن تعرّف، وكل حي يُحسُّها ويشعر بها مع اختلاف مقدارها في القلوب، وكل شيء يُحَبُّ لغيره إلا الله سبحانه وتعالى فإنه يُحبُّ لذاته سبحانه وبحمده، كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهذه المحبة واضحة جلية.

أما المحبة لله فهي محبة ما يحبه الله تعالى من الأقوال والأعمال والاعتقادات والكائنات من الملائكة والبشر والجن والحيوان والطير والجماد والأوقات والأمكنة وغيرها، فكل ما أحبه الله أو أعان على حبه فهو محبوب شرعًا.

أما المحبة مع الله فهي محبة المشركين، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أحب أولياء المتقين كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم فمحبة هؤلاء من أوثق عُرى الإيمان، وأعظم حسنات المتقين.

ولو أحب الرجل لما ظهر له من الخير الذي يحبه الله ورسوله أثابه الله على

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).

ما يحبه الله ورسوله، وإن لم يعلم حقيقة باطنه، فإن الأصل هو حب الله وحب ما يحبه الله، فمن أحب الله وأحب ما يحبه الله كان من أولياء الله، وكثير من الناس يدعي المحبة من غير تحقيق، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

أما من أحب شخصًا لهواه، مثل أن يحبه لدنيا يصيبها منه، أو لحاجة يقوم له بها، أو لمال يتاكّله به، أو بعصبية فيه، ونحو ذلك من الأشياء فهذه ليست محبة لله، بل هذه محبة لهوى النفس، وهذه المحبة هي التي توقع أصحابها في الكفر والفسوق والعصيان، وما أكثر من يدعي حب مشايخ لله، ولو كان يحبهم لله لأطاع الله الذي أحبهم لأجله، فإن المحبوب لأجل غيره تكون محبته تابعة لمحبة ذلك الغير.

وكيف يحب شخصًا لله من لا يكون محبًّا لله؟ وكيف يكون محبًّا لله من يكون معرضًا عن رسول الله ﷺ وسبيل الله؟ وما أكثر من يحب شيوخًا أو ملوكًا أو غيرهم فيتخذهم أندادًا يحبهم كحب الله[1]!

---

(١) وقال: «من طلب أن يُحشر مع شيخ لم يعلم عاقبته كان ضالاً، بل عليه أن يأخذ بما يعلم، فيطلب أن يحشره الله مع نبيه والصالحين من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].
=

والفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله ظاهر، فأهل الشرك يتخذون أندادًا يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حبًّا لله، وأهل الإيمان يحبون ذلك؛ لأن أهل الإيمان أصل حبهم هو حب الله، ومن أحب الله أحب من يحبه، فمحبوب المحبوب محبوب، ومحبوب الله يحب الله، فمن أحب الله فيحبه من أحب الله.

والله سبحانه أرسل الرسل بأنه لا إله إلا هو، فتخلو القلوب عن محبة ما سواه بمحبته، وعن رجاء ما سواه برجائه، وعن سؤال ما سواه بسؤاله، وعن العمل لما سواه بالعمل له، وعن الاستعانة بما سواه بالاستعانة به، ولهذا كان وسط الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

والحب لغير الله كحب النصارى للمسيح، وحب اليهود لموسى، وحب الرافضة لعلي، وحب الغُلاة لشيوخهم وأئمتهم.

ومما يبيّن الحب لله والحب لغير الله؛ أن أبا بكر كان يحب النبي ﷺ مخلصًا لله، وأبو طالب عمّه كان يحبه وينصره لهواه لا لله، فتقبّل الله عمل أبي بكر وأنزل فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧ - ٢١]، وأما أبو طالب فلم يتقبّل عمله، بل أدخله النار، لأنه كان مشركًا عاملاً لغير الله.

وأبو بكر لم يطلب أجره من الخلق، لا من النبي ولا من غيره، بل آمن به

=

وعلى هذا؛ من أحب شيخًا مخالفًا للشريعة كان معه، فإذا دخل الشيخ النار كان معه». (الفتاوى ١١/ ٥١٩).

وأحبه وكلأه وأعانه بنفسه وماله متقربًا بذلك إلى الله، وطالبًا الأجر من الله، ورسوله يبلغ عن الله أمره ونهيه ووعده ووعيده، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

فعلى المسلم أن يفرق بين محبة المؤمنين ودينهم، ومحبة النصارى والمشركين ودينهم، ويتبع أهل التوحيد والإيمان، ويخرج عن مشابهة المشركين وعبدة الصلبان»[(١)].

وقال أيضًا في إيضاح حقيقة حب أبي طالب: «وأبو طالب وإن كان عالمًا بأن محمدًا رسول الله، وهو محب له، فلم تكن محبته له لمحبته الله، بل كان يحبه لأنه ابن أخيه، فيحبه للقرابة، وإذا أحب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرياسة، فأصل محبوبه هو الرياسة، فلهذا لما عرض عليه الشهادتين وقت الموت رأى أن بالإقرار بهما زوال دينه الذي يحبه، وكان دينه أحب إليه من ابن أخيه، فلم يقرّ بهما، فلو كان يحبه لأنه رسول الله، كما كان يحبه أبو بكر، وكما كان يحبه سائر المؤمنين به كعمر وعثمان وعلي وغيرهم لنطق بالشهادتين قطعًا، فكان حبه حبًّا مع الله لا حبًّا لله، ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول ﷺ ومؤازرته؛ لأنه لم يعمله لله، والله لا يقبل من العمل إلا ما أُريد به وجهه»[(٢)].

وقال: «والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله، فأهل التوحيد

---

(١) الفتاوى (١١/ ٥١٩-٥٣٠) باختصار.

(٢) الفتاوى العراقية، ابن تيمية (٢/ ٥٩٦) و هذا ملحض نفيس جدًّا.

والإخلاص يحبون غير الله لله، والمشركون يحبون غير الله مع الله، كحب المشركين لآلهتهم، وحب النصارى للمسيح، وحب أهل الأهواء رؤوسهم»(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما كانت المحبة جنسًا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف، كان أغلب ما يُذكر فيها في حق الله تعالى وما يختص به ويليق به من أنواعها، ولا يصلح إلا له وحده، مثل العبادة والإنابة ونحوهما، فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده، وكذلك الإنابة.

وقد تذكر المحبة باسمها المطلق كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وأعظم أنواع المحبة المذمومة؛ المحبة مع الله، التي يُسوِّي فيها المُحب بين محبته لله ومحبته للند الذي اتخذه من دونه.

وأعظم أنواعها المحمودة؛ محبة الله وحده، ومحبة ما أحب، وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها، التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها، والمحبة المذمومة الشركية هي أصل الشقاوة ورأسها، التي لا يبقى في العذاب إلا أهلها، فأهل المحبة الذين أحبوا الله، وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار، ومن دخلها منهم بذنوبه فإنه لا يبقى فيها منهم أحد.

---

(١) السابق (٢/ ٦٥٨).

ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها، والنهي عن المحبة الأخرى ولوازمها، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين، وذكر قصص النوعين، وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم، ومعبود كليهما، وإخباره عن فعله بالنوعين، وعن حال النوعين في الدور الثلاثة؛ دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فالقرآن في شأن النوعين»(١).

١١. محبة غير الله تعالى، وغير ما أحب الله تعالى:

قال شيخ الإسلام في كلام عال القدر جليل المعنى: «إن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره، إذ ليس عند القلب لا أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاصه الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منيبًا إلى الله، خائفًا منه، راغبًا راهبًا، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، إذ المحب يخاف زوال مطلوبه، وحصول مرغوبه، فلا يكون عبدَ الله ومحبَّهُ إلا بين خوف ورجاء، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

ومن لم يكن خالصًا لله، عبدًا له، قد صار قلبه معبدًا لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلاً له خاضعًا؛ وإلا

(١) الداء والدواء، ابن القيم (٤٦٣، ٤٦٤).

استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه، فالقلب إذا لم يكن حنيفًا مقبلاً على الله معرضًا عما سواه، وإلا كان مشركًا، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد جعل اللهُ سبحانه إبراهيمَ وآلَ إبراهيم أئمة لهؤلاء الحنفاء المخلصين، أهل محبة الله وعبادته وإخلاص الدين له، كما جعل فرعونَ وآلَ فرعون أئمة المشركين المتبعين أهواءهم، قال تعالى في إبراهيم: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٢ ، ٧٣]، وقال في فرعون وقومه: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٤١، ٤٢]»[١]، فأصل الشرور محبة غير الله تعالى وغير ما يحبه الله تعالى.

١٢ـ الهوى والعشق:

وبينهما عموم وخصوص والعشق أخص، وميدانهما واحد وهو تعلق القلب

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٢١٥ـ٢١٧) باختصار.

بالشيء، فإن كان ثَمَّ شهوة فأخص به العشق، فكل عشق هوى ولا عكس.

قال الليث: «الهوى هوى الضمير»[١]. وقال ابن فارس: «الهاء والواو والياء أصل صحيح يدل على خُلُوّ وسقوط، أصله الهواء بين الأرض والسماء، سُمّي لخلوّه، قالوا: وكلّ خال هواء، قال الله تعالى: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي خالية لا تعي شيئًا، يقال: هوى أي سقط، والهاوية جهنم لأن الكافر يسقط فيها، والهَوِيُّ ذهابٌ في انحدار، والهُوِي في الارتفاع[٢]، أما الهوى: هوى النفس، وهو من المعنيين جميعًا[٣] لأنه خالٍ من كل خير، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي، قال الله تعالى في وصف نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]»[٤].

وقال الراغب: «الهوى ميل النفس إلى الشهوة. وقيل: سُمّي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»[٥].

أما العشق - عندي - فهو إسراف المحبة التي خالطتها شهوة.

وقال ابن فارس: «العين والشين والقاف أصل صحيح يدل على تجاوز حد

---

(١) معجم التهذيب (٤/ ٣٨١٥).

(٢) لمعرفة الاشتقاقات أثر كبير في سلامة تدبر القرآن الكريم.

(٣) أي الخلو والسقوط.

(٤) معجم المقاييس (١٠١٨).

(٥) المفردات (٥٢٤).

المحبة»[١]. وقال ابن منظور: «العشق فرط الحب، وقيل: هو عُجْب المحب بالمحبوب يكون في عفاف الحب ودعارته. وسئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن الحب والعشق: أيهما أحمد؟ فقال: الحب؛ لأن العشق فيه إفراط، وسُمي العاشق عاشقًا لأنه يذبُل من شدة الهوى كما تذبل العَشَقَةُ إذا قُطعت»[٢]، وزاد الفيروز آبادي: «وقد يكون عن عمى الحسّ عن إدراك عيوب المحبوب، أو بمرض وسْوَاسي يجلبه إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور»[٣].

هذا و العشق شطران وهمٌ وشهوة، لذا فما وجد للعاشق كالنكاح لإذهاب ذلك، وإلا أضناه الوهم وأحرقته الشهوة[٤].

(١) معجم المقاييس (٧٤٧).

(٢) لسان العرب (٦/ ٢٦٧).

(٣) القاموس (١١٦٢) بتصرف يسير.

(٤) وانظر تفصيل ذلك في كتابي (وقد يجمع الله الشتيتين).

علامات العشق

للعلامة ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام لطيف حول علامات العشق في طوق الحمامة[١]، نذكر بعض مهماته على سبيل الاختصار، قال: «ومن علامات العشق[٢] وشواهده الظاهرة لكل بصر: الانبساط الكثير الزائد في المكان الضيق، والتضايق في المكان الواسع[٣]، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما، وكثرة الغمز الخفي، والميل بالاتكاء، وتعمّد لمس اليد عند المحادثة، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة، وشرب فضلة ما أبقى المحبوب في الإناء، وتحرّي المكان الذي يقابله فيه.

ومنها علامات متضادة، وهي على قدر الدواعي والعوارض الباعثة، والأسباب المحرّكة، والخواطر المهيجة. والأضداد أنداد، والأشياء إذا أفرطت في غايات تضادّها ووقفت في انتهاء حدود اختلافها تشابهت[٤].

قدرةٌ من الله عز وجل تضل فيه الأوهام، فهذا الثلج إذا أدمن حبسه في اليد

---

(١) انظر: طوق الحمامة (١/ ١٠٦) وما بعدها.

(٢) أما علامات محبة الله تعالى فقد سبق بيانها.

(٣) كما قال مجنون ليلى:

تكاد بلاد الله يا أم مالك ... بما رحبت يومًا عليّ تضيق

(٤) وهذا معنى عميق، وهو أحد عجائب النفوس الإنسانية، ولا غرو أن يقع عليه مثل هذا الغوّاص الفهّامة.

فَعَلَ فِعْل النار، ونجد الفرح إذا أفرط قتل، والغم إذا أفرط قتل، والضحك إذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين، وهذا في العالم كثير، فنجد المحبين إذا تكافيا في المحبة وتأكدت بينهما تأكدًا شديدًا كَثُرَ تهاجرهما بغير معنى، وتضادّهما في القول تعمدًا، وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور، وتتبّع كل واحد منهما لفظة تقع من صاحبه وتأولها على غير معناها! كل هذا تجربة ليبدو ما يعتقده كل واحد منهما في صاحبه.

والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومحاربة التشاجر سرعة الرضى(١)، فإنك بينما ترى المحبَّين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذي لا تقدّره يصلح عند الساكن النفس السالم من الأحقاد في الزمن الطويل، ولا ينجبر عند الحقود أبدًا، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصحبة، وأهدرت المعاتبة، وسقط الخلاف، وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة! هكذا في الوقت الواحد مرارًا.

وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجنّك شك ولا يدخلنّك ريب البتة ولا تتمار في أن بينهما سرًّسا من الحب دفينًا، واقطع فيه قطع من لا يصرفه عنه صارف(٢)، ودونكها تجربة صحيحة وخبرة صادقة. وهذا لا يكون إلا عن تكافٍ في المودة

(١) وهذا قيد مهم، ولعل تصور هذا يحلّ كثيرًا من مشكلات الأزواج.

(٢) قريب من ذلك حال كثيّر مع صاحبته عزّة، قال:

هنيئًا مريئًا غير داءٍ مخامرٍ ... لعزّة من أعراضنا ما استحلّتِ
أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ... لدينا ولا مقليّةً إن تقلّتِ

وائتلاف صحيح، وقد رأيته كثيرًا.

ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعي سماع اسم من يحب[(١)]، ويستلذ الكلام في أخباره، ويجعلها هُجّيراه[(٢)] ولا يرتاح لشيء ارتياحه لها، ولا ينهنهه عن ذلك تخوّف أن يفطن السامع ويفهم الحاضر، و«**حُبُّكَ الشيء يُعمي ويُصم**»[(٣)]، فلو أمكن المحب ألا يكون حديث في مكان إلا ذكر ما يحبه لما تعداه[(٤)].

ويعرض للصادق في المودة أن يبتدئ في الطعام وهو له مُشْتَهٍ، فما هو إلا وقت ما يهتاج له ذكر من يحب صار الطعام غصّة في الحلق وشجى في المريء، وهكذا في الماء[(٥)]، وفي الحديث فإنه يفاتحه مبتهجًا فتعرض له خطرة من

(١) كما قال المجنون:

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما ... أطار بليلى طائرًا كان في صدري

(٢) أي ديدنه ودوام حاله.

(٣) وهو حديث شريف، عند أبي داود مرفوعًا (١١٦) وأحمد (٥/ ١٩٤).

(٤) قال قيس ليلى:

وإني لأستغشي وما بي نعسةٌ ... لعلّ خيالاً منك يلقى خياليا

وأخرج من بين البيوت لعلّني ... أُحدّث عنك النفس بالسرّ خاليا

ولشرف معنى هذين البيتين فقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية ربما خرج من العمران حتى إذا خلا في البيداء؛ رفع بصره إلى السماء وأنشدهما. وشتان بين الغرضين والحُبَّين!

(٥) كما قال الطُغُرَّائي:

=

خطرات الفكر فيمن يحب فيتغير حاله إلى ذلك.

ومن آياته مراعاة المحب لمحبوبه، وحفظه لكل ما يقع منه، وبحثه عن أخباره حتى لا يسقط عنه دقيقه ولا جليله، وتبعه لحركاته ولعمري لقد ترى البليد يصير ذكيًّا، والغافل فطنًا.. من العلامات كذلك نحول الجسم والسهر الطويل، والقلق عند انتظار من يحب، والجزع الشديد عند إعراض المحبوب، والبكاء، ومحبة أهل المحبوب»(١).

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ علامات أخرى للعشق وللحب، منها: «إغضاء الطرف عند نظر المحبوب إليه، والانقياد لأمره، وقلّة صبره عنه، والإقبال على حديثه، ومحبة داره، والإسراع في السير إليه، وانجلاء الهموم برؤيته، والبهت والروعة عند مصادفته، والغيرة عليه، والسرور بما يُسرّه، وحب الوحدة والأنس بالخلوة، وتردّد الأنفاس وتصاعدها بسببه، وهجر ما يُقصي عنه»(٢).

=

إني لأذكركُم وقد بلغ الظما ... منّي فأشرقُ بالزلال البارِدِ

(١) طوق الحمامة (١/ ١١٤).

(٢) وقد سبق الحديث عنها. وانظر: روضة المحبين (٢٣٢-٢٥٥).

ذم الهوى وما في مخالفته من نيل المنى

قال ابن القيم: «الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميلُ خُلِقَ في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ما أكل ولا شرب ولا نكح، فالهوى مستحثّ له لما يُريده، كما أن الغضب دافعٌ عنه ما يؤذيه، فلا ينبغي ذم الهوى مطلقًا، ولا مدحه مطلقًا، كما أن الغضب لا يُذم مطلقًا ولا يحمد مطلقًا، وإنما يُذم المُفْرِطُ من النوعين، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضار.

ولما كان الغالب على مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حد المنتفع به، أطلق ذم الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر؛ لأنه يندر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده، لذلك حَرِصَ الناصح على تعديل قوى الشهوة والغضب من كل وجه، وهذا أمر يتعذر وجوده إلا في حق أفراد من العالم، فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمّه، وكذلك في السنة لم يجئ لا مذمومًا، إلا ما جاء منه مقيدًا كقوله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»**(١).

وقد قيل: الهوى كمينٌ لا يُؤْمَن. وقال الشعبي: «وسمّي هوى لأنه يهوي

---

(١) رواه الطبراني والبغوي، وقال النووي في أربعينه: هذا حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح، وضعفه الألباني لضعف نعيم بن حماد. وصححه أحمد شاكر في عمدة التفسير (١/ ٥٥٣).

بصاحبه في النار»[١]، ومُطلقهُ يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في العاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً، وإن كانت سببًا لأعظم الآلام عاجلاً وآجلاً، فللدنيا عاقبة قبل عاقبة الآخرة، والهوى يُعمي صاحبه عن ملاحظتها، والمروءة والدين والعقل ينهى عن لذة تعقب ألمًا، وشهوة تورث ندمًا، فكلٌّ منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك: لا تفعلي، والطاعة لمن غلب.

ولما امتُحن المكلفُ بالهوى دون البهائم، وكان كل وقت تحدثُ عليه حوادثُ جُعِلَ فيه حاكمان: حاكم العقل وحاكم الدين، وأُمر أن يرفع حوادث الهوى دائمًا إلى هذين الحكمين وأن ينقاد لحكمهما.

وليعلم اللبيب أن مُدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذّون بها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لابد لهم منه! لهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ به عشر معشار التذاذ من يفعله نادرًا في الأحيان، غير أن العادة مقتضيةٌ ذلك، فيلقي نفسه في المهالك لنيل ما تطلبه به العادة، ولو زال عنه رَيْنُ[٢] الهوى لَعَلِمَ أنه قد شقي من حيث قدّر السعادة، واغتمّ من حيث ظن الفرح، وأَلِمَ من حيث أراد اللذة، فهو كالطائر المخدوع بحبة القمح، لا هو نال الحبَّة، ولا هو تخلص مما وقع فيه»[٣].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١/ ١٤٧).

(٢) الران والرين: ما غطى على القلب وركبه وتلبّسه من القسوة والغفلة للذنب بعد الذنب، وفي التنزيل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

(٣) روضة المحبين (٤١٣، ٤١٤) باختصار.

أسباب الهوى

للهوى أسباب ودوافع على الناصح لنفسه معرفتها حتى يحسم مادتها قدر طاقته، ومنها:

١ـ عدم تعويد النفس على ضبط هواها منذ الصغر:

فالنفس كالعود الغضِّ، ولا يزيدها كرور الأيام ومرور الليالي إلا يبوسةً على ما عودت عليه.

٢ـ العجز وترك مجاهدة النفس، أو الضعف في المجاهدة:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، والنفس كالدابة الحرورن الجموع فلابد لها من حسن سياسة تجمع بين الحزم واللين.

٣ـ ضعف الصبر:

وما خسر ابن آدم خيري الدارين بعد خذلان الله إلا من جهة ضعف صبره، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس باد الجسد» ثم رفع رأسه وقال: «ألا إنه لا

إيمان لمن لا صبر له»(١).

٤. ضعف اليقين:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فبالصبر تدفع الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]»(٢).

٥. محبة الدنيا والركون إليها مع نسيان الآخرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝٧ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

٦. قلة العلم بالله عز وجل:

فقلّة المعرفة بالله تورث الغفلة والقسوة، وعلى قدر العلم النافع بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله يكون الإيمان والخشية واليقين، وبضد ذلك تكون أضدادها، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا (٨/٢٤) وحسنه سليم الهلال في تحقيقه لعدة الصابرين، ص١٥٦.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٢٠).

ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

٧ـ قلة وضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ففي مخالفة الشريعة يكون البلاء، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وأسلوب الحصر يدل على أن من يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر فليس من المفلحين،ومع التواصي والتعاون والتناصح يندحر سلطان الهوى لسلطان الهدى بإذن الله تعالى، والله المستعان.

٨ـ ضعف الاتباع لرسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه:

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

٩ـ مجالسة أهل الأهواء والبدع والتلقي عنهم:

فمن شؤم مجالستهم التلوث بقذر بدعهم ومحدثاتهم وأهوائهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٨]. قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها: «في هذه الآية موعظة عظيمة لمن يسمح بمجالسة المبتدعة الذين يحرفون كلام الله»(١). وقال الحسن وابن سيرين رحمهما الله: «لا تجالسوا

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/ ١٢٨).

أهل الأهواء ـ أي البدع ـ ولا تجادلوهم، ولا تسمعوا منهم»(١). والكلام في هذا له مقام آخر بإذن الله تعالى .

١٠ـ الرغبة عن مصادر التلقي لأهل السنة والجماعة:

وهذا لازم لما قبله ونتيجة له، وهل تضن في من ترك الوحيين بفهم سلف الأمة هدى وتوفيقًا؟!

١١ـ الجهل بعواقب الهوى ومفاسده:

ويكفي في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١] فالفساد بحذافيره في اتباع الهوى، ومن ذلك الفساد:

أـ القدح في كمال الإيمان، فالذنوب موجبة لنقصه وبعضها موجب لنقضه.

ب ـ القدح في كمال التوحيد، فالتوحيد الكامل لا يبقى معه هوى، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، قال شيخ الإسلام: «فصاحب الهوى الذي اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيبٌ ممن اتخذ إلهه هواه فصار فيه شرك منعه من الاستغفار»(٢).

جـ ـ القدح في كمال المتابعة، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا

(١) سنن الدارمي (١/ ١٢١).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٦٢).

لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

د ـ اتباع الهوى مخالف للمقصد الشرعي من الشريعة. قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف من داعية هواه حتى يكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبدٌ لله اضطرارًا»(١).

هـ ـ اتباع الهوى سبب للمعاصي والبدع، فإنه لما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤] فالضلال في مخالفته.

و ـ اتباع الهوى يضل عن الحق، ويبعد عن الصواب. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥].

ز ـ اتباع الهوى يمرض القلب ويفسد الرأي. قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علل القلوب من اتباع الهوى، كما أن علل الجوارح من مرض البدن»(٢).

ح ـ أنه سبيل إلى النفاق. قال الحسن وقتادة في قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] قالا: «هو المنافق لا يهوى شيئًا إلا ركبه»(٣).

---

(١) الموافقات (٢/ ٢٨٩).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٢١٥، ٢١٦).

(٣) تفسير الطبري (٢٥/ ١٥٠).

ط ـ أنه سبب للفرقة بين المسلمين. قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، قال عكرمة رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يزالون مختلفين في الهوى»(١).

ي ـ أنه سبب للحرمان من الجنة ـ عياذًا بوجه الله تعالى ـ قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١](٢). وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يُقدّر فيه من المصلحة، وذلك من وجوه:

أحدها: الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره.

الثاني: عذاب قلبه بمعشوقه، فإن من أحب شيئًا غير الله عُذِّبَ به.

فما في الأرض أشقى من مُحبٍّ ... وإن وجد الهوى حلوَ المذاقِ
تراهُ باكيًا في كل حينٍ ... مخافة فرقة أو لاشتياقِ
فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم ... ويبكي إن دنوا حذرَ الفراقِ
فتسخنُ عينُهُ عند الفراق ... وتسخنُ عينُه عند التلاقِ

(١) تفسير الطبري (١٢/ ١٤٢).
(٢) باختصار وتصرف عن الإخلاص حقيقته ونواقضه، عبد الله الأحمدي (٢/ ٤٠١- ٤١٦).

والعشق وإن استعذبه العاشق، فهو من أعظم عذاب القلب.

الثالث: أن العاشق قلبه أسير في قبضة معشوقه، يسومه الهوان، ولكن لسكرة العشق لا يشعر بمصابه فقلبه:

كعصفورةٍ في كفِّ طفلٍ يسومُها حياضَ الردى والطفل يلهو ويلعبُ

فعيش العاشق عيش الأسير الموثق، وعيش الخليِّ عيشُ المسيَّب المطلق كما قيل:

طليقٌ برأي العين وهو أسيرُ عليلٌ على قطب الهلاك يدورُ
ومَيْتٌ يُرَى في صورة الحيِّ غاديًا وليس له حتى النشور نشورُ
أخو غمرات ضاع فيهنَّ قلبُهُ فليس له حتى المات حضورُ

الرابع: أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه، فليس شيء أضيع لمصالحهما من عشق الصور.

أما مصالح الدين فإنها منوطة بِلَمِّ شَعثِ القلب وإقباله على الله، وعشق الصور أعظم شيء تشعيثًا وتشتيتًا له. وأما مصالح الدنيا فتابعة في الحقيقة لمصالح الدين، فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه فمصالح دنياه أضيعُ وأضيعُ.

الخامس: أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار في يابس الهشيم.

السادس: أنه إذا تمكّن من القلب واستحكم أفسد الذهن، وأحدث

الوسواس، وربما التحق صاحبه بالمجانين[١]، وربما أربى عليهم كما قيل:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم الحب أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يُصرع المجنون في الحين

السابع: أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها إما إفسادًا معنويًّا أو صوريًّا.

أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب، فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان، فيرى القبيح حسنًا من معشوقه كما في المسند مرفوعًا: «**حبُّك للشيء يُعمي ويصم**»[٢]، فيُعمي العين عن رؤية مساوئ المحبوب ويصم الأذن عن الإصغاء إلى العذل فيه، والرغبات تستر العيوب حتى إذا زالت الرغبة زالت معها غشاوتها على العين كما قيل:

هويتُك إذ عيني عليها غشاوةٌ فلما انجلتْ قطعتُ نفسي ألومُها

وأما إفساده للحواس ظاهرًا فإنه يُمرض القلب ويُنْهِكُهُ، وربّما أدّى إلى تلفه، كما هو معروف في أخبار من قتلهم العشق.

وقد رُفِعَ إلى ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا - وهو بعرفة - شابٌّ قد اصفرّ ونحَلَ حتى عاد عظمًا بلا لحم، فقال: ما شأن هذا؟ قالوا: به العشق، فجعل ابن عباس يستعيذ بالله من العشق عامَّة يومه.

---

(١) انظرها مفصلة في كتاب (وقد يجمع الله الشتيتين).

(٢) أحمد (٥/ ١٩٤) والأصح وقفه على أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وانظر: البخاري (١٠٧/٢).

الثامن: بالعشق تشتغل النفس عن استخدام القوى الحيوانية والنفسانية فتعطل تلك القوى فيحدث بتعطلها من الآفات ما يعزّ دواؤه أو يتعذّر، كما قيل:

الحبُّ أول ما يكون لحاجة ... تأتي به وتسوقه الأقدارُ
حتى إذا خاض الفتى لُجَجَ الهوى ... جاءت أمور لا تُطاقُ كبارُ

والعشق مبادئه سهلة حلوة، وأوسطه همّ وشغلُ قلبٍ وسقم، وآخره عطب وقتل إن لم تدركه عناية الله، كما قيل:

وَعِشْ خاليًا فالحبُّ أولُهُ عَنَا ... وأوسطُه سقم وآخره قتلُ

وقال آخر:

تولَّعَ بالعشق حتى عَشِقْ ... فلمّا استقلّ بهِ لم يُطِقْ
رأى لُجّةً ظنّها موجةً ... فلما تمكّن منها غَرِقْ

والذنب له، فهو الجاني على نفسه، وقد قعد تحت المثل السائر: يداكَ أَوْكَتا وفوكَ نفَخ»(١).

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله سبحانه إنما حكى عشق الصور في القرآن عن المشركين، فحكاه عن امرأة العزيز وكانت مشركة على دين زوجها وكانوا مشركين، وحكاه عن اللوطية وكانوا مشركين، فقال تعالى في قصتهم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

---

(١) الداء والدواء (٤٩٢-٤٩٩) باختصار.

وأخبر سبحانه أنه يصرف عن الإخلاص فقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وقد أخبر سبحانه أن سلطان الشيطان إنما هو على ﴿ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠] فأصحاب العشق الشيطاني لهم من تولي الشيطان والإشراك به بقدر ذلك، لما فيهم من الإشراك بالله، ولما فاتهم من الإخلاص له، ففيهم نصيب من اتخاذ الأنداد، ولهذا ترى كثيرًا منهم عبدًا لذلك المعشوق! فلو خيّر بين رضاه ورضا الله: لاختار رضا معشوقه على رضا ربه، ولقاءَ معشوقه أحب إليه من لقاء ربه، وتمنيه لقربه أعظم من تمنيه لقرب ربه، وهربه من سخطه عليه أشد من هربه من سخط ربه عليه، وإن قام في الصلاة فلسانه يناجي ربه وقلبه يناجي معشوقه(١).

ولا ريب أن هؤلاء من الذين اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حبًّا لله»(٢).

---

(١) وتأمل قول قيس صاحب ليلى، واستعذ بالله من غدرات الهوى ولدغات العشق:

أراني إذا صليتُ يمّمتُ نحوها ... بوجهي وإن كان المصلّى ورائيا
وما بي إشراكٌ ولكنَّ حبّها ... كعود الشجى أعيا الطبيب المداويا

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٨٦٩، ٨٧٠) باختصار.

علاج الهوى ومنه العشق

ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آخر كتابه روضة المحبين خمسين وسيلة لعلاج الهوى، وهي على سبيل الإجمال:

١ـ عزيمة حرٍّ يغار لنفسه وعليها.

٢ـ جرعة صبر يصبر على مرارتها تلك الساعة.

٣ـ قوّة نفس تشجّعه على شرب تلك الجرعة النافعة، والشجاعة كلها صبر ساعة.

٤ـ النظر في حسن عاقبة الصبر.

٥ـ النظر في عاقبة الهوى وآلامه وعذاباته. كما قال أحد الأعراب وقد تنحّى عن امرأة أراد منها ريبة: إن امرأً باع جنة عرضها السموات والأرض بفترٍ بين رجليك لقليل البصر بالمساحة.

٦ـ إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى، ثم في قلوب عباده.

٧ـ إيثاره لذّة العفاف وعزته وحلاوته على لذة المعصية.

٨ـ فرحه بغلبة عدوّه وقهره له ورده خاسئًا بغيظه وغمه وهمه.

٩ـ التفكر في أنه لم يخلق للهوى بل لمخالفة الهوى.

١٠ـ ألا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالاً منه، فإذا سُلب

العقل والعلم والعزيمة فالبهيمة أحسن منه حالاً ومآلاً.

١١ـ أن يسير بقلبه في عواقب الهوى وإخراجه من قصور الفضائل إلى زبائل الرذائل.

١٢ـ أن يتصوّر انقضاء غرضه ممن يهواه، ثم يتصوّر حاله بعد قضاء الوطر.

١٣ـ أن يتصوّر ذلك في حق غيره، ثم يُنزل نفسه تلك المنزلة.

١٤ـ أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك، ويسأل عنه عقله ودينه يخبرانه بأنه ليس بشيء، كما قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: إذا أعجبت أحدكم امرأة فليذكر مناتنها. وقال المتنبي:

لو فكّر العاشق في منتهى ... حُسْنِ الذي يسبيهِ لم يسبِهِ

١٥ـ أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى.

١٦ـ أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه وبين نيل اللذة المطلوبة.

١٧ـ أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوّه.

١٨ـ أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئًا إلا أفسده.

١٩ـ أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل عليه إلا من جهة هواه.

٢٠ـ أن يعلم أن الله تعالى جعل الهوى مضادًّا لما أنزله على رسوله. قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال

تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [البقرة: ١٢٠] ونظائره كثيرة.

٢١ـ أن يعلم أن الله تعالى شبّه أتباع الهوى بأخس الحيوانات صورة ومعنى، فشبّههم بالكلب تارة كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وبالحُمُر تارة كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾ [المدثر: ٥٠، ٥١].

٢٢ـ أن متّبع الهوى ليس أهلاً أن يطاع ولا يكون إمامًا ولا متبوعًا. قال تعالى لخليله إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

٢٣ـ أن متبع الهوى بمنزلة عابد الوثن. قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

٢٤ـ أن الهوى خِطَارُ[1] جهنم المحيطُ بها حولها، قال ﷺ: «**حُفَّتِ الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات**»[2].

٢٥ـ يُخشى على من اتبع هواه أن ينسلخ من الإيمان وهو لا يشعر.

٢٦ـ أن اتباع الهوى من المهلكات، قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث مهلكات،**

---

(١) الخطار: كل شيء حجز بين شيئين كحائط وبستان.

(٢) متفق عليه.

وثلاث منجيات، فالمهلكات: شح مُطاع، وهوىً متَّبَعٌ، وإعجاب المرء بنفسه، والمنجيات: تقوى الله في السر والعلانية، والعدل في الغضب والرضى، والقصد في الفقر والغنى»[١].

٢٧ـ أن مخالفة الهوى تورث العبد قوّة في بدنه وقلبه ولسانه.

٢٨ـ أن أغزر الناس مروءة أشدّهم مخالفةً لهواه.

٢٩ـ أنه ما من يوم إلا والهوى والعقل يعتلجان في صاحبه، فأيهما قوي على صاحبه طرده.

٣٠ـ أن الهوى داء ومخالفته دواؤه.

٣١ـ أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظم من جهاد الكفار فليس بدونه. ولما سئل الحسن: أي الجهاد أعظم؟ قال: جهادك هواك[٢]، وقال شيخنا ـ أي ابن تيمية ـ: جهاد النفس والهوى أصلُ جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى يخرج إليهم.

٣٢ـ أن الله سبحانه وتعالى جعل الخطأ واتباع الهوى قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين. ولهذا أوصى بعض السلف مَن تردد بين أمرين أن يختار أبعدهما عن هواه.

---

(١) صحيح بطرقه. رواه البزار (٨٠)، والبيهقي في الشعب (٧٤٥) وغيرهما، وصححه الألباني، وانظر: الصحيحة (١٨٠٢).

(٢) ولما سئل ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن الغزو قال: ابدأ بنفسك فاغْزُها.

٣٣ـ أن الهوى تخليط ومخالفته حَمِيَّةٌ.

٣٤ـ أن اتباع الهوى يغلق على العبد أبواب التوفيق، ويفتح عليه أبواب الخذلان، فتراه يلهج بأن الله لو وفَّقه لكان كذا وكذا، وقد سدّ على نفسه طرق التوفيق باتباعه هواه. قال الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: من استحوذ عليه الهوى واتباعُ الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق. وكان بعض السلف يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال:

أهوى هوى الدِّين واللذّاتُ تُعجبني فكيف لي بهوى اللّذات والدين

فقالت: دع أحدهما تنل الآخر.

٣٥ـ أن من نصر هواه فسد عقله ورأيه؛ لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه وهذا شأنه سبحانه في كل من خانه في أمر من الأمور فإنه يفسده عليه.

قال المعتصم: يا فلان إذا نُصر الهوى ذهب الرأي. وسمعت رجلاً يقول لشيخنا: إذا خان الرجل في نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد. فقال الشيخ: هكذا من خان الله ورسوله في مسائل العلم.

٣٦ـ أن من فسح لنفسه في اتباع الهوى ضيّق عليها في قبره ويوم معاده، ومن ضيّق عليها بمخالفة الهوى وسّع عليها في قبره ومعاده. وقد أشار الله تعالى إلى هذا في قوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

٣٧ـ أن اتباع الهوى يصرع العبدَ عن النهوض يوم القيامة عن السعي مع الناجين كما صرعَ قلبه في الدنيا عن مرافقتهم.

٣٨.أن اتباع الهوى يحلّ العزائم ويوهنها، ومخالفته تشدّها وتقويها.

٣٩.أن مثل راكب الهوى كمثل راكب فرس حديدٍ صعب جموح لا لجام له، فيوشك أن يصرعه فرسه في خلال جريه أو يسير به إلى هلاكه. قال بعضهم: أسرع المطايا إلى الجنة الزهد في الدنيا، وأسرع المطايا إلى النار حب الشهوات، ومن استوى على متن هواه أسرع به إلى وادي الهكلات.

٤٠. أن التوحيد واتباع الهوى متضادان. قال المطَّوِّعي: صنم كل إنسان هواه، فمن كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوّة، وتأمل قول الخليل عليه السلام لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] كيف تجده مطابقًا للتماثيل التي يهواها القلب ويعكف عليها ويعبدها من دون الله، قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

٤١.أن مخالفة الهوى مطردةٌ للداء عن القلب والبدن.

٤٢.أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى.

٤٣.أن الله تعالى قد جعل في العبد هوىً وعقلاً فأيهما ظهر توارى الآخر.

٤٤ـ أن الله تعالى جعل القلب ملك الجوارح ومعدن معرفته ومحبته وعبوديته، وامتحنه بسلطانين وجيشين وعونين وعُدَّتين، فالحق والزهد والهُدى سلطان، وأعوانه الملائكة، وجيشه الصدق والإخلاص ومجانبة الهوى، والباطل

سلطان، وأعوانه الشياطين، وجنده وعُدَّته اتّباع الهوى، والنفس واقفة بين الجيشين ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من ثغرتها وناصيتها، فهي تخامر على القلب، وتصير مع عدوه عليه فتكون الدائرة عليه.

٤٥ـ أن أعدى عدوٍّ للمرء شيطانه وهواه، وأصدق صديق له عقله والمَلَكَ الناصحُ له، فإذا اتبع هواه أعطى بيده لعدوّه واستأسر له وأشمته به، وساء صديقه ووليَّه، وهذا بعينه هو جَهْدُ البلاء، ودَرَكُ الشقاء، وسوءُ القضاء، وشماتةُ الأعداء.

٤٦ـ أن لكل عبدٍ بدايةً ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوى، كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء، كما قيل:

مآربٌ كانت في الشباب لأهلها ... عِذَابًا فصارت في المشيب عَذَابًا(١)

ومن ملك شهوته في حال شبيبته أعزّه الله في حال كهولته.

٤٧ـ أن الهوى رِقٌّ في القلب، وغلٌّ في العنق، وقيدٌ في الرِّجْلِ، ومتى خالف هواه عتق من الأسر. قال ابن المبارك:

ومن البلاء وللبلاء علامةٌ ... أن لا يُرى لك عن هواك نزوعُ
العبدُ عبدُ النفس في شهواتها ... والحرُّ يشبع تارةً ويجوعُ

---

(١) وروي:

مآربٌ كانت في الحياة لأهلها ... عِذَابًا فصارت في المـمات عَذَابًا

٤٨ـ أن مخالفة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم على الله لأبرَّهُ.

٤٩ـ أن مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا والآخرة.

٥٠ـ أنك إذا تأملت السبعة الذين يظلّهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله[١] وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى.

فالله سبحانه وتعالى المسؤول أن يعيذنا من أهواء نفوسنا الأمارة بالسوء وأن يجعل هوانا تبعًا لما يحبه ويرضاه، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير»[٢].

---

(١) الحديث متفق عليه.

(٢) روضة المحبين (٤١٤ـ٤٢٧) باختصار.

من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه

الله شكور حميد لا يخيب معامله ولا يغبن مُرضيه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، كما ترك يوسف الصديق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ امرأة العزيز لله، واختار السجن على الفاحشة، فعوّضه الله أن مكّنهُ في الأرض يتبوأُ منها حيث يشاء.

ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيلَ التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس سخر الله له الريح يسير على متنها متى أراد.

ولما ترك المهاجرون ديارهم وأوطانهم التي هي أحب شيء إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا، وملّكهم شرق الأرض وغربها.

ولو اتقى السارق وترك السرقة لآتاه الله مثلَهُ حلالاً، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه إذا اتقاه بترك ما لا يحل له رزقه الله من حيث لا يحتسب، وكذلك الزاني لو ترك ركوب ذلك الفرج حرامًا لله لأثابه الله بركوبه، أو ركوب ما هو خير منه حلالاً»(١).

«وقد جرت سنة الله تعالى في خلقه أن من آثر الألم العاجل على الوصال الحرام أعقبه ذلك في الدنيا المسرّة التامة، وإن هَلَكَ فالفوز العظيم، والله تعالى لا

(١) روضة المحبين (٣٩٣) باختصار.

يضيع ما تحمّل العبد لأجله.

وكل من خرج عن شيء منه لله حفظه الله عليه، أو أعاضه ما هو أجلُّ منه، ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم لله جعلهم الله أحياء عنده يرزقون، وعوّضهم عن أبدانهم التي بذلوها له أبدانَ طير خُضْر، جعل أرواحهم فيها تسرح في الجنة حيث شاءت وتأوي لقناديل معلقةٍ بالعرش[1]. ولما تركوا مساكنهم له عوضهم مساكن طيبة في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم»[2].

(١) رواه مسلم (١٨٨٧).

(٢) روضة المحبين (٤٠٤- ٤٠٥).

العفاف والكتمان

العفاف دين، وحفظ العرض فضيلة، وكتمان البلاء عبادة، و«العاشق له ثلاث مقامات: مقام ابتداء، ومقام توسط، ومقام انتهاء.

فأما مقام ابتدائه فالواجب عليه فيه مدافعته بكل ما يقدر عليه إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذرًا قدرًا أو شرعًا.

فإن عجز عن ذلك، وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه - وهذا مقام التوسط والانتهاء - فعليه كتمان ذلك وألا يفشيه إلى الخلق، ولا يشبّب بمحبوبه ويهتكه بين الناس، فيجمع بين الشرك والظلم، فإن الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم، وربما كان أعظم ضررًا على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله، فإنه يعرّض المعشوق بتهتكه في عشقه إلى وقوع الناس فيه، وانقسامهم إلى مصدّق ومكذب، وأكثر الناس يصدِّقُ في هذا الباب بأدنى شبهة. وإذا قيل: فلان فعل بفلان أو فلانة كذّبه واحد، وصدّقه تسعمئة وتسعة وتسعون!

فإن استعان عليه بمن يستميله إليه تعدَّى الظلم وانتشر وصار ذلك الواسطة ديُّوثًا ظالمًا. وإذا كان النبي ﷺ قد لعن الرائش فما الظن بالديوث الواسطة في الوصلة المحرمة؟ وإذا كان النبي ﷺ قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه فكيف بمن يسعى في التفريق بينه وبين امرأته وأمته حتى يتصل بها؟ وعشاق الصور ومساعدوهم من الدِّيَثَةِ لا يرون ذلك ذنبًا!

ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة، فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحقّ العبد باقٍ، له المطالبة به يوم القيامة، فإن ظلم الوالد بإفساد فلذة كبده وهو

أعزُّ عليه من نفسه، وظلم الزوج بإفساد حبيبته والجناية على فراشه أعظم من ظلمه بأخذ ماله كلّه، ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه أخذ ماله، ولا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه. فيا له من ظلم أعظم إثمًا من فعل الفاحشة!

فإن كان ذلك حقًّا لغازٍ في سبيل الله وُقف له الجاني الفاعل يوم القيامة وقيل له: «**خذ من حسناته ما شئت**» كما أخبر بذلك النبي ﷺ، ثم قال النبي ﷺ: «**فما ظنكم**»(١)؟ أي فما تظنون يُبقي له من حسناته؟

فإن انضاف إلى ذلك أن يكون المظلوم جارًا أو ذا رحم تعدّد الظلم وصار ظلمًا مؤكدًا بقطيعة الرحم وأذى الجار و«**لا يدخل الجنة قاطع رحم**»(٢) ولا «**من لا يأمن جاره بوائقه**»(٣).

فإن استعان العاشق على وصال معشوقه بشياطين الجن، إما بسحر أو نحوه، ضمَّ إلى الشرك والظلم كفر السحر. فإن لم يفعله هو ورضي به كان راضيًا بالكفر غير كاره لحصول مقصده به، وهذا ليس ببعيد من الكفر»(٤).

والله أسأل أن ينظمنا جميعا ووالدينا والمسلمين في سلك من يحبهم ويحبونه، إنّ ربي سميع قريب مجيب، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد عدد ما خلق وذرأ وبرأ.

---

(١) مسلم (١٨٩٧).

(٢) متفق عليه.

(٣) مسلم (٤٦).

(٤) الداء والدواء (٤٤٩-٥٠٥) باختصار.

وقفة تأمل

قال ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فكّرت فيما يسعى فيه العقلاء، فرأيت سعيهم كله في مطلوب واحد، وإن اختلفت طرقهم في تحصيله؛ رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهمِّ والغمِّ عن نفوسهم، فهذا بالأكل والشرب، وهذا بالتجارة والتكسّب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللهو واللعب. فقلت: هذا المطلوب مطلوب العقلاء، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه، بل لعلّ أكثرها إنما يوصل إلى ضدّه، ولم أر في جميع هذه الطرق طريقًا موصلة إلا الإقبالُ على الله ومعاملته وحده، وإيثار مرضاته على كل شيء.

فإنَّ سالك هذا الطريق إن فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظّ العالي الذي لا فوت معه، وإن حصل للعبد حصل له كل شيء، وإن فاته فاته كل شيء. وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنأ الوجوه، فليس للعبد أنفع من هذه الطريق، ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته وسعادته، وبالله التوفيق»[١].

بحمد الله تم

(١) الأخلاق والسير لابن حزم (١٣-١٦) باختصار ابن القيم لها في الداء والدواء (٤٥٠).

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

١) مقدّمات في أقوال وأعمال القلوب
٢) التوحيد والإخلاص
٣) العبودية
٤) الصدق مع الله تعالى
٥) محبّةُ الله تعالى
٦) الشّوقُ إلى الله تعالى
٧) الأُنسُ بالله تعالى
٨) الإرادة
٩) العزم
١٠) الرّجاء
١١) الرّغبة
١٢) التّوكّلُ على الله تعالى
١٣) حُسنُ الظّنّ بالله تعالى
١٤) الثقةُ بالله تعالى
١٥) الافتقارُ إلى الله تعالى
١٦) الاستغناءُ بالله تعالى
١٧) التعلُّقُ بالله تعالى
١٨) الالتجاءُ إلى الله تعالى
١٩) الاعتصامُ بالله تعالى
٢٠) سلامةُ الصّدر
٢١) العفاف
٢٢) الصَّبر
٢٣) الرّضا
٢٤) ...

الصف والتنسيق والإخراج الفني
خالد محمد جاب الله
مكة المكرمة - جوال: 0502543917